ربانية العلماء

قراءات دعوية في كتب الإدارة المعربة العربية

تأليف
جمال بن فضل الحوشبي

تربية العظماء

قراءات دعوية

في كتب الإدارة المعرّبة الغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم على طريق الصحوة (٢٢)

تربية العظماء

قراءات دعوية
في كتب الإدارة المعرّبة الغربية

جمال بن فضل الحوشبي

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية - جدة
الإدارة: ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١
هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ - فاكس ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات • حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز السلامة التجاري
هاتف - فاكس ٦٨٢٥٢٠٩

• حي الثغر - شارع باخشب - سوق الجامعة التجاري
هاتف: ٦٨١٥٠٣٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

• فرع الرياض: حي السويدي الغربي - بجوار أسواق اليمامة
هاتف: ٢٤٣٤٩٣٠ - فاكس ٤٣٣٣٦٥٧

http: //www. al-andalus-kh.com

E-MAIL : info @ al-andalus-kh. com

بارقة

❖ اطلع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يوماً على طلبة العلم فقال: «يا معشر القراء، خذوا طريق من قبلكم فلعمري إن اتبعتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً».

❖ وأنكر الحسن البصري ما رآه من تغيّر في أهل زمانه قائلاً: «لو خرج عليكم أصحاب رسول الله ﷺ ما عرفوا منكم إلا قبلتكم».

❖ وبيّن أبو حازم رحمه الله السبب وراء اندراس معالم السنن وظهور الجهل، وذهاب العلم فقال: «صار الناس في زماننا يعيب الرجل من هو فوقه في العلم؛ ليرى الناس أنه ليس به حاجة إليه. ولا يذاكر من هو مثله، ويزهو على من هو دونه، فذهب العلم وهلك الناس».

❖ وحين سُئل الإمام أبو زرعة الرازي رحمه الله عن المنهج الجديد الذي أحدثه الحارث المحاسبي رحمه الله في باب تزكية النفوس، وعن حكم القراءة في كتبه التي سطر فيها منهجه ذاك قال رحمه الله: «إياك وهذه الكتب، وعليك

بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب». فقيل له: في هذه الكتب عبرة. فقال: «من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة. هل بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنفوا مثل هذه الكتب في الخطرات والوساوس؟ هؤلاء قوم قد خالفوا أهل العلم.. ما أسرع الناس إلى البدع؟!».

- ذلكم هو منهج الاتباع المشرق الذي سار عليه عظماء التاريخ جيلاً بعد جيل. وهو الذي لخصه الإمام إبراهيم النخعي رحمه الله بقوله: «اعلموا أنه لم يدخر لكم شيء خبىء عن القوم لفضل عندكم».

مقـدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴿١٠٢﴾﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴿١﴾﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴿٧١﴾﴾.

أما بعـد:

فأن هذا الدين كامل. قد أتم الله سبحانه وتعالى به النعمة وأسبغ به الفضل والمنة. وإن محمداً ﷺ هو رسول الله حقاً، المبلغ عن ربه صدقاً. نصح لهذه الأمة.. وتركها على البيضاء.. ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وإنه لا صلاح لهذه الأمة، ولا تمكين لها في هذا العصر إلا بما صلحت به أول عهدها، وتمكنت به سالف أمرها حين أحكمت أمر عقيدتها، وتخلّت عن كل ما عدا الكتاب والسنة في إصلاح شؤون حياتها، الدينية

والدنيوية. وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أهل الإسلام يشهد شهادة الحق، ويدين لله بالعبودية، ويقرأ التاريخ بصدق، عدا أولئك المحدثين، من المثقفين والمفكرين والمتنورين بنور الغرب. ونحوهم من أرباب الألقاب الذين أفرزتهم لنا قواميس (الثقافة) المعاصرة. وأنّىٰ يخالف في ذلك من كان له أدنى نظر في قوام هذا الدين، وتأمل في شموله وعظمته وكماله؟! غير أن الخلل ما هو إلا مركب من عوامل عدة تظافرت جميعها لتفرز واقعاً حضارياً يحمل مسمى الدين، وهو أبعد ما يكون عنه، ويدّعي الاعتزاز بمآثر المعتقد، ودستور الأمة الوحيد المتمثل في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ثم هو يرضى أن ينافسه بمناهج محدثه حتى في أخص خصوصياته. ولا يبرر المنهزمون واقعهم المنحرف في عمارة الأرض بغير شرع الله، سواءً كان واقعاً سياسياً أم اقتصادياً أم تربوياً إلا بمبررات واهية لا رصيد لها، ولا هدف من ورائها إلا تكريس ذلك الانحراف، وتحويل الأنظار عن الحق، تارة باسم (الحكمة) التي هي ضالة المؤمن!؟ وتارة باسم (المصلحة) العامة أو الخاصة، وتارة أخرى باسم (المرحلية) والتدرج، ونحوها منه الشعارات لتفسير الواقع المنحرف وتبريره. وهكذا تهدم عرى الدين عروة عروة باسم المصلحة تارة، وباسم الحكمة ونحوها تارات وتارات.. حتى يتحول ذلك الانحراف ـ بعد زمن من الأزمنة ـ، وبخاصة بعد ذهاب أربابه الأول إلى طاغوت يتعبده الأفراد، ولا يقدرون على التخلّي عنه. وهذا من مصائد الشيطان، ومن مداخله، وبخاصة على كثير من مناهج الدعوة المعاصرة. وقد تفطن بعضهم إلى شيء من ذلك حين تحدث عن شعار (مصلحة الدعوة) الذي كان

يرفعه البعض آنذاك لتبرير مخالفاته الشرعية وتمريرها بقوله: «... ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات ـ بعد الرسل ـ والرغبة الملحة في انتشار الدعوات وانتصارها.. إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة، ولا مع منهج الدعوة المستقيم، وذلك حرصاً على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها، واجتهاداً في تحقيق (مصلحة الدعوة). ومصلحة الدعوة الحقيقية في استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير، أما النتائج فهي غيب لا يعلمه إلا الله، فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج، إنما يجب أن يمضوا على نهج الدعوة الواضح الصريح الدقيق، وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة كله، ولن تكون إلا خيراً في نهاية المطاف..» حتى قوله ـ رحمه الله ـ:

«.. إن كلمة «مصلحة الدعوة» ـ المزعومة ـ يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات، لأنها مذلة ومدخل للشيطان يأتيهم منه حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية الأشخاص! ولقد تتحول «مصلحة الدعوة» إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل». ومنهج الدعوة الأصيل الذي يعنيه هو منهاج النبوة الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. لئن كان ذلك ما قاله واحد ممن تبصّر الخلل في واقع العديد من المناهج الدعوية المعاصرة، فإن منهج العلماء السابقين من سلف الأمة الربانيين واضح في تصوير أدب الدعوة إلى الله تعالى، وتربية الناس على منهج الكتاب والسنة. ونحن لا ينقصنا اليوم كثير كلام، ولا كثير جدل، أو تقعيد أو تنظير. إننا أشد ما نكون حاجة إلى العلم الشرعي الأصيل، الذي ينطلق منه تفكيرنا

وتصورنا، وتنطلق منه تربيتنا وسائر مناهجنا الأخرى. ونحن قبل ذلك بحاجة إلى لزوم الأدب النبوي مع دعوة الله تعالى.. بأن نبلغ الناس دين الله.. عذباً طرياً كما أنزل، بدون زيادة أو نقص أو تحريف. وأن نبصّرهم بحق الله تعالى عليهم، من عبادته وتوحيده، وأداء فرائضه واجتناب محارمه.. وأن نعلم بدقة حدود صلاحياتنا في ذلك، والتي لا تتعدى حدود البلاغ.. والبلاغ فحسب، ومواصلة الدعوة الراشدة والتربية الربانية، بالأدب الواجب.. وفق سلامة النظر للكتاب والسنة ثم سلامة الدعوة والتربية عليهما فيما بعد. هذا هو ركن الأدب الأعظم الذي نحتاج إليه اليوم في دعوتنا.. أولاً وقبل كل شيء.

ولا والله ما نظر عبد في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسول الله ﷺ طالباً صلاح (الكفاية) بهما عما سواهما، إلا وفقه الله لصلاح (النهاية)، وأعطاه فوق مأموله، وسدده فوق ما كان يطمع، وأيده بما لم يكن يعلم.. في باب التربية، والسياسة، والاقتصاد، وفي شؤون الأخلاق والتعامل جميعاً. وهذا من جملة الفضل الذي امتن الله به على عبده محمد ﷺ بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. ومن هذه النقطة فقط تتحدد معالم تربية العظماء الناجحة، وتتضح سائر مناهجها في العلم والعمل.

واليوم.. وبعد فترة من تقادم العهد، ولين الدين، وضعف العلم، وفقد العلماء الربانيين.. فتح المجال لكل منهج بشري ولكل نظرية وافدة أن تنافس، وأن تأخذ حجمها الكمي والكيفي في تربية الأفراد في حياتنا اليومية، بل أن تخرّج منهم

دعاة مخلصين لها يذودون عنها ويحملون لواءها بلسان عربي مبين بل باعتساف متكلف للنصوص الشرعية، والقواعد المرعية. وفي حين تفاخر جميع الأمم من حولنا بتراثها البائد لكيلا يذوب في حمض العولمة الآسن ـ مع كونه تراثاً منقطعاً غابراً، لا حياة فيه ـ فإنا نجد من المسلمين اليوم من يجنّد نفسه، ويرفع عقيرته في سبيل القضاء على أعظم موروث تفخر به هذه الأمة وتعتز به، ألا وهو سلامة الاتباع بسند الهداية المشرق إلى القرون المفضلة الأولى.. تارة باسم النبذ والترك أو التشكيك في صلاحية الكتاب والسنة، بل في صلاحية الدين كله أن يكون مواكباً لهذا العصر، وتارة بالمؤامرة على الفصحى أن تكون الرابط بين المسلمين، والوسيلة لفهم نصوص الوحي، وموروث العلم النافع، وتارات بدعوى التطوير والحداثة، في صورة مناهج جديدة تحمل سمة الإسلام في الظاهر، بينما هي أبعد ما تكون عنه في الواقع؛ لأنها ضعيفة عن إدراك مقاصده، ولا تقوى على فهم حقيقته بعيداً عن أي مؤثر غربي أو شرقي محدث..

وهي عاجزة كذلك حتى عن التصريح بأصوله وأركانه، وثوابته ومناهجه بمعزل عن خوف النقد والتعيير الذي سيطر عليها من أعداء الله تعالى هنا وهناك، فضلاً عن الاعتزاز به أو الدفاع عنه. كما أنها لا تكاد تطرح حلاً من الحلول البشرية القاصرة، وفق المنهج الرأسمالي أو الوثني الحاضر، أو الشيوعي البائد في مجالات الاقتصاد والسياسة والتربية وغيرها إلا وقرنته بالإسلام، وطوّعت له نصوص الشرع بامتهان وضعة. والأخطر من ذلك كله ذهاب الغيرة على دين الله تعالى أن ينافس مناهجه الكاملة

نظريات محدثة قاصرة، أو أن تقضي بصلاح نصوص الوحي فيه أقوال الرجال وأفكارهم، مهما سمت درجاتهم، وارتفعت مكانتهم في الإسلام.. فكيف إذا كانوا من المغضوب عليهم أو الضالين؟!.

وفي حين كان يفاخر الأعرابي قبل الإسلام بقوميته، ويتغزل بعروبته ويطرب بذكر ناقته وخيمته، ويسعد بطيب هواء محلّته، وبشيم قومه، وبمآثر جماعته.. وهو يرى ويسمع عن حضارات الأمم من حوله إلا أنه لم يكن يفكر بحال أن يترك هذه الموروثات لأي سبب كان، فهو يرى فيها تاريخه وذاته، ويرى فيها حاضره ومستقبله. ولربما انتشى إذا طلبت منه الدنية في ترك خلق جاهلي بائد فرفع صوته عالياً:

كأن الأرض ما حملت قريشاً ولا اعتمّت هذيل ولا ثقيف
ولا فوق المنية سار عمرٌ ولا خفقت لذي يزن سيوف

في حين كانت تلك الملحمة الجاهلية البائدة تخفق في سماء الأعراب قديماً، فإن كثيراً ممن أكرمهم الله بالإسلام في هذا العصر، بل وأكرمهم بالعلم والفهم والثقافة لا يحركون ساكناً إذا قرن اسم الله العزيز الحكيم باسم أعلام من حضارات وافدة لا تمثل سوى هويتها ومناهجها من أمثال: (ديوي) و (روسو) و (مارتن لوثر) وأضرابهم ممن يرد ذكرهم في معرض التأصيل والتعليل أو التشريع.. ولا تضطرب نفوسهم، ولا تخفق بقية الحماسة في قلوبهم حين يُقدَّم اسم (كوفي) و (كارينجي) و (كورتوا) وأمثالهم على اسم الرسول الأكرم محمد ﷺ حال تقرير مسألة تربوية أو نظرية إدارية معاصرة؟!. وكأن الأمر كله لا

يعدو مجرد التبرك بهذا الاسم المقدّس.. ولا علاقة له البتة في تسيير دفة الحياة.

إن من جملة الانحرافات المنهجية اليوم في باب التربية ما أصبح يعصف بالشباب المسلم ـ وبعدد كبير من الدعاة وطلبة العلم ـ في صورة فن حديث برّاق، أصبح يتناول القيادة والإدارة الغربية بمنهج إسلامي مشوّه، يعتمد كثيراً على التعريب المجرد، أو الأسلمة غير المنضبطة. وظهرت تبعاً لذلك مؤلفات، ورفع أعلام وانتشرت نظريات، وبرزت مدارس جديدة تسعى لمواكبة الجديد والاحتفاء به، وتقديمه للشباب المسلم على أنه الطريق (الأمثل) للنجاح، والأسلوب المتّبع في (النبوغ) والتفوق، بلسان عربي مشوّه وبمنهج غربي يفتقر ـ غالباً ـ إلى أدنى أساسيات النظر والتأصيل الشرعي الذي يحتاج إليه الشاب المسلم.

أضف إلى ذلك أن إفرازات سلبية كثيرة.. منهجية وتربوية ظهرت مؤخراً في واقع الدعوة، وفي واقع أفرادها كذلك، مقارنة بالبُعد الزمني القصير الذي احتلته هذه الظاهرة من عمر الدعوة الطويل المبارك. فمن إفرازاتها المشاهدة: اندراس معالم السنن، وضعف الالتفاف حول العلماء الربانيين، وأهل الذكر الحقيقيين، وتشوّه مفهوم العلم (النافع) الذي يجب طلبه، والعلم غير النافع الذي يجب الحذر منه، وظهور مخالفات عقدية وشرعية كثيرة محدثة، تتخذ أحياناً مصطلحات فنية وألقابٍ قد لا يفطن الكثير لحقيقة مدلولاتها، وإغراق الناشئة بمفاهيم ونظريات وعلوم لا تقربهم إلى الله زلفى، ولا تبصّرهم بطريق الجنة المستقيم ولا تحقق السعادة (الحقيقية) لهم ولا لمجتمعاتهم، بل قد تبعدهم

عن منهج ربهم، وتضيّع عليهم أعمارهم وأعمالهم. ومن إفرازاتها كذلك أنها أصبحت تقرّب لهم ـ أحياناً ـ ما بعّده الله عنهم، وتبعّد عنهم ما قرّبه الله لهم؛ فهي تكسر حاجز الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين، وترسم هالة للنظريات المادية تماثل تلك الهالة التي كانت ـ إلى عهد قريب ـ مقصورة على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأغرقت المكتبات العامة والخاصة، وأشغلت العقول والأفهام المؤمنة بالغثاء والزبد الذي لا ينفع، وبعلم الكلام الذي اتخذ شكلاً جديداً وطوراً منظماً هذه المرة. ومن أعظم إفرازاتها السلبية ـ في المقابل ـ خلوّها من نور الكتاب والسنة، ومن زاد المتقين الصالحين، ومن آثار سلف هذه الأمة السابقين. وختام ذلك كله ظهور مناهج تربوية جديدة تنتحل مسمى الإسلام في التربية والإدارة والقيادة وهي أبعد ما تكون عن هديه الظاهر أو الباطن وعن إدراك غايته، حتى في أصول النظر والاستدلال التي لا يعذر المسلم بجهلها.

وهذا كله كاف للإجابة على التساؤل الذي يطرحه العلماء المخلصون والدعاة الغيورون عن السبب في ضعف المستوى العلمي والتربوي والدعوي والاقتصادي.. الخ في واقع المسلمين اليوم، مع ارتفاع مستوى الوعي لدى المسلمين، وتوافر المناهج الإدارية والتربوية والتنظيمية!! وهو ذات صلة وثيقة بصلاح الهداية وصلاح الكفاية الذي أشرت إليه، وبتحديد معايير صلاح الأمة في أول عهدها، ومعاييره في إصلاح واقعها المعاصر. وهذه الدراسة المتواضعة ما هي إلا جهد مقل، لم أرد منها سوى لفت النظر لهذه الظاهرة الجديدة، وما قصدت منها إلا محض النصح. وقد آليت ألا أعتمد فيها على أسلوب التشهير بذكر الأسماء، أو

التصريح بأعيان الأشخاص أو كتبهم، إلا ما دعت إليه الضرورة في باب التوثيق، بعيداً عن التجريح أو الثلب. وأجدني مضطراً إلى الخروج أحياناً عن صلب موضوع الدراسة المباشر الذي يتناول ظاهرة الكتب الغربية الوافدة وما نجم عنها من استحداث دورات وورش عمل للتعريف بها؛ نظراً لحاجة القارىء إلى معرفة طبيعة التربية الغربية وذكر مهمات حول غاياتها ونتائجها، ونظرتها للكون والحياة. وهذا في نظري من صلب مادة الدراسة كذلك وأصل أصيل لا يمكن أن تفهم إلا به.

وهي ـ بطبيعة الحال ـ دراسة معرّضة كغيرها من أعمال البشر إلى القصور والخلل، وللزيادة والنقص. ولكن أي عمل بشري كتب له التمام؟! بل أي جهد حاز الكمال!؟ والعقول بطبعها مفطورة على إسناد الكمال لله وحده، ومحتاجة إلى النقد والتوجيه، وإلى النصح والتقييم. وحتى لا أدع مجالاً لخوض الخائضين، ولا لتربص الناقدين فإني أبرأ إلى الله تعالى من كل زلل ندّ به قلمي، أو خلل سبق إليه كلمي. واتّهم به سابق تقصيري الذي لا أنكره، وجهلي الذي أعلمه. وأعترف بالفضل لله وحده، فما من صواب إلا وهو منه سبحانه وإليه، ولا والله ما لي منه إلا سواد القلم على بياض الورق، أما التوفيق والمعونة، والسداد والصواب فمن الله وحده. فمن كان صادق النصح، وافر العقل فليبادر بنصحه، عن علم، ويبصّرني بما وقعت فيه من الخلل، معتمداً على كتاب الله تعالى، وكلام رسول الله ﷺ، وأقوال أهل العلم السابقين، واللاحقين، وعلماء الأمة المعاصرين، فذلك أولى من الرأي المجرد، أو الفهم الخاص. والحق لا يعرف بالرجال وإنما به عرفوا، ولا يَشرُف

بالأفكار، ولكن تشرُّف به. وما عدا ذلك من النقد بمحض الكلام، ونظم الألفاظ، فالكلام مما يحسنه كل عاقل. ولا يعرض أحد عن رأيه الصواب إلى رأي غيره الذي يحتمل الخطأ لمجرد الكلام إلا ذلك الذي كسدت بضاعته في سوق الحوار والجدل، الذي يدخل فيه كل أحد، ولا ينتفع منه إلا من شرح الله صدره، فثبّت حجته، وهداه إلى سواء السبيل. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

وما ذكره سبحانه على لسان نبي الله هود عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿.. يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. فالهداية من الله وحده، وكذلك الثبات عليها والكفاية بها دون غيرها.

والله تعالى أحكم وأعلم، وصلى الله وسلم على النبي الأكرم، وعلى آله وصحبه وسلم.

جمال بن فضل الحوشبي

مساء الجمعة ٢٥/شوال/ ١٤٢١هـ

البريد الألكتروني:

alhaushaby@hotmail

توطئة!!

(إنها كتب تستحق أن تشتريها. . !!).

(الطريق الأمثل لحل مشاكلك الإدارية والتنظيمية. . !).

(من أكثر الكتب مبيعاً في العالم. . !).

دعايات براقة آسرة بأساليب متعددة لظاهرة ثقافية جديدة باتت تغزو مكتباتنا، وتحتل نصيب الأسد في مبيعات المطبوعات، واهتمامات دور النشر وتمثل الدخل الوفير لأصحاب الدورات والندوات والمعاهد الحالية في مجال صناعة النجاح والإبداع ونحوهما. وتتمثل في الجملة بالعناية الفائقة بالأطروحات ـ الغربية الوافدة ـ حول فنون الإدارة والقيادة وتفعيل الذات.

ومما يشكل بعداً عميقاً لهذه الأطروحات، سواء قبل تعريبها أو بعده أنها موجهة ـ بصياغة فريدة ـ لتخاطب عقول (النخبة) من المربين، والقادة، وأرباب صنع القرار، ومحبوكة ـ بعناية ـ لتؤثر في قراراتهم، ولتغير من قناعاتهم، ولتصوغ مناهجهم القيادية. . كل ذلك بأسلوب موجّه ومركز يعتمد على قوة العبارات المؤثرة. . قصيرة الألفاظ، وطرائق الإقناع المباشر المؤثر في النفوس، باستخدام أفعال الأمر غالباً: (افعل) و (لا

تفعل). . لتستقر في الذهن على أنها أصول وحقائق ثابتة في فنها، ونظم علمية ناجحة وليدة الدراسات والتجارب، والخبرات المتكررة التي لا يمكن تلقيها إلا بالقبول!!

إن من أبرز ما ينتظم هذه الأطروحات المعربة الوافدة ـ في الجملة ـ دقة عباراتها، مع الاعتناء بسبكها اللغوي ـ في كثير من الأحيان ـ، واستخدامها لأساليب التشويق والتأثير المتنوعة، من ضرب القصص، وسرد الخبرات والتجارب، والإكثار من الملح التي تشد القارىء سواء كان متخصصاً أم غير متخصص ـ من سرد الطرائف والمعلومات، والفوائد والإحصاءات، التي تعزز ما يسطره الكاتب، وتدلل عليه. . كل ذلك مع مراعاة عدم الحشو والإطالة(١)، مع الاعتماد على التفنن في اختيار العناوين الجذابة.

ومع الاعتماد على أسلوب (التأثير المباشر) على القارىء، فإن من أبرز ما يجمع بين هذه الأطروحات كذلك اعتمادها على الأسلوب (غير المباشر) في التأثير، من التفنن في اختيار العناوين البراقة الجذابة: (اصنع نفسك)، (العملاء دائماً على حق)، (تعرف على ذاتك)، (الإبداع يخنق الأزمات)، (المدير المفوّه)، (بناء فريق العمل) ونحوها من العناوين التي تستجدي فضول القارىء غالباً، والتفنن في بهرجة الغلاف الخارجي المطعّم بعبارات انكليزية تأسر عدداً من الأميين الذي لا يتقنون هذه

---

(١) حتى إنك لتقرأ العنوان. . لا يتعدى نصه في متن الكتاب نص متنه في بعض الأحيان، أو ينقص عنه قليلاً. . باعتماد عبارات مركزة، مختصرة، تحوي الفوائد والمعلومات الكثيرة.

اللغة، وإنما يمتطون صهوة الثقافة عبر التشبع بالانتماء والتفاخر لمجرد كسر مركب النقص الوهمي لديهم، أو الميل إلى أطروحاتها جهلاً بمادة الثقافة الحقيقية وتقليداً من غير وعي. بالإضافة إلى الإخراج الفني في جودة الصف والإخراج، واختيار الورق، وحجم الكتاب، وذكر شيء من مكانة مؤلفه، بأساليب تجارية ودعائية ناجحة.. حتى بات من المسلمات لدى العارفين بشأن هذه الكتب أن مصطلح (أكثر الكتب مبيعاً) بات يطلق على الكتاب الذي يُباع أكثر مما يُقرأ؟!

ولست في هذا المبحث بصدد الحكم على هذه الظاهرة الوافدة سلباً أو إيجاباً؛ لأن هذا الحكم الأغلبي الكلي مع كونه يفتقر إلى ضبط جزئياته، لمعرفة القدر المشترك بين جميع صوره التي يمكن معها الخروج بحكم أغلبي ينتظم الظاهرة جميعها، كما يفتقر إلى ضبطها بنوع من أنواع الضبط الحاصر بالنظر في اختلاف مناهجها وأصولها التي ترجع إليها، فإنه يفتقر كذلك إلى معرفة مماثلة بطرق الاستنباط والإلمام بقواعد الدين وأصوله.. وهذا هو مسلك العلماء الذين جمعوا مع العلم بالشرع العلم بهذه الأطروحات، وكانت لديهم القدرة على تجريد الحكم وفق قواعد الاستدلال والنظر في هذا الباب. ولا أعلم حتى الآن - في حدود علمي القاصر - أحداً من أهل العلم الراسخين تصدّى لهذا الموضوع، وإن وجدت اجتهادات نافعة من بعض الدعاة والمثقفين المتتبعين لهذا الفن أو ذاك من فروع هذا المنهج الوافد.

وتعنى هذه الدراسة المتواضعة - في الدرجة الأولى - بتناول إفرازات هذه الظاهرة، ولفت الأنظار إلى جانب مهم من جوانبها

المتعددة الذي قلما يتبصّرها القارىء في مراحل قراءته (الأولية) التي يصاحبها ـ في الغالب ـ شعور الإكبار والزهو، بحكم التعامل مع مصطلحات هذا الفن الإداري المعرب. ولا يخفى أن من البواعث المهمة كذلك الإشارة إلى ما لا يصح الجهل به من المعالم الأصيلة الفارقة بين منهج التربية الإسلامية ومناهج التربية الحديثة المعاصرة التي بات العلم بها فرضاً من فروض العولمة، ومستنداً من مستندات الثقافة والعصرنة، والانفتاح العالمي. والعلم بهذه السمات الفارقة، سواء في جانب العقائد والأديان، أو المناهج والأصول، أو الأهداف والوسائل كثيراً ما يعصم من الوقوع في العطب والخلل، ويحول دون مظاهر الخطأ والزلل عند تناول هذه الحدود المتباينة تعريفاً وتأليفاً وتربية.

هذه الدراسة إذن تتجاوز الحكم على نتاج مؤلِف بعينه أو صلاحية كتاب بذاته لتعالج شعوراً نفسياً كامناً أصبح يحرّك كثيراً من أوليات العمل الدعوي اليوم، ويصوغ أهدافه وغاياته، ويرسم خططه ومناهجه. والحاجة لطرح هذا الموضوع باتت مهمة جداً أكثر من أي وقت مضى[1]. وعلى الرغم مما يعتري الرسالة من قصور وخلل.. فقد تجنبت الحديث عن الأطروحات الإسلامية

---

(١) كنت قد فرغت من هذه الدراسة أواسط عام ١٤١٦هـ في أعقاب لقاء كان محور الحديث آنذاك عرض من أحد الدعاة الأفاضل لكتاب غربي سيّار هو كتاب: «مدة الدقيقة الواحدة» الذي خفض به ورفع وحث على اقتنائه طوال مدة من الزمن كان يمكن فيه أن يتناول الهدف الذي أراد من خلال طريق آخر أسلم سوى الأسلوب الذي يعزز عقدة النقص ويشيد بأطروحات الغرب ومناهجه، وشرعت في تهذيبها واختصارها مرة أخرى في شهر صفر من عام ١٤١٩هـ.

(البديلة) ـ إن صح التعبير ـ سواء من حيث القوة، أو سعة الانتشار.. كما لم أتناول حكم الأسلمة الحديثة لهذه الأطروحات، وبيان المحاذير المترتبة عن البحث في ذلك، والضوابط الشرعية اللازمة في هذا الباب. وحسبي أن أكون قد أشرت إلى طرف من أطراف هذا الموضوع الذي قل المتحدثون عنه على أهميته، واجتهدت أن أحدد بعض معالمه وآثاره السلبية التي يخشى من انتشارها وذيوعها.

«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

حجم الظاهرة في الواقع الدعوي

تزخر الساحة الثقافية بالعديد من المناهج والنظريات الفكرية التي يفتقر كثير منها لنور العلم، وإشراقات الوحي وعبق السنة.. وكثيراً ما تتباين تلك النظريات في مصادرها واتجاهاتها وأساليبها. ومن ثم تدور رحى المنافسة بين دور النشر والمراكز العلمية المتعددة لإبراز هذا الاتجاه تارة، ثم إظهار الاتجاهات المناقضة له تارة أخرى، بحسب سوق العرض والطلب التجاري، لا وفق مستوى النفع والفائدة - في الغالب -. وبذلك أتيح لكل أحد فرصة إظهار آرائه، ونشر مطبوعاته وإصداراته، التي يبرز فيها منهجه ويوضح فيها مساره، نظراً لتوافر دور الطبع، وسهولة نشر الكتب وتسويقها، والرخص المعقول في سعر الورق وأحبار الطباعة، مقارنة بما كان عليه الحال في الماضي. حتى فاقت معدلات طباعة الكتب في هذا العصر حدود التصور والخيال، وازدهرت سوق المكتبات ودور النشر، وتعددت اهتماماتها وتنوعت مجالاتها. حتى أصبح التأليف على خطورته مجرد (هواية) يمكن لأي إنسان أن يمارسها!!

وأصبح من جملة الاهتمامات المعاصرة لعدد من دور النشر والطباعة الإغراق في تناول المناهج الإدارية والقيادية المقننة،

بأقلام غربية معربة خالية من التنقيح.. وأصبح هذا الاتجاه المفاجىء أداة سهلة وسريعة للربح تنافست فيه مراكز التسويق، ومعارض دور الكتب، ومؤسسات الطباعة والنشر. وقد قرأت ذات مرة إعلاناً لإحدى دور النشر العريقة في عالمنا العربي تعرض فيه عدداً من الكتب الإدارية المعربة التي قامت بنشرها على صفحات مجلة دعوية محترمة.. وصدَّرت الإعلان بعبارة تجارية تحمل في طياتها فناً دعائياً براقاً: «إنها كتب تستحق أن تشتريها». ثم تختم الإعلان بعبارة أخرى لا تقل عنها في التأثير: «تجدها لدى (جميع) المكتبات في (جميع) الدول العربية»...؟! ولو لم يكن لهذا الاتجاه الحديث في المطبوعات ذلك الإقبال الجماهيري المحموم لم يكن لهذه الدعاية الصارخة رصيد في الواقع.

ومن تابع هذا النوع من الكتب المعربة وسأل الباعة، وتجول في عدد من المكتبات الخاصة لدى (المثقفين) من الدعاة، وجدها بالفعل من أسرع الكتب نفاداً، على الرغم من ثمنها الباهظ الذي قد يصل حداً خيالياً في كثير من الأحيان. حتى إن كتاباً غربياً معرباً صغيراً، لا تتعدى مجمل أفكاره الرئيسية النافعة أصابع اليد الواحدة بلغ ثمنه ما يوازي ثمن كتاب (زاد المعاد) في أبهى حلته وآخر طبعته.

ولقد تتبعت ذات مرة كتابا سياراً من هذه الكتب بناء على وصية ظل صاحبها يكررها عليّ بإلحاح، يؤكد لي في كل مرة أهمية الكتاب ومكانته، فلما عزمت على شرائه فوجئت بأنه نفد من مكتبات (مكة) جميعها بعد أيام قلائل من طرحه.. على الرغم من سعره الباهظ!! ولم أتمكن من الحصول عليه إلا بعد

حجز مسبق عن طريق أحد الباعة. ويصل المشهد ذروته عندما سألت البائع ذاته عن سر قيمة الكتاب العلمية مقارنة بقيمته الشرائية الباهظة فقالها بالحرف الواحد: «إن هذا الكتاب باختصار هو الطريق لحل جميع مشاكلك الإدارية والتنظيمية..»!؟. ولا شك أن هذه العبارة المهمة من هذا البائع العادي تفتقر إلى كثير من الاتزان والموضوعية، لكنها كذلك توضح لنا بجلاء الأبعاد الحقيقية التي رسمتها الظاهرة في حياتنا الاجتماعية. ونحن كثيراً ما تأسرنا هذه الدعايات البراقة، وتصوغ مفاهيمنا تلك العناوين الجذابة.. وهذا هو مكمن الخطر، ومحور النظر؛ فلقد أصبح عدد ليس بالقليل من الدعاة يتقبلون (إبداعات) الغرب القيادية والتنظيمية والإدارية والفكرية من غير تمحيص، ويعتمدونها على أنها الأنموذج الكامل في تسيير أعمالهم الدعوية، على الرغم من مناعتهم - في المقابل - من آثار الغزو الأخلاقي أو العقدي المباشر الوافد من الغرب!!

وليس غريباً أن تظهر على الأفق القريب مناهج دعوية معاصرة تحذو حذو المنهج الغربي في الإدارة والتنظيم، التخطيط والتقييم بحجة تتردد كثيراً، مفادها رفع الحرج عن الإفادة أو التقليد فيما لا يتعارض مع قواطع النصوص وكليات الدين. حتى لقد أصبح العديد من الدعاة يعتقدون بأنهم قطعوا شوطاً كبيراً، وقدموا نِتاجاً تربوياً عظيماً للأمة كلما ازدادت نسبة المحاكاة والاتباع، وتقاربت الهوة في مستوى الإخراج والتأصيل والأسلمة لهذه الأطروحات الغربية.

بل لقد أصبح من بين الاتجاهات المعاصرة لعدد من دور النشر مجرد التخصص والتفرغ للاهتمام بهذه الأطروحات الإدارية

والقيادية الغربية. ونقلها أولاً بأول مهما كلّفهم ذلك من مال وجهد.

ومما لا يقل أهمية عن هذا الشعور في إدراك حجم هذه الظاهرة في عملنا الدعوي اليوم.. شعور داخلي خطير لدى البعض يتمثل في الرضى، واليقين بسلامة الوسائل الإسلامية، ونجاح سير العملية الدعوية أو التربوية ما دامت على النسق القيادي ذاته في التنظيم والتخطيط والتقييم، وفق ذلك المنظور الغربي الوارد في طيات تلك المؤلفات التي لا تمثل - في كثير من الأحيان - سوى وجهة نظر أصحابها، وتسطّر تجاربهم وخبراتهم الذاتية. وكثيراً ما كنت أتلمّس مبررات حكم البعض على فشل عمل دعوي أو منهج تربوي من خلال نظرتهم وقناعتهم غير المتعقلة لمكانة هذه النظريات، وصلاحيتها في أن تكون قاضية على الدعوة وقضاياها التوقيفية والاجتهادية.

❖ من يقرأ هذه الكتب؟!

في عالمنا العربي والإسلامي يكثر (المثقفون) الذين لا يتورعون عن قراءة أي شيء.. مهما كان فنه أو تخصصه بل والخوض فيه تحليلاً وتعديلاً!! ولهذا يتعين علينا قبل الإجابة على هذا السؤال - الذي لا جدوى من الإجابة عليه الآن - أن نحدد المنهج الذي نسير عليه في هذه الدراسة، وماهية تلك الكتب التي نتعامل معها بتحديد مجال تخصصها والفن الذي تصنّف فيه بغض النظر عن قطاع القراء لها منذ البداية.

ومما لا يخفى في هذا المجال أن السر الكامن وراء انتشار هذه الكتب المعربة هو في كونها - كما يزعم البعض - صالحة

لمخاطبة الجميع على اختلاف طبقاتهم وتخصصاتهم؛ فهي تصلح لمدير المكتب في مكتبه، وللمدرس في مدرسته، ولرجل الأعمال في نطاق عمله، وللطبيب في داخل عيادته. وعليه فهي تصلح ـ بالضرورة ـ للداعية وطالب العلم.. كما تصلح كذلك للأب وللأم على حد سواء؛ لأنها عبارة عن قواعد ونظم تربوية وقيادية عامة يمكن أن تصاغ ـ بعد التعديل ـ لتوافق تلك التخصصات ولتواكب تلك الرغبات جميعاً!!

لكننا هنا في معرض دراسة موضوعية لا تهتم كثيراً بهذه المزاعم ـ وإن كان لها شيء من الصحة لدى البعض ـ؛ إذ الواجب أن يُعرف الهدف الذي صيغت من أجله هذه الكتب، والمخاطبون الذين توجه إليهم في الدرجة الأولى، بلغتها الأصلية قبل التعريب.

إن من الحقائق التي لا ينكرها أحد من القراء أن هذا النوع من الكتب المعربة موجه بالدرجة الأولى لمخاطبة (رجال الأعمال)، والموظفين في الشركات والمؤسسات (الربحية) على اختلاف مهامهم وتعدد وظائفهم ومسؤولياتهم. وتنوع الأطروحات وتعدد المواضيع والعناوين فيها أمر مدروس بعناية، فما بين جملة من النصائح الموجهة إلى مندوب المبيعات لتحسين قدرته على التواصل والتأثير، إلى قواعد في فن كتابة التقارير، وأخرى في طريقة الإحصاء وتقدير الميزانيات ومعرفة الفائض أو العجز، وما بين أطروحات في استثمار وقت العاملين بالمؤسسة وتوجيهات إدارية قبل توظيفهم... إلى دراسات لا تحصى كثرة في تحسين فاعليات التعامل مع الجمهور ووسائل جذبهم ليكونوا (عملاء) دائمين للمؤسسة. ونظراً لكثرة الإقبال على هذا النوع المادي من

الطرح الغربي ظهرت مؤلفات عدة لتعالج جزئيات فرعية ودقيقة تتصل بالعمل الإداري داخل المؤسسة وجدت طريقها إلى الشهرة كذلك.. منها تلك الجزئية التي قامت (باربارا همفيل) Barbara Hemphill بإبرازها في مؤلفها الصغير (ترويض النمر الورقي)! Taming the Paper tiger الذي جعلت محور دراسته تنظيم الأوراق الصادرة أو الواردة إلى مكتبها الخاص الذي لازمته سنوات عدة داخل المؤسسة. ومما يلفت النظر في هذه الكتب اعتمادها على أسلوب الإقناع (غير المباشر) في جدوى تلك الكتب، وضرورتها الملحة. فبالإضافة لتزويق المظهر الخارجي وتطعيمه بالكلمات الغربية الجذابة وإخراجه المتميز - كما سبق -، يكثر الحرص على إبراز سنوات الخبرة) التي مارسها مؤلف الكتاب في العمل الإداري عموماً وبخاصة ما كان منها متعلقاً بجوهر الموضوع ذاته، كما يحرص البعض على حشد أسماء براقة لمن قرّض الكتاب وأشاد به من مدراء التدريب أو كبار الموظفين أو حتى مسؤولي التخطيط الاستراتيجي والبارزين في مجال تنمية مهارات الموظفين في المؤسسات ونحوهم.

في حدود هذا الإطار المهم يجب أن نتعامل مع تلك العبارات المجملة التي ترد في هذا الصنف من الكتب مثل: (تحسين الأداء) و (تطوير الفاعلية الذاتية) و (التعامل مع الآخرين) و (عمليات النمو والتغيير المستمرة).. وحتى تلك العبارات التي قد يفهم منها العموم مثل: (توسيع المعارف والمهارات) و (تفعيل الأفراد) ومئات العبارات والمصطلحات العامة الأخرى التي قد لا يتحرج البعض من إسقاطها على جوانب أخرى.. خارج نطاق التخصص الذي صيغت من

أجله.. ومن هنا تظهر الحلقة الأولى من حلقات الخلل المنهجي في التعامل مع هذه الأطروحات المعربة.

لقد بات الحرص على تصدير أغلفة هذا النوع من الكتب بذكر سني الخبرة لمؤلفيها، وبيان سعة انتشارها مادة مكرورة يحلو لدور النشر إبرازها والتفنن فيها، حتى أضحى بعض هذه الكتب سوقاً للفشارين، ومسرحاً للمتنافسين، لدرجة يسم بها أحدهم كتابه أنه: (ثالث أوسع الكتب انتشاراً في العالم)، وآخر يدعي أنه: (الأوسع انتشاراً بعد التوراة؟!). مع أن هناك كتب أخرى لربما كانت أوسع شهرة منها في عالم اليوم العجيب كتلك التي تعني بالطبخ والمغامرات وقصص الأطفال والألعاب!؟

ولا تسل عن تأثير هذه العبارات الدعائية المفاجأة البراقة في أسواقنا الثقافية العربية التي لم تتعود على هذا السفور الإعلاني في نطاق الكتب التي كان الأولى بها أن تخاطب العقول والأحلام بدلاً من دغدغة العواطف والإثارة والتصنّع.

ولربما لم يكن لهذه العبارات ولتلك الدعايات أثر فعّال في الغرب كما هي عندنا، بالنظر إلى ملايين المطبوعات الأخرى في الفن ذاته التي تتنافس فيما بينها لتخاطب المدراء ورجال الأعمال والموظفين الغربيين، وتجد الألوف منها طريقها إلى الأسواق الغربية مع إطلالة كل صباح بلغتها الأصلية.

نحن بحاجة إذن أن نعي أولاً طبيعة الاختصاص الذي تتناوله هذه الكتب، والمرادفات الصحيحة للمصطلحات التي تشير إليها.. كما أنا بحاجة كذلك إلى حصر الجمهور الذين تخاطبهم

بالدرجة الثانية من أهل الاختصاص الذين يجدون المرادف (الواقعي) لمصطلحاتها في نشاطهم الميداني.

وكثير ممن غرق في لجج المصطلحات هم ممن لم يحدد بدقة إن كان (ممن تخاطبه هذه الكتب) بالدرجة الأولى أم لا.. بالمعنى السابق الذي أشرت إليه.

وأذكر ذات مرة أنه وقع بين يدي مقال نشرته مجلة الأسواق في عددها السادس لرجل أعمال ومهندس متخصص.. وكان مقاله عبارة عن عرض مقتضب لكتاب سيّار من هذه الكتب الإدارية المعرّبة وسم هو الآخر بأنه (من أكثر الكتب مبيعاً في العالم)!! وما شد انتباهي حقاً هو الخروج عن دائرة العرض المجرد إلى التأصيل المشوّه الذي أصبح رائجاً لدى عدد من المعجبين بهذا النوع من الكتب.

يقول من جملة ما قدّم به الكتاب وحث على اقتنائه: «... ومسألة الاهتمام بالعلم تندرج وتدخل في إطار اتباعنا لقول رسولنا ﷺ: «**اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**». ومن الكتب الجديرة بالقراءة التي لفتت نظري في مجال الإدارة والتي تحدثت عن تطوير قدرة وكفاءة رجل الأعمال ومتخذي القرارات وصانعي الأحداث.... إلخ». ثم ذكر الكتاب وبيّن ما تضمنه من عناوين وفصول، لست هنا بصدد الحكم عليها بمنأى عن القراءة التخصصية المتأنية المنصفة.. لكنني أعجب حقاً من ردود الأفعال تلك التي تضفي على مثل هذا العرض للأطروحات المعربة هالة شرعية لا تستحقها، بل لا تفتقر إليها بحال ما دمنا نملك الإرادة على أن نقرأ ما نشاء وندع ما نشاء. ثم ما الفارق

بين تلك الدعايات البراقة التي تحرص عليها دور النشر لترويج هذه الكتب في سوق الأمية الثقافية التي يشتري فيها الفرد ما يأسر ناظره أكثر مما ينمّي مداركه، ويلبي حاجياته وبين وسم هذه الكتب بأنها من (العلم) الذي حث عليه الشرع ورغّب فيه باستدلال عجيب في طيات العرض الموضوعي لكتاب غربي سيار؟! فإذا كنا قد لا نجد الحرج ذاته من قراءة المتخصص الذي يُوَجَّه إليه الخطاب مباشرة؛ لأنه يفقه بالفعل المرادفات الواقعية في محيط عمله التخصصي، فإنا يجب أن نفرّق بين الموضوعية والمثالية في هذا النوع من القراءة، وبين النقد المتعقل والانبهار المتعجل.

فإذا تجاوزنا قليلاً هذا الصنف من القراء المتخصصين فإنا نجد صنفاً آخر ممن لا يعنيهم جانب الاختصاص بحال وإنما هي الثقافة والاطلاع، وحب القراءة لذاتها بهدف معرفة الجديد فحسب، مع شغف بمواضيع أخرى جانبية قد لا ترتقي إلى الهدف الأصيل الذي صنفت لأجله تلك الكتب. ومن ثَم فليست لدى هذا الصنف من القراء أي رغبة في إحداث تصوّر جديد، أو في إيجاد نقلة نوعية، أو حتى في البحث عن المرادف الواقعي للمصطلحات الجديدة التخصية لتتناسب مع طبيعة عمله غالباً.

ولست معنياً هنا بالخوض في حديث خاص مع طبقة القراء الأولى أو الثانية وبيان الآثار السلبية الناجمة عن القراءة خارج نطاق التخصص، والمؤدية إلى التشويه الظاهر حتى في كفاءة تلك الكتب، أو المعارف التي يمكن الإفادة منها في طياتها؛ لأن هذا الحديث الخاص مجاله لأهل الاختصاص، والعلم على حد سواء.

وبين هذا الصنف من القراء وذاك صنف آخر بات يتتبع تلك الأطروحات الغربية المعرّبة في القيادة والإدارة وفنون التعامل مع الآخرين، لا لتوظيف هذه القراءة في مجال الاختصاص إذ هو ليس من أهل الاختصاص، كما أنه لم يقرأ لمجرد الثقافة والاطلاع العام، وإنما لإيجاد تصوّر جديد مختلف لتلك المفاهيم المؤسساتية، وإحداث صورة أخرى في باب الإدارة والقيادة، وإيجاد نقلة نوعية عبر استحداث مرادفات جديدة لتلك المصطلحات المعرّبة.

ومن رواد هذا الصنف من القراء قطاع عريض من رموز الدعوة والتربية المعنيين بتحسين قدراتهم، وزيادة كفاءاتهم الشرعية والمعرفية. غير أن الحلقة المفقودة هنا هي تلك التي تصل بين هذا الفن في ذاته، وبين القدرة على الإفادة المتعقلة من الدراسات والأطروحات التي تنتسب إليه وتحمل أهدافه؛ إذ كل كتاب في الإدارة أو القيادة لا يعني بالضرورة أنه هو (القيادة) أو (الإدارة) بذاته، كما أن كل كتاب في التربية لا يغني عن معرفة (التربية) بعينها.. وهذه هي حلقة الخلل الثانية التي وقع بها عدد من القراء لهذه الأطروحات.

وكم ظهرت آثار الانبهار والإعجاب والحفاوة لدى البعض لمجرد امتلاك كتاب من هذه الكتب أو أكثر، وكأن مجرد الاقتناء أصبح يمثل هوية الدخول للفن ذاته، أو رمز الانتماء لأهله من ذوي الاختصاص!! وبات من الأهداف السامية عند بعض الدعاة إيجاد أفضل الطرق وأقصرها لخدمة الدعوة من خلال توظيف تلك المفاهيم الغربية المعربة توظيفاً جديداً مؤصلاً. وأصبح ذلك هو الهم الأكبر، والشغل الشاغل لدى البعض.. من أجله يتتبع

معارض الكتب المحلية والدولية، وفي سبيله يتردد على معاهد الإدارة وكلياتها، ومراكز البحث ودور النشر.

وعندما قمت باستطلاع تمهيدي لهذه الدراسة في قطاع عدد من الدعاة الذين اشترطت حصولهم على درجات علمية متفاوتة ممن يشرفون على مواقع تربوية مهمة، كانت إجاباتهم جميعاً على سؤال: (ما حاجة الدعوة في هذا العصر لهذه المفاهيم الإدارية الوافدة؟) تمثل رغبة حقيقية في تطعيم الدعوة بهذه المفاهيم الإدارية والتنظيمية على درجات متفاوتة من الانبهار والمبالغة التي وصلت ذروتها بقول أحدهم صراحة: حاجتها إليها كحاجة السمك للماء!؟

ولست أتجاهل هنا نبل الغاية، وشرف الهدف، وسمو النظرة من هؤلاء الصالحين تجاه دعوتهم.. لكني أعود لما ذكرته سابقاً في حق الصنف الأول من القراء من وجوب إدراك المعاني وفقهها قبل أن نتذرع بعدم المشاحة في مصطلحاتها، والتفريق بين القراءة للإفادة الموضوعية، وبين المثالية والعاطفية التي تتجاوز حدود المعقول.

وتزداد حدة التأثر في واقع قطاع عريض من الدعاة الذين لم يألفوا قراءة هذا النوع من الكتب، ولا التعامل مع ألفاظها ومصطلحاتها الفنية، وأساليب الإقناع الذي تتميز به، وأولئك الذين يقرأونها بقناعات مسبقة مستشعرين يقيناً أنها الحل الأمثل لأزماتهم التربوية ولمشاكلهم التنظيمية!؟

ولا يكفي هنا ما يدّعيه البعض ـ نظرياً ـ من قناعاته بصلاحية التربية الإسلامية، وقدرتها على مواكبة ظروف الدعوة

جميعها، وتقديمها الحلول الناجحة لكل الأزمات الطارئة.. بينما تعزّز ممارساته العملية هوية جديدة المعالم في محيط العمل الدعوي، تعتمد كثيراً على قواعد النظر الغربي بلسان عربي مبين تحت مسمى (التأصيل) تارة و (الأسلمة) تارات أخرى.

وسريعاً ما تتحدد معالم هذه الهوية الجديدة في واقع نفر من الدعاة (المثقفين) الذين يتقنون التحدث بلغة الإدارة الحديثة ويعتمدون مناهجها في حياتهم الدعوية العملية.. وهم مع ذلك غير قادرين على التفريق بين المصالح والمفاسد المعتبرة شرعاً، ولا يدركون فقه الفرائض العينية أو فقه الأولويات الدعوية؛ لأنهم لم يألفوا بعد تحرير المسائل الشرعية، أو النظر في أمهات الكتب العلمية أو ينعموا بأريج الإسناد، وبشاشة الأحاديث النبوية في القلوب، فضلاً عن الاستنباط وتحرير المسائل والترجيح بين الأقوال.

وكثيراً ما تقود هذه التربية ـ الفكرية ـ إلى أزمات ونتائج سلبية لا حصر لها، تتفاوت في درجة قربها وبعدها من الحق بحسب نسبة محتوى الوحي الذي ترجع إليه وتعتمده في النظر والاستدلال.

❖ جناية المصطلحات اللفظية:

أكثر ما يقع الخطأ حين تلبّس النظريات والآراء الشخصية بلباس الحقائق الثابتة الكلية، عن طريق التلاعب بالمصطلحات، والتنويع في الألفاظ بدلاً من الرجوع للحق والبحث عن الصواب. وكثيراً ما يقود الرأي المحض إلى ظهور مناهج كلامية بحتة لا أساس لها عند النظر، كما يقود إلى اطراح الآثار والسنن والعلم الأصيل.

والكلام يحسنه كل أحد.. وإنما بالعلم وحده توزن الأفهام ويعرف الحلال من الحرام.

وعلى هذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض ذكره لأسباب ضلال الفرق وانتشار البدع الكلامية والمنطقية: «... وقد عدلت المرجئة في هذا الأصل - في مبحث تعريف الإيمان - عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمدوا على رأيهم، وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة. وهذه طريقة أهل البدع، ولهذا كان الإمام أحمد يقول: أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس. ولهذا نجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة، ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم. وهذه طريقة الملاحدة أيضاً، إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار، فلا يلتفتون إليها. هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه...»(١).

وكلا الطريقتين تتجنب الأخذ من النصوص مباشرة بفهم

---

(١) كتاب الإيمان: ص ١١٤، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

السلف والأئمة المتبوعين. ولهذا ظهرت آثار الخلل ومجانبة الصواب.. إما باطراح الأدلة والنصوص، أو بفهمها وفق القياس والرأي والهوى..

ولا جدوى من المصطلحات ههنا، ولا عبرة بالألفاظ ما دامت الحقائق والمعاني بهذا الابتعاد عن النصوص. ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى ثلاثة مصطلحات معاصرة أصبحت تمثل نهجاً جديداً في فهم النصوص الشرعية بعيداً عن أقوال الصحابة والتابعين والأئمة من بعدهم، والتوفيق المزعوم بين هذه الفهوم الخاصة للأدلة، وأقوال الغربيين ونظرياتهم.

❖ التأصيل.. والأسلمة

من المصطلحات الشائعة المتداولة.. مصطلح (التأصيل) الذي أصبحت تطبيقاته تمثل لدى البعض وثائق شرعية معتمدة في مجال القبول أو الرد لهذه الأطروحات الوافدة، وهي في حقيقتها كثيراً ما تباين المرادف الصحيح لمصطلح (التأصيل) وتناقضه. إن عملية التعريب المطعّمة بالشواهد والنصوص العربية التي تحكم بصحة الحقائق والقواعد الغربية ليست عملية تأصيل بأي حال من الأحوال.. ولا يعدو حشد هذه النصوص الشرعية في طياتها - على كثرتها - سوى خلط بين المفاهيم، وتلاعب بالألفاظ والدلالات مع الحفاظ على الحقائق الكلية بل وتعزيزها. وهذه نظرة قاصرة للتأصيل؛ إذ مجرد الاستشهاد أو الاقتباس لا يفيد شيئاً في مقابل الحفاظ على حقائق المعاني والأغراض التي سيقت تلك الشواهد في معرض الدلالة عليها.

وهناك عملية أخرى باتت تفهم خطأ على أنها مظهر من

مظاهر التأصيل مع افتقارها لكثير من شرائطه وأركانه وهي تلك العملية التي تعتمد أسلوب الاستقراء والسبر لنصوص الشريعة ومناهج الأئمة لإظهار نوع سبق إسلامي وريادة لمفهوم غربي محدث أو لنظرية علمية ثابتة. وغالباً ما تظهر هذه الطريقة نتيجة الغيرة والتأثر، أو نتيجة التنافس وردود الأفعال، ولا تستند غالباً إلى قياس صحيح. ولربما كان الباعث لهذه العملية نظرية مادية ـ علمية كونية أو إنسانية ـ لمجرد تشابهها الظاهري مع قاعدة شرعية في بعض جوانبها، أو كانت مما وردت الإشارة إليه (ضمناً) في نصوص الكتاب والسنة، أو في تطبيقات علماء الأمة السابقين. وهذا لا يصلح بحال أن يكون تأصيلاً تطمئن إليه النفوس وتسلّم به؛ لافتقاره للمنطلق الواضح، والأساس الثابت الذي يضرب بجذوره في أعماق القرون المفضلة الأولى.

إن عملية (التعريب) مهما كانت متميزة فذة مستندة على التوثيق والتصرف والاستشهاد، والانتقاء والمقابلة التي يقوم بها بعض الغيورين على الدين لا تصلح لأن تكون عملية تأصيلية مجردة ما لم تعقبها دراسة واعية أخرى على أيدي العلماء الربانيين الذين يستنبطون الأحكام والقواعد الشرعية من أدلتها التفصيلية، ويعلمون المصالح والمفاسد، ويدركون الأصول والمقاصد.

وكما أنه لا يصح إطلاق هذا اللفظ ـ التأصيل ـ على عملية التعريب المجردة، فلا يصح كذلك أن نطلق عليها مصطلح (الأسلمة)؛ لأن كلاً من الأسلمة والتأصيل حدان متغايران لكل منهما حقيقته اللغوية الخاصة، بالإضافة لحقيقته الشرعية التي قد لا يدركها آحاد الناس. وحين يتم التعامل مع الحدود الشرعية من

خلال قواعدها اللغوية المجردة يظهر الأثر بجلاء، وتتحدد معالم الحلقة الرابعة من حلقات التعامل الخاطىء مع هذه الأطروحات الوافدة.

وكم رأينا من تقرير التداخل النشاز بين الحدود المتباينة، والتوفيق بين المعاني المتغايرة لمجرد التوافق اللغوي والتماثل الاصطلاحي فحسب. ومن النتائج الخطيرة لهذه العملية أن أصبحت عملية (التأصيل) ـ المعقدة ـ حقاً مشاعاً لكل أحد بعد أن جردت من ضوابطها الشرعية المعتبرة ولم تحدد مؤهلات الأفراد القائمين عليها، ومعايير كفاءتهم. حتى إن آية من كتاب الله تعالى تنتزع اعتسافاً، أو خبراً من سنة رسول الله ﷺ يؤخذ اقتباساً ليشهد على صحة حقيقة غربية، أو مفهوم محدث وافد بات كافياً ـ عند البعض ـ لإضفاء سمة (الشرعية) ومن ثم إمكانية القبول والاعتماد في باب التربية والإدارة والأخلاق والتعامل؟! وحتى دخل في مهنة التأصيل هذه من يحسن ومن لا يحسن، وخاض فيها من رجال الأعمال ونحوهم ممن لا يفقه في أصول الشريعة شيئاً ولا يدرك من فقه المصالح والمفاسد إلا القليل.

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كُلاها وحتى سامها كل مفلس

ومع اعتماد كثير من هؤلاء على الحقيقة اللغوية لمصطلح (التأصيل) فإن المعنى الصحيح لهذه الكلمة لا يسعف أصحاب هذا الاتجاه الحديث في التعريب. فالتأصيل مشتق من الأصل الذي لا يمكن أن يكون مستورداً من خارج الماهية؛ فأصل الشيء أساسه، والأصل هو ما يبنى عليه غيره، ومنه أصل الجدار. والأصل كذلك هو ما تفرّع منه غيره كأصل الشجرة التي

يتفرع منها أغصانها. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. قال ابن فارس: الهمزة والصاد واللام ثلاثة أصول متباعد بعضها من بعض أحدها: أساس الشيء[١]. وفي المعجم الوسيط: أصّل الشيء: جعل له أصلاً ثابتاً يُبنى عليه[٢]. قال الكفوي في الكليات[٣]: (الأصل يطلق على الراجح بالنسبة للمرجوح، وعلى القانون والقاعدة المناسبة المنطبقة على الجزئيات، وعلى الدليل بالنسبة للمدلول وعلى ما يبنى عليه غيره. ويطلق على المحتاج إليه كما يقال: (الأصل في الحيوان الغذاء)، وعلى ما هو الأولى، كما يقال: الأصل في الإنسان العلم، أي هو أمرى له من الجهل. وعلى المتفرع عليه كالأب بالنسبة إلى الابن. والأصول من حيث إنها مبنى وأساس لفروعها سميت قواعد. ومن حيث إنها مسالك واضحة إليها سميت مناهج، ومن حيث إنها علامات لها سميت أعلاماً). ا.هـ.

فالتأصيل بهذا المعنى إذن هو جعل الشيء أصلاً لغيره، أو منهجاً أو علماً تبنى عليه سائر الفروع.

قال الكفوي: (وتخلّف الأصل في موضع أو موضعين لا ينافي أصالته. والأصول تراعى ويحافظ عليها) ا.هـ.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، ١٠٩/١.

(٢) المعجم الوسيط: ٢٠/١.

(٣) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): ١٨٨/١، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ.

إن المفهوم المستورد من ديار لا تدين بالإسلام ولا تعترف بأصوله وكلياته ومناهجه مهما كانت جودته، وبلغت مكانته يظل دخيلاً.. وبحاجة إلى مزيد من النقد، ومزيد من النظر، ومزيد من الوعي عند التعامل معه. ولا يمكن بحال أن يكون الأصيل كالدخيل. وعليه فإن التأصيل الحقيقي للمفاهيم التربوية الإسلامية لا بد أن تنبعث من الداخل.. أي أنه: (حركة علمية جادة يقوم بها العلماء القادرون من أهل الفن ذاته لوضع الحلول العملية والاستنتاجات الدقيقة والضوابط الصحيحة لما يخدم تخصصهم، معتمدين على مصادر التشريع ومحتوى العلوم الإسلامية الصحيحة طوال العصور الإسلامية السابقة).

وبغير الرجوع للأصل فإن سائر المحاولات الأخرى ما هي إلا جهود متباينة تسعى للخروج بأفكار ومناهج مستوردة بأشكال مختلفة، لكن بمقاسات (معدّلة)، مفصّلة لتوافق احتياجات البعض في هذا الفن أو ذاك.

وكما هو الحال في مصطلح (التأصيل) فإن لفظ (الأسلمة) بإيحاءاته الضخمة كذلك لا يسعف أولئك الحريصين على القيام به؛ إذ هو في حقيقته الحالية ضرب من ضروب نقل الحكمة أو التراث الموروث بعقيدة ما بغير لغته الأصلية إلى تراث آخر، مع الحفاظ على الأغراض والمعاني الأصلية وتحوير الرسوم والمباني الدالة عليها فقط. والأسلمة ـ إن كان يراد منها تطويع ذلك التراث للإسلام ـ تقتضي تحويل أصول تلك المفاهيم ومقاصدها أولاً لتكون خادمة للإسلام مندرجة تحت غاياته.. خاضعة لأصوله وثوابته. وهي بذلك عملية تستهدف تحوير المعاني

والمباني معاً، وربط الوسائل والغايات سوياً، والنظر في النتائج ومقدماتها، والأهداف ووسائلها[1].

❖ مهمة خاصة جداً !!

بطبيعة الحال، يتطلب لهذه المهمة ـ كغيرها من المهام ـ الأكفاء القادرين ممن اجتازوا أساسيات ضرورية سابقة، وتحلّوا بشروط لازمة في باب العلم وحسن النظر. وهؤلاء ـ وحدهم ـ هم القادرون على مجانبة الخوض في اعتماد هذا النهج التأصيلي قبل سلسلة من الإجراءات المهمة السابقة.

من هذه الإجراءات التأكد أولاً من الاحتياجات (الحقيقية) للتربية الإسلامية في مرحلتها المعاصرة، بعيداً عن تشدّق الماديين ونظرياتهم. ثم التأكد ثانياً من خلوها من هذه الاحتياجات بالفعل، وذلك بالنظر في النصوص والآثار الشرعية وفهم السلف وأقوال الأئمة. وفي هذه المرحلة يتم ترتيب الفروع مع أصولها، وإعادة العمومات إلى خصوصياتها، والإطلاقات إلى تقييداتها. فإذا أورقت شجرة الأصالة هذه وبدت ثمارها، جاءت مرحلة (الانتقاء) الواعي، والاستفادة المتعقلة المدروسة، وظهرت مرحلة القبول أو الرفض بضوابطه الشرعية المعتبرة.

وهذا كله ـ بلا شك ـ ليس متروكاً لكل أحد أياً كان مهما كان مخلصاً في مقصده، ومهما كان هدفه حسناً؛ لأن أهم أركان

---

(١) بخلاف تلك العلوم المادية البحتة في مجالاتهما وتخصصاتها المتنوعة كالطب والهندسة والصناعة ونحوها مما لا حرج من الإفادة منه بل مما يجب تعلمه إذا دعت إليه حاجة المسلمين.

هذه العملية الواعية هو ذلك الشخص الذي يتصدى لها بكونها جهداً علمياً يتطلب دقة الاستنباط والنظر، ومعرفة بأصول الأحكام ومقاصد الشريعة، ثم هي تتطلب كذلك ممارسة (عملية) واعية للدعوة والتربية، وتلمساً حقيقياً لاحتياجاتها، ومعرفة بواقعها ومناهجها.

كما تتطلب بالإضافة إلى ذلك معرفة بمناهج التربية المعاصرة والإلمام بأصول مناهجها، وارتباطها الكلي أو الجزئي مع مناهج التربية وعلم النفس. كل ذلك لتحقيق غايتين:

الأولى: كيلا يتم نقل مستورد حادث لسد حاجة متطلبها الأصيل موجود بالفعل في منهج التربية الإسلامية تحت قالب لفظي آخر، لربما كانْ مندرجاً تحت أصل عام لم يتم تطبيق ما تفرع عنه، أو قاعدة مجملة تحتاج لنوع تقييد، أو لم يكن واضحاً لنوع إبهام لا يفقهه إلا أهل العلم. ومن ثمار ذلك: قطع الطمع عن تكلف البحث والنظر في مصادر ومناهج شرقية أو غربية أخرى، غيرها من المناهج الإسلامية أولى منها وأضمن.

والثانية: لتحاشي التعامل مع فروع العلوم الوافدة وتقاسيمها بعيداً عن مناهجها الكلية وقواعدها العامة وغاياتها الأصلية. وكذا لتحديد منطلقات العلوم المشتركة التي يتنازعها غير ما علم أو فن في الوقت ذاته. ولتناول كل منهج وافد وفق ما يراه أصحابه لا ما يراه الناقلون عنهم، مع إدراك التطور الذي مر به ذلك المنهج أو تلك النظرية على مر تاريخ العلم ذاته، أو العلوم الأخرى التي تنازعته، كما هو الحال في علم النفس، والتربية والاجتماع التي

تشكل مزيجاً معقداً في التربية الغربية مع خصوصية كل علم منها على حدة.

ومن ثماره كذلك القدرة على تلمّس أصول المناهج الوافدة، والفكرة الأولى التي قامت عليها، ثم تطبيق ذلك الفهم لأساسيات العلوم على تسلسل تلك المناهج والغايات التي آلت إليها.

وإذا وجد ذلك الشخص العالم المؤهل الواعي بهذه الخطوط التقابلية كلها فإنه لن يتجاوز المرحلة الأولى من مراحل الاستفادة وهي مرحلة النظر في خلو التربية الإسلامية من هذه المفاهيم المستوردة؛ وذلك لقناعته بكمال هذا الدين وأن ليس ثم شيء فيه نفع وصلاح إلا وقد جاء ذكره والإشارة إليه.. عَلِمه من عَلِمه، وجهله من جهله.

وكثير من دعاة التأصيل والأسلمة لو تمهلوا وبحثوا، وسألوا ـ بدلاً من الاندفاع إلى أخبار القوالب الغربية الجاهلية لاستخراج حلول آنية لأزماتهم التربوية أو الدعوية لوجدوا ضالتهم. من معين أصالتهم ولو قلّبوا أسفار العلم وكنوز الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح لوجدوا الكثير الأصيل الطيب. وهو في الحالين جهد وبحث.. لكن شتان بين بحث ينطلق من اعتزاز وقناعة بالكفاية والهداية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والوضوح الذي تذكيه نفسية الداعية الواثق الصادق، وبحث هزيل منهزم يبحث عن شواهد ونصوص غربية مجملة عامة وقواعد وتوجيهات مشوّهة تفتقر إلى الأصالة وإلى عبق النصوص والآثار.

❖ تعريب.. لا تغريب !

ونحن نتحدث عن هذه الظاهرة الثقافية الوافدة لا يحسن بنا أن نغفل الحديث عن ذكر أهم بواباتها، وأولى مراحل النقل والتعريف بها ألا وهي بوابة التعريب والترجمة.

والترجمة ـ كما يرى بيتر نيومارك (Peter Newmark) أحد أبرز أعلام الغرب في حقل الترجمة في هذا العصر ـ هي (نقل معنى نص إلى لغة أخرى بالطريقة التي أرادها المؤلف لهذا النص، باعتماد عشرة اتجاهات مختلفة لجذب النص ذاته. فإن الترجمة لا سيد لها كما يقال، وكل مترجم ـ مهما كانت قدرته ومهارته ـ فهو قطعاً في مشكلة ما؛ ذلك أن الفكرة في النص الأجنبي ـ قبل التعريب ـ أحياناً ما تكون غامضة في ذهن كاتبها نفسه، ثم تكون أشد غموضاً في عبارة المعرب بعد ذلك)[1]. وهو كلام مهم صادر من مشكاة الغرب ذاته. وأحياناً أخرى تكون الفكرة واضحة لدى كاتبها، ثم يسيء المعرب فهمها ومن ثم التعبير عنها. ولربما كانت الطريقة الثالثة متمثلة في وضوح الفكرة لدى الكاتب والمعرب على حد سواء ثم يأتي الخلل والغموض من عملية التعريب ذاتها. وفي كل واحدة من هذه الطرائق يمكن اعتبار عملية التعريب نوعاً من أنواع التدليس والغموض الذي لا يملك تفسيراً مقنعاً لكثير من التساؤلات التي ترد من قبل القارىء الحصيف.

والمترجم أو المعرب أولاً وأخيراً ما هو إلا كاتب، يتمثل

---

(١) الجامع في الترجمة، تأليف البروفسور بيتر نيومارك، ترجمة وإعداد حسن غزالة، ص ٢.

عمله باختصار في صياغة الأفكار والمعاني في قوالب الكلمات الموجهة إلى القارىء. وإن كان الفارق الوحيد بينه وبين الكاتب الأصيل هو أن الأفكار التي يصوغها ليست أفكاره، بل أفكار سواه.

وبهذا يتبين لنا موطن الخلل في كثير من الكتب المعربة بنوع تصرّف من قبل المعرّب ذاته، فالمترجم أو المعرّب يجب أن يكون أميناً؛ لأنه مقيد بنص، وهو بذلك محروم من الحرية الإبداعية أو الحرية الفكرية في ذلك النص الذي يتمتع صاحبه الأصيل فقط بهذا الحق. وليست مهمة المترجم أن يأتي بأفكار جديدة، أو تفريعات من عنده، أو عناوين جديدة، أو شواهد ونصوص باجتهاد منه أثناء الترجمة أو التعريب مهما كانت علاقتها بالنص الأصلي ومهما كانت نيته حسنة. وإنما مهمته باختصار (تجسيد أفكار مسبقة في كلمات واضحة بلغة أخرى)، وكل ترجمة سوى هذه لا يحسن أن يعتمد عليها عند الدراسة الموضوعية الواعية لتلك النصوص المعربة بغية تحليل معانيها، ومعرفة أفكارها الأصلية، ومن ثم الحكم عليها.

وبغير البناء العقيدي، والاعتزاز بأصالة المنهج الإسلامي الذي يضمن سلامة الاختيار لمادة التعريب، ثم سلامة النقل لها يقع كثير من معربي الأطروحات الوافدة في ما وقع فيه أسلافهم من معربي كتب الفلسفة وعلم الكلام قديماً الذين لم يكن همهم سوى الكسب المادي، والثراء من خلال هذه (الحرفة) الفكرية التي لم يكن يتقنها إلا القلة النادرة في ذلك الوقت. ولو لم يكن من مساوىء فوضى الترجمة في عهد المأمون ـ ومن جاء بعده ـ سوى ظهور تلك التيارات الفلسفية والمناهج الكلامية التي تدخّلت

في كل شيء.. حتى في خصوصيات العقيدة الصافية النقية لتشوه كثيراً من معالمها، ولتقوّض العديد من معالمها.. لكان ذلك كافياً في التحذير من عواقب الترجمات الحديثة التي يقوم عليها ـ غالباً ـ عدد من متطلبي الثراء والشهرة كذلك، مع ضعف القدرة على التفريق بين الحق الأصيل، والفكر الدخيل. وكثيراً ما تسيّر اتجاهات التعريب وتخصصاته وفق الذوق العام لدى الجمهور، لا وفق الفائدة والنفع في كثير من الأحيان. والتعريب لا يمدح ولا يذم لذاته، لكنه يصبح مذموماً إذا كان ذريعة للغزو الثقافي الدخيل على الأمة عبر نقل تراث الأمم الأخرى الذي يصادم مبادئها ويشوّه عقيدتها، ويساهم في توسيع رقعة العولمة بين المسلمين وتسويق النهج الأميركي والغربي في مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية وغيرها. كما يصبح مذموماً إذا كان مانعاً للأمة أن تبتكر وتبدع، وتعود لكنوزها العلمية، وذخائرها الشرعية في مناحي العلوم المختلفة.

❖ خبرات بشرية.. لا نصوص شرعية

ونحن نقرأ في هذه الكتب المعربة لأولئك الرجال الذين يسطرون خبراتهم وتجاربهم في عالم القيادة والتربية وفنون الإدارة ندرك حقا أهمية التجربة، وأثر المحاولة في إثراء الملكات وتعزيز المواهب برصيد من المكاسب في نطاق تلك العلوم الإنسانية. لكنها تبقى في ختام الأمر أطروحات قابلة للنقد.. واقعة تحت أضواء التنقيح والتحرير.. ويسري عليها كل ما يسري على نظريات الغرب الوافدة الموسومة بسمته. وهي بذلك لا تُقبل جملة ولا تُطّرح جملة. كما أنها لا تقتني بكونها حقائق ثابتة

معتمدة - مهما كانت ناجحة - وإنما لكونها تجارب فئة لأفراد حققوا شيئاً من النجاح في مهماتهم الدنيوية التي تتناسب وظروف عملهم ومعتقداتهم وتخصصاتهم.

إنها إذن ليست نصوصاً قاطعة من صلب التنزيل، ولا حقائق ثابتة لا يجري عليها التعديل. ومن حق كل قارىء حصيف أن يتبين مكامن الخلل وفق ما آتاه الله من الفقه ودقة النظر، وإن لم يكن متخصصاً في الفن ذاته.

ولا تعدو تلك التبريرات والاعتذارات التي يسوقها البعض بين يدي تلك الشواهد أو الأمثلة، أو الألفاظ أو السلوكيات غير السليمة التي غالباً ما ترد في هذه الأطروحات - تأثراً بالمكانة الاجتماعية التي حققتها تلك الكتب - سوى جهل مركب يفتقر إلى أساسيات الموضوعية، وأوليات القراءة والنظر.

وإلا فما وجه الترابط بين تخصص دقيق في طيات هذه الكتب المعربة، يجب أن يكون له معيار أدق في النظر والنقد، وبين شواهد عابرة سانحة تخدش الحياء أو تغري في الوقوع بمظاهر الجنوح والتفلت من القيود الأخلاقية.

وبعيداً عن العاطفة.. فإن التربية الغربية - ولا شك - تربية قاصرة، أحادية القطب؛ لأنها تربية بشرية محضة.. مادية لم تقم على أساس المعايير الإيمانية الصحيحة، أو الأخلاق الفاضلة الحميدة، وإنما قامت - كما قام غيرها من فروع العلم والمعرفة - إبان الثورة الصناعية الكبرى على سلطة الكنسية الجائرة، واستخدمت كأداة قاتلة للقضاء على ما تبقى من معتقداتها وثوابتها

التي استمدت منها شرعيتها طوال عصورهم المظلمة. وكم تبعث نظريات النشأة الأولى التي قام بها دارون وخرافات التحليل النفسي التي خرج بها فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩)، وهرطقات دوركايم Emile Durkhim (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) ـ وكلهم يهود ـ كم تبعث على السخرية والغرابة معاً لمن أدرك الدوافع التي قامت عليها، والبواعث التي حركتها.

إنها إذن ثورة على الدين.. أي دين، ولا فرق بين تخصص وآخر في التزام هذا المبدأ.. وإنما الفرق كامن في إظهار درجة الحقد والكراهية لضوابط الدين والأخلاق والفضائل. وحتى تلك الأطروحات الغربية التي أصبحت تميل شيئاً فشيئاً نحو (التدين) المزعوم، وتخاطب النزعة الفطرية لدى الناس في حب التدين والميل للتعبد تحمل في طياتها الكثير والكثير من التشويه وعدم الواقعية، وتفقد مصداقيتها سريعاً بعد أسطر قلائل من دعوى الإيمان والتدين المزعوم لصاحبها عبر شواهد وأمثلة وطرائف تهدم تلك النزعة وتكسر حواجز الأخلاق.

إنها ـ بلا شك ـ تربية تختلف في أهدافها وفي غاياتها كما تختلف في وسائلها عن تربيتنا الإسلامية الرائعة، التي تنطلق من أساس ـ الربانية ـ وتؤول إلى غاية الوحدانية.. ومدارها بين: «كونوا ربانيين»، و: «.. إلا ليعبدون».

إن الفرق عظيم، وعظيم جداً بين المنهج الرباني الكامل، وبين المنهج الإنساني القاصر الذي لا يؤمن بالله.. إنه كالفرق بين الظلمات والنور، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم

﴿مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾[1]. وكالفرق بين الضلال والهدى. قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾[2]. وكالفرق بي النصرة والخذلان. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ٥٢﴾[3]. وبالشعار النبوي الخالد حُسمت مادة البحث، وفصل النزاع بين المناهج والعقائد والملل قال ﷺ: «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض**»[4].

وبهذا الوضوح تتحدد المعالم الفارقة حين يقف الباحث - في غمرة البحث العلمي - على أرضية مشتركة تلتقي عندها عدد من الوسائل المشتركة بين كلا المنهجين المتغايرين.. فلا يحدث ذلك التضخيم المفتعل بدعوى التقريب أو التوفيق، ولا يحدث ذلك (المسخ المنهجي) في عرض الأهداف والمقاصد.

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الأعراف: ٢٩، ٣٠.

(٣) النساء: ٥١ - ٥٢.

(٤) حديث صحيح، رواه الحاكم عن أبي هريرة. انظر صحيح الجامع: ١/٦٦٦.

❖ أعلام.. لا قدوات

من إفرازات هذه الظاهرة أن كثيراً من الدعاة المهتمين بأطروحاتها ـ مقروءَة ومسموعة ـ بات يتتبع أطروحات خاصة لأفراد بأعيانهم، وأضحى يسلّم لهم كل ما يقولون بهالة من الإعجاب والإكبار.. حتى إن كتاباً ـ مهما كان تافهاً ـ مصدَّراً باسم أحد أعلام الغرب هؤلاء أو تقريظه بات كافياً للاقتناء.. حرياً بالقراءة!؟ وكثيراً ما أصبح البعض يسلّم لأفكار بحتة أو نظريات سانحة، أو يشكك في ثوابت راسخة من منهجه لمجرد أنها وردت في هذا الكتاب المستورد أو ذاك على لسان كاتب غربي أو شرقي.

وأصبح ختم الجودة في تحديد معايير الانتقاء، أو التعلّم والشراء مرتبطاً بأسماء أعلام بارزة أو بكتب مشهورة قد لا يفقه البعض حتى عنوانها الرئيس فضلاً عن مفردات عناصرها التخصصية البحتة في غالب الأحيان. ونزعة الاقتداء هذه لم تتولد بهذه الدرجة المخيفة إلا عندما ضعفت درجة اليقين بكفاية الكتاب والسنة، وأصبح آحاد هؤلاء المثقفين يتخذون مساراً مغايراً لهما عند أي طارىء يعترضهم في مشاكلهم الدعوية واهتماماتهم التربوية. فبدلاً من الصبر على الاستنباط من معين السنة الصحيحة.. بتحديد معالم المشكلة الحادثة.. ثم استقراء النصوص المتظافرة لما كان شبيه الصلة بها في حياة النبي ﷺ وما ورد عن صحابته الكرام.. ثم الخروج بحل نبوي صحيح فيها. وإلا توجه إلى إمعان النظر في كتب أهل العلم الأقدمين ممن اتضحت معالم المنهج الإيماني في حياتهم العملية وفي أطروحاتهم الرائعة العلمية أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية والأئمة الأربعة المرضيين وأهل العلم بالسنة..

المشهورين بصلاح المنهج وصفاء المشرب من أهل الحديث والأثر والفقه ونحوهم. وإلا توجه بالنظر في كتب أهل العلم المعاصرين وسؤالهم والنظر في مؤلفاتهم. بدلاً من ذلك كله أصبح الحل العاجل هو تقريب هذه الأطروحات من متناول اليد، بل في أقرب زاوية من طاولة البحث ـ كما يقول البعض ـ واستخراج الحلول العملية منها بحسب التصنيف العلمي لها.

وبالتجربة الذاتية فإن تكلف البحث الأصيل يتطلب من الوقت والجهد، والتنقيب والبحث عشرات ما يتطلبه هذا البحث السريع الدخيل. لكنها والله آنس ما تكون، وأرضىٰ ما تكون وأصلح ما تكون.. عندما تتنقل بين كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ مستشعراً هذه الكفاية بهما دون سواهما.. مقتنعاً بحلولهما.. محكماً لهما.. رافعاً الحرج بعد قبول كل ما ورد فيهما.. ومسلماً لهما تسليماً. ثم أي قناعة في التطبيق والأداء بعد ذلك سيورثك الله إياه؟! إنه اليقين الذي لا يقف أمامه إلا من جاء بمثل ما جئت به أو زاد.. أما تلك القناعات الآنية الزائفة التي خرج بها كل من نظر إلى الحلول الإدارية أو القيادية في كل شيء سوى في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فسريعاً ما تذوي كأوراق الخريف الذابلة الصفراء أمام أقربَ حجة واضحة بنص رباني طاهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وشتان في إيجاد الحلول الإدارية والقيادية والتربوية بين رأي وفكر، وبين نور وهّاج كريم. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾[1].

---

(١) الرعد: ١٩.

ولا يحتاج الباحث لإيجاد مزيد من الأمثلة على هذه الحقيقة.. غير أني سأكتفي بطرح مثال واحد منها ـ حفاظاً على خصوصية الدراسة ـ.

❖ جون ديوي.. شاهداً John Dewy (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢)

في كتاب مطبوع وسم بأنه: (دراسة (ناقدة) لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام). تطرقت الكاتبة إلى مباحث مهمة ومفيدة في التربية الإسلامية.. مفهومها.. وسائلها.. نماذج من تطبيقاتها العملية.. أبدعت فيه الباحثة ـ جزاها الله خيراً ـ وأفادت. غير أن ما لفت نظري حقاً في أسلوب التأكيد على تميّز المنهج الإسلامي في هذا المجال، هو ما لفت نظري كذلك في منهج عدد ليس بالقليل من الدعاة الذين سريعاً ما ينهزمون عند حلبة البحث الأصيلة ويتوارون سريعاً تحت ظلال أقوال غربية مشوهة، تذهب برونق القضية الأصلية الجوهرية، وتحيلها بدلاً من نصر لمنهج الإسلام النقي من الشوائب إلى مكسب عظيم لتلك الأقوال والنظريات الوافدة التي تستمد بعد ذلك شرعيتها وتكتسب مكانتها وشهرتها من خلال تلك المقارنة الجائرة. وأي عقل يجرؤ على التشكيك بما جاء من عند الله تعالى ورسوله ﷺ حتى يشهد له (لوثر) أو (بينيه) أو (نيتشه) وأمثالهم؟! لكنها مقارع العولمة المادية التي أصبحت تتدخل حتى في أعز ما نملك، وتساوم حتى في أثمن ما نقتني.

ورد في الفصل الرابع من هذا الكتاب ما يوضح مفهوم العمل في الإسلام. وضمن عدة مباحث ظلت الباحثة تؤكد سمو النظرة الإسلامية لطبيعة العمل وأهميته، لكنها قبل ذكر النتائج

التي توصلت إليها أفردت مبحثاً يتناول آراء بعض المفكرين ورجال التربية في الغرب حول الموضوع[1]، وفيه ذكرت كلاماً لـ (جون ديوي) و (كلباتريك) لتدلل على أنهما ـ بمكانتهما السامية ـ يشهدان كذلك بصحة هذه النظرة الإسلامية لمفهوم العمل. ومما نقلته من كلام (ديوي) قوله: «إن الأخلاق التي تقوم على دراسة الطبيعة الإنسانية بدلاً من أن تقوم على إغفالها، تجد الحقائق الخاصة بالإنسان (مستمرة) مع الحقائق الخاصة ببقية الطبيعة، وتربط بذلك بين (الأخلاق) و (الطبيعة) و (علم الأحياء)، وستجد أن طبيعة الفرد ونشاطه يشتركان في حدودهما مع طبيعة الآخرين ونشاطهم... الخ). ثم تقوم الباحثة في الختام بنقض كل ما قررته في المبحث التأصيلي السابق لتقول عن كلام ديوي: (.. وهذا ما دعا إليه الإسلام بالفعل..)»[2]. ولست أدري هنا هل تدرك بالفعل كلام جون ديوي الذي ينطلق من نظرته الفلسفية للتربية أم لا؟

إن هذا النهج المرفوض في عرض حقائق الإسلام أصبح مُستنداً سهلاً يعتمد عليه كثير من الباحثين لمجرد الارتقاء بلغة البحث العلمية أو التربوية عن طريق ذكر هذه الأسماء الغربية

---

(١) استطاع الغرب بالفعل أن يفرض فكره ونظرياته وقناعاته.. وإلا فما وجه الصلة بين موضوع أصيل في الإسلام بذكر الغرب؟! وأي نفع في ذلك؟ مع أن قوميات محافظة ـ حتى الآن ـ في اليابان والصين مثلاً ترفض بتاتاً مثل هذا الربط الشائن مع قناعاتها وموروثاتها وثوابتها. لكنها بلا شك الموازنة الصعبة بين القناعة والكفاية من جهة، والهزيمة والتبعية من جهة أخرى.

(٢) ص ١٣١، ط ١٤٠٣، دار تهامة تحت عنوان: رسائل جامعية.

بدون مبرر، مهما غابت حقائق المعاني التي تتضمنها الدراسة عن نظرتهم الأولية المتعجلة. وحقائق المعاني التي صيغت في قوالب هذه المصطلحات التربوية أو العلمية التي أوردها (ديوي) لا يمكن فهمها ما لم نفهم منهجه التربوي والفكري أولاً. وحتى لو سلّمنا بصحة هذه المفاهيم الغربية التي تحدث عنها ديوي بلسان أعجمي غير مبين، فبأي حق يمكن أن تصبح قاضية على كلام الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وحاكمة عليهما؟!

والنوايا الحسنة في هذا المجال لا تصلح مبرراً بحال لانتهاج هذا المنهج الغربي في الحكم بصلاحية أي أمر من الدين.

إن لجون ديوي وأفكاره الفلسفية، وكذا لنظريات (جورج بركلي)، ولسيكولوجيا (ادغار روبن)، ولنظريات (أفلاطون) أن تشكل حجمها المعقول في الفكر التربوي الغربي الذي ينطلق حتى الآن من نفرته عن الدين الصحيح - دين الإسلام - الذي بدأ بحمد الله في الظهور، كما ينطلق من ماديته الجافة في العلوم والحضارة؛ لأنها إنما صيغت بلسانه لتخاطب مبادئه ومناهجه وفكره.. لكنها حتماً لا تشكل الحجم ذاته، ولا تؤثر التأثير ذاته في مناهج تربيتنا الإسلامية الكاملة، فنحن أهل الدين الصحيح، وأصحاب مناهج ومعايير تباين تماماً دين الغرب ومناهجه ومعاييره، وحتى لغته. وإذا كان (لكل لغة عبقريتها) كما يقال، فلماذا لا يكون لهذا الدين خصوصيته المطلقة في أن يُطرح في هذا العصر بكل وضوح، وبدون أي مستند غربي أو شرقي، وأن يعتز به حملته ودعاته في كل شؤون الحياة؟!

إن مما لا يخفى على أحد من المعجبين بآراء الفيلسوف

الأميركي (جون ديوي) نظرته الذاتية للتربية والتي يخالفه عليها مفكرون آخرون في الغرب. وعلى هذا فيجب أن نتعامل مع تعبيراته ومصطلحاته بدقة وحذر متناهيين. إن نظرة ديوي للتربية نظرة فلسفية بحتة، حتى إنه ليعرّف الفلسفة ذاتها بأنها: (النظرية العامة للتربية)؟ وخرج بناء على ذلك بمصطلح (فلسفة التربية) والتي يعتقد فيها بأن التربية (التقليدية) التي درج عليها الناس، والتي تعتمد على الحفظ والتلقين يجب محاربتها بشدة.. ويرى ـ بدلاً من ذلك ـ ضرورة قيام تربية حديثة تتميز بفلسفة جديدة[1]. بل إنه يؤكد كثيراً على أن التربية التي يدعو إليها ما هي إلا حصيلة علمين مهمين هما: علم النفس، وعلم الاجتماع.. مستمداً هذه العلاقة من التطبيق العملي لنظرية التطور التي تؤمن بـ (تطور) (مستمر) لمُثل الإنسان ومعتقداته وفقاً لتطوره البيولوجي. وبهذا يلغي وجود (ثوابت) في القيم والعقائد والأخلاق. وعليه فإن الإنسان من وجهة نظر ديوي: (.. إلى جانب استمراره الحيوي ـ كغيره من الكائنات الحية ـ يستمر كذلك استمراراً اجتماعياً يتميّز بـ (تجديد) معتقداته، ومُثله العليا، وآماله وآلامه وسعادته وشقاوته...) إلى آخر كلامه.

والقضية هنا ـ كما أعيد التأكيد والتنبيه ـ تتعدى مجرد الحكم على صلاحية كتاب بعينه أو أطروحات شخص بذاته.. وإنما هي بيان لهذا المنهج التربوي الجديد الذي بدأ يغزو مناهجنا العلمية والبحثية، ويسيطر على عقول النخبة من الدعاة والمفكرين والباحثين.

---

(١) انظر على سبيل المثال كتابه: عقيدتي التربوية.

تربية العظماء.. لا تربية قادة

تكرس المدرسة المادية المعاصرة جهودها التدميرية في تربيتنا الإسلامية بإشغال النشء بمهارات ومواهب يتساوى فيها البشر جميعاً، وتمثل حلبة الصراع بينهم، ومثار تنافسهم وتفاخرهم، مع إغفال معايير أولية في التكريم تعد من صميم المنهج التربوي الإسلامي الأصيل. ومن العجيب حقاً أن يمثل الصالحون نسبة ٩٠٪ من إجمالي عدد المشاركين في دورات قيادية مكثفة محتواها المنهجي مجرد كلام غربي يتم تحويره ليناسب طبيعة المشاركين. وليس غريباً ـ بعد تأثير هذه المدرسة المادية في التربية ـ أن يمثل قطاع المستهلكين لكتب الإدارة والقيادة الغربية عدد كبير من الدعاة والعاملين في حقل التربية الإسلامية. وهنا مكمن الداء.

إن نسبة كبيرة من حجم النظرة التربوية الغربية للقادة تكمن في أن (القيادة) و(النبوغ) مهارات وقدرات (مادية) يكتسبها الفرد بالتجربة والتأهيل والممارسة. ومع زيادة الفاعلية والإنتاج يرتقي القائد في سلم المهارات والكفاءات (المادية).

فالقائد ـ بهذا المفهوم ـ (يُصنع) صناعة متقنة بجهد مادي ملموس، وفق خطوات مدروسة مقننة، وأهداف استراتيجية متبعة، بغض النظر عن مؤثرات الصلاح والديانة والأخلاق. ومن ثم فإن

معايير التقييم لنجاح هذا القائد أو فشله ترتبط ـ في الدرجة الأولى ـ بهذا النهج المادي ذاته، أي بمدى قدرته على تحقيق تلك المهارات والنظم القيادية في نطاق عمله(١)، بعيداً عن تدخّل المعايير الإيمانية أو السلوكية أو الروحية.

إن القائد الناجح إذن ـ من هذا المنظور الأحادي ـ هو ذلك الشخص القادر على تحقيق النجاح والفاعلية في إدارة الأعمال والأفراد. وإنجاز العديد من المشاريع الناجحة والخطط السليمة، وصياغة أهدافها الواضحة وفق طموحات المؤسسة، بغض النظر عن استقامته وصلاحه وتقواه.. فهو ناجح وإن وجدها فرصة في آخر الأسبوع لممارسة ما شاء من اللهو والعبث ومعاقرة المحرمات بكل صورها المتاحة؟! وهنا فقط تظهر الحلقة المحورية الفارقة بين منهج التربية المادية في صنع القادة، ومنهج التربية الإسلامية في إعداد العظماء. إن هذه العظمة تتسم بالشمولية والتكامل فالتربية الإسلامية لا تعنى ـ في الدرجة الأولى ـ بصنع قوالب جامدة تخرّج منها القادة والمهندسين والحرفيين لتزج بهم في المجتمع بحجة الارتقاء به وتشييد حضارته المادية الزائفة... إنما تعنى ـ أولاً وقبل كل شيء ـ بتعبيد هذا المخلوق الضعيف لخالقه، وبالإعداد الروحي الأولي، وبالتربية الإيمانية اللازمة له حتى تستقر في قلبه فتصلحه، ثم تصلح سائر شؤون الحياة التي يقوم عليها فيما بعد ويوظف فيها إبداعاته المادية المختلفة وفق تلك العبودية

(١) ظهرت في الغرب ذاته نظريات أخرى تخالف هذه النظرة المادية التي يعتقد بها الكثير من المثقفين في عالمنا الإسلامي. انظر على سبيل المثال: (الإدارة بالفطرة) تأليف ديان تريسي وغيرها من المؤلفات التي تكرّس قضية الإحساس الفطري والموقف الإنساني في الإدارة.

التي يستظل بها ويعتقدها. وهذه هي التربية التي تخرّج (العظماء) الذين تتكامل شخصياتهم منذ البداية، وتتحدد هوياتهم وأهدافهم وإن كانوا في مواقع عملهم المتغايرة.

وليس من منهج التربية الأصيلة أن يعنى بتخريج الموهوبين أو المبدعين فقط أو الذين يصلون إلى درجة الكمال والريادة؛ فالمنهج النبوي بعظمته لم يهدف إلى جعل الناس كلهم كأبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عن الصحابة أجمعين.. لكنه استطاع توظيف الجميع كل بحسب طاقته ومواهبه وقدراته. وكلهم كانوا عظماء.. وسر العظمة فيهم أنهم كانوا ينطلقون ـ في كل أعمالهم ـ من مزيج رائع يجمع بين التقوى والمراقبة مع تعظيم المسؤولية والمحاسبة والكفاءة والأمانة. وحتى من أخطأ منهم يصبح عظيماً بتوبته وانكسار قلبه وصلاح أمره بعد ذلك. وما أروعها من عظمة أن يتوازن طرفا الإبداع فيها حال الزيادة والنقص سواء بسواء على أساس التقوى وخوف الآخرة. وحتى من بلغ أعلى درجات الإبداع والإتقان كان يحيل السبب إلى ذلك الباعث الأصيل من بواعث العظمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. قيل للإمام أحمد رحمه الله ـ بعد زوال الفتنة ـ: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فدمعت عيناه وقال: «بل جزى الله الإسلام عني خيراً.. من أنا، وما أنا!!». وكان ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يقول:

أنا المكدّي وابن المكدّي وهكذا كان أبي وجدي

وسيرتهم في هذا الباب أعظم من أن تروى وأجل من أن تذكر. ولولا خشية الإطالة لكان لنا مع هذا الباب حديث وأي حديث.

ونحن هنا لا نعنى كثيراً بالحديث عن النظريات العامة، أو

التأملات الفلسفية السانحة التي قد توجد في بعض مناهج الغرب ونظرياته.. وإنما حديثنا عن المناهج الواقعية التي تربَّىٰ عليها المسلمون جيلاً بعد جيل. وشتان بين من يتربى على المعرفة النظرية الغائبة، ومن مارس التربية واقعاً، وعاش معها حقائق ومثل وسلوك. والنتائج بلا شك أشد تبايناً وأكثر انفصاماً. وعليه فإن أعلام الغرب المادي في مجال التربية وسائر العلوم الإنسانية والمادية وإن وصلوا الذروة تنظيراً وريادة، إلا أنهم عاجزون تماماً عن إدراك الغاية من الوجود، وحتى عن معرفة الهدف الذي خلقوا من أجله، والذي يسيّر حياتهم برمتها. ثم هم أشد عجزاً عن صياغة نظرياتهم ومناهجهم تلك وفق مقتضى الحكمة من الخلق والإيجاد وتبعاً لمسؤولياتها وأخلاقياتها وتصوراتها. أيستوي ذلك مع ما يصدر عنه الفرد العادي في التربية الإسلامية الأصيلة الذي ينشأ بانسجام رائع يتميز في تعامله مع خالقه ثم مع ذاته ومع الآخرين والذي يظهر أثره جلياً في صياغة حياته العملية وفي مبادئه وقيمه السامية التي ينادى بها؟! إن ذلك هو أهم مقومات السعادة التي يجدها المسلم في كل صغيرة وكبيرة من أعماله وأقواله.. وذلك هو معيار النجاح والعظمة حقاً.

إن (القيادة) و(الإبداع) و(العظمة) ألفاظ عامة مجملة تكتسب دلالاتها الواضحة وضوابطها بالتقييد والإضافة. فمن كان (مبدعاً) أو (قائداً) في الغرب أو الشرق.. في هذا الفن أو ذاك قد لا يكون كذلك خارج إطار فنه الذي برع فيه، ولهذا تأتي أهمية دراسة السيرة الذاتية للمبدع الغربي ـ أياً كان ـ خارج محيط الإبداع الذي نبغ فيه. وعندها فقط ندرك كم هو ضعيف ومغمور.. فقط حين نتناول سيرته الذاتية التي تظهر بشريته المركبة من الدوافع والغرائز والمشاعر

التي لا تستقيم إلا بالإيمان الصحيح بالله وحده. وحتى لو أصبح قائداً ناجحاً ومبدعاً.. ثم ماذا؟! أي نتيجة سوف نخرج بها من هذا الصنف من المبدعين الناجحين إذا لم تكن لهم بصمات حقيقية في عمارة الأرض وفق معتقداتهم وأخلاقياتهم النبيلة؟!

وشتان بين عالم وعالم، ومرب ومرب وإن اتحدت المصطلحات وترادفت الألفاظ؛ لأن اتحاد هذه الألفاظ وحدها لا يعد دليلاً على اتحاد المعاني والأغراض بحال من الأحوال.

ومكمن الداء في التربية المادية ينبعث من داخلها، ومن أصل نشأتها فهي لا تزال قاصرة عن إيجاد التكامل المطلوب بين بواعث الفطرة في النفس تجاه العبودية والتذلل لله وحده وبين مناهجها المتمردة التي تضرّي على الانفلات والتحرر والعقوق. وتظل التربية الإسلامية وحدها هي القادرة على توظيف طاقات الإبداع وصقلها بعناية في معين العبودية الحقة، لتخرج فيما بعد سبائك ثمينة غالية، وعناصر زكية طاهرة في كل فن واختصاص.

ولنأخذ صورة أخرى من صور التناقض والاضطراب التي تتولد من جراء المنهج البشري القاصر الذي يحيد عن نور الإيمان وتجسده أزمة الصراع بين المثل العليا الغائبة، والواقع المليء بحياة القلق والضنك وهو ـ كما سبق أن ذكرت ـ لا يخرج عن هدف هذه الدراسة وإن بدا في ظاهر الأمر بعيداً منقطع الصلة بكتب الإدارة أو القيادة المعربة الغربية.

❖ بين حضارة الأخلاق والقيم، وحضارة المادة والفولاذ!

إن مبرر التوسع في هذه القضية المهمة هو التأكيد على أثر

القراءة الإيجابية الذي يخرج به الفرد المسلم في ختام السياحة الثقافية في طيات هذا النوع من الكتب. . ومن أعظم ثمار هذه القراءة الواعية أن يتلمس أثر نعمة الإيمان في حياته، والاتزان في شخصيته وتفكيره واهتماماته. فلا تناقض أبداً بين احتياجاته الجسدية، والروحية، والعقلية. ولا تصادم بين مطالب فطرته الذاتية، وتعاليم دينه وشرائع ملته التي أنزلت من لدن حكيم خبير. . يعلم ما يصلح البشر، وما يحقق سعادتهم.

ومن ثمارها ـ في المقابل ـ إدراك حقيقة الشقاء الذي يكتنف حياة الغرب، على الرغم من بهرج الحضارة الزائف، واستشعار آثار البعد عن منهج الله تعالى في كل شؤون الحياة. فإذا كنا على يقين بفساد النظام الاجتماعي في الغرب الآبق عن الله، وبفساد الحياة الأسرية، وانتشار القلق وحياة الضياع في الأفراد، فإنا لن نعدم ـ بعد استقرار هذه الحقيقة في الوجدان ـ أن نجد من يفصّل أكثر في معالم هذا الانحراف، ويذكر مشاهد حية، وأمثلة تفصيلية لذلك الواقع المظلم كما فعل (مختار المسلاتي) في كتابه (أميركا كما رأيتها) على سبيل المثال الذي يعد خلاصة بحثية مهمة لتجربة ذاتية استمرت أكثر من عشر سنوات كان ينظر فيها بنظر الناقد البصير في حياة ذلك المجتمع الضائع؛ ليقرر ـ من جملة الحقائق التي خرج بها ـ أن أميركا سوف تسقط لا محالة من الداخل قبل سقوطها من الخارج، وأن انهيارها في جانب الأخلاق والفضائل أدى إلى مظاهر خطيرة من الانحراف الذي لم تشهده أمة من الأمم في التاريخ. . انحرافاً دينياً واجتماعياً، في حياة الأفراد والمجتمع على السواء. حتى بات الانتحار بين طبقة الشباب يصل إلى نسبة ٤١٪ خلال العشر

سنوات الماضية.. إضافة إلى مظاهر الانحراف والشذوذ الأخلاقي (المقنن) بين الرجال والنساء.

بل لا يحتاج العاقل إلى هذه السنوات العشر العجاف من الحياة في هذا الوسط الآسن ليخرج بهذه الحقيقة؛ لأنها تتولد تلقائياً لدى العقلاء من طبيعة النظرة التي ينظرون بها لعوامل بقاء الأمم وزوالها. وفي المقابل تمثل أمريكا وبريطانيا وفرنسا ودول الغرب عموماً عند المتأثرين المنهزمين ـ من أرباب الشهوات أو أصحاب النظر القاصر لمعايير الحضارة الحقيقية ـ رمز التقدّم العلمي والمادي والتكنولوجي. ولذا فهي المثال الذي يحتذى كذلك في باب التقدّم المادي والحضاري والاجتماعي والإنساني والأخلاقي... إلخ. وأي سبيل آخر للحضارة في نظرهم؛ عدا هذا النهج الغربي فهو سبيل طويل وبعيد وغير مضمون العاقبة!!.

والعجيب أنك تجد هذا الشعور الخفي قد بدأ يدب حتى في عوام الناس الذين لا يفقهون من الأمر شيئاً، حتى إن ظاهرة استبدال اللوحات الدعائية على واجهة المحلات التجارية مثلاً في بلد مسلم بأخرى غربية، تحمل كلمات لاتينية أو سمات افرنجية بات كافياً لاجتذاب الناس ـ كما يقول أحدهم ـ؛ لأنهم يربطون درجة الجودة مباشرة بهذه العلامات الغربية، وإن كانت في حقيقتها ألفاظ وكلمات عربية بحتة تم إعادة كتابتها بحروف أعجمية!!

والغرب كذلك عند المهزومين سياسياً وعسكرياً ونفسياً هي القوة الضاربة، وصاحبة السطوة التي لا يصح الخروج عنها.. وهي كذلك عند كل من ربط الحضارة بطابعها المادي الثقيل.

تلك هي معايير الحضارة في نظرة الماديين، المفتونين

المخدوعين.. لكنها في نظر المؤمنين شيء آخر، وقيمتها في ميزانهم قيمة أخرى؛ لأن معيارهم في التقييم أمر مختلف كذلك.. إنهم يقيسون الحضارات بمستوى الإيمان الحق بالله تعالى، وبرصيد المجتمعات في التمسك بالقيم والأخلاق، وتحقيق الاستخلاف في الأرض، وبما توليه من اهتمام بالروح والنفس، والمشاعر والأحاسيس.. وما تضيفه إلى رصيد الفضائل والكمالات البشرية.

وشتان بين حضارة الإسمنت المسلّح والفولاذ والإلكترون وبين حضارة الأخلاق والقيم والإيمان. وما الجاهليات الأولى في هذا الباب إلا نماذج متكررة لتلك الحضارات المزعومة التي تصيح في أذن الزمان بين الحين والآخر: «من أشد منا قوة»؟! وإن تباينت لغة التعبير وأساليبه. وما أحسن ما عبر عنه سيد قطب رحمه الله حين قال في مذكراته عن أميركا: «.. لقد قضيت عاماً في تلك «الورشة» الضخمة التي يسمونها «العالم الجديد» وتنقلت من نيويورك إلى واشنطن، إلى دنفر،...». وقوله: «وإنه ليبدو أن العبقرية الأميركية ـ وكذا الغربية[1] ـ كلها قد تجمعت وتبلورت في حقل العمل والإنتاج، بحيث لم تبق فيها بقية تنتج شيئاً في حقل القيم الإنسانية الأخرى. ولقد بلغت في ذلك الحقل ما لم تبلغه أمة، وجاءت فيه بالمعجزات، التي أحالت الحياة الواقعية إلى مستوى

---

(١) تتعالى الأصوات الداعية لقيام حضارة مادية عربية على غرار الغرب، وأغرقت مجتمعاتنا المحافظة بنفايات الغرب الأخلاقي وقاذوراته ـ في باب الشهوات ـ لكسر حاجز الفوارق سواء بين الرجل والمرأة أو بين الفضائل والرذائل أو الإلحاد والإيمان. تمهيداً لقيام هذه الحضارة الممسوخة التي لا تعير أي اهتمام للدين والأخلاق والقيم، وإنما اهتمامها بالإنشاء والتعمير والتصنيع والإنتاج المادي فحسب!!.

فوق التصوّر، ووراء التصديق لمن لم يشهدها عياناً. ولكن الإنسان لم يحفظ توازنه أمام الآلة، حتى ليكاد هو ذاته يستحيل آلة..». وما يقال هنا للمفتونين بالحضارة الأميركية المادية يقال للمفتونين بالحضارة اليابانية ـ وما أكثرهم ـ، أو البريطانية والألمانية. وهو الذي يقال لكل من يخلط بين الحضارة المادية الزائفة، والحضارة الأخلاقية السامية. ومنتهى الكمال في الحضارات اجتماع معالم الكمالات الإنسانية معاً كما حدث في حضارة الإسلام.

غير أن العالم أصبح يحذو حذو صاحبة العصا الغليظة ـ أميركا[1] ـ وينتهج مناهجها، ويتقلّد مشاريعها وخطواتها في التحضّر.. وهذه هي الكارثة. ولقد تبصّر عمق هذه الكارثة (سيّد) رحمه الله قبل عقود من ظهور مخططات العولمة الزاحفة إلى جميع بقاع العالم حين قال: «.. تصلح أمريكا أن تكون «ورشة العالم» فتؤدي وظيفتها على خير ما يكون.. أما أن يكون العالم كله كأمريكا فتلك هي كارثة الإنسانية بكل تأكيد»[2]. إن هذا الكلام لا يخرج عن هدف الدراسة قيد شعرة؛ لأن ذلك الشاب الذي يفاخر بشراء منتج أمريكي أو كتاب غربي معرب أكثر من مفاخرته بشراء أي شيء آخر هو شاب هزيل، لا يعتمد عليه عند مهمات الأمور، ولم ترسم فيه التربية ملامحها الواضحة بعد.

والتربية ما هي في حقيقتها إلا اللسان المعبّر عن حضارة

---

(١) قال روزفلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية: (إن قدرنا هو أمركة العالم. تكلموا بهدوء واحملوا عصا غليظة.. وعندئذ يمكن أن تتوغلوا بعيداً)!!.

(٢) انظر كتاب (أمريكا من الداخل.. بمنظار سيد قطب)، د. صلاح الخالدي، الدار الشامية، بيروت.

المجتمع، فإذا لم يتمكن القارىء المسلم من إدراك فساد المجتمع ذاته، ولم يتبصّر مكامن الخلل فيه، لم يدرك بالفعل حقيقة منهجه الكامل الذي يدعو إليه مهما تسنّم من العلم والثقافة والمكانة. وحتى ندرك فساد التربية الغربية وعدم صلاحيتها يتطلب علينا أن نوقن بفساد حضارتها أولاً. والحضارة المادية اليوم تملك عوامل فسادها التي لا تخفى على كل بصير. فهي لم تستطع حتى الآن إنقاذ الإنسان من سورة الظلم والاضطهاد والقلق والانتحار والضياع. بل إنها لم تكتف بإفساد الإنسان وإتلاف روحه وعقله وجسده حتى انتقل فسادها إلى البر والبحر والجو، ولم تكتف بإصابة الإنسان بالجنون، وإنما انتقل جنونها إلى البقر، وعمت الحمى بسببها حتى الماشية(!!).

وكثير من الأمراض الفتاكة والأورام الخبيثة ـ التي لم تكن مألوفة معروفة بين المسلمين بل بين جنس الإنسان قبل عقد أو أكثر من السنوات ـ باتت تضرب بكل قوتها في هذه الأيام بعد انتشار حمى المأكولات السريعة الغربية، وانتشار سموم المشروبات الغازية وتلوث الهواء والفكر والجسد في كل مكان من أرجاء العالم.

والحضارة المادية اليوم لم تكتف بإثارة الشهوات وتحريك الغرائز، بل جعلت من فروضها المحتمة، ومن واجباتها اللازمة إخراج المرأة إلى مسرح الشهوات الرخيص. وجعلت من أوليات أهدافها: إماتة الغيرة، والقضاء على العفة، وانحراف المجتمعات.. بألوان من الجرائم الأخلاقية، والمشكلات الاجتماعية والتعرّي. وتدرجت ثم تدرجت في وسائلها.. تارة بالصحف والمجلات، ثم باختراع الجهاز المسموع ثم (المشاهد ـ المسموع) معاً. وتفننت بعد ذلك في شتى ألوان الابتكارات تأثيراً

وفتكاً بالأعراض.. حتى اتخذت منهجاً جعلها أكثر تحرراً من سطوة الرقيب، ومن حجر المحافظ الغيور.. فجاءت الأطباق الفضائية ثم عمت ثورة الأنترنت.

ومحصلة الغايات المرسومة في بلدان العالم الإسلامي نشر الفتنة بالنساء، وإزالة كل ما تبقّى من العفة والغيرة.. حتى لا يبقى على وجه الأرض غيور محافظ.. وحتى ينحط مستوى تفكير الإنسان إلى مستوى تفكير البهائم وسائر الحيوان. وهاتان السمتان البارزتان: البهيمية الشهوانية، والإنشائية العمرانية هما عماد كل الحضارات الجاهلية الغابرة. وقد ورد الإكثار من ذكرهما في كتاب الله العزيز، وفي سنة رسوله الكريم ﷺ على أنهما السمتان البارزتان من سمات بني إسرائيل كذلك ـ وهو الغرب في مصطلحنا الحاضر ـ. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[1]. وهذا ما تسعى إليه حضارة الغرب اليوم: تصدير البهيمية المحصنة بلباس الحضارة الكاذبة، ومحاربة كل مظاهر التطهر والعفة وتصويرها بالتخلف والرجعية والتزمّت (!!). قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء**»[2] وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا وتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[3].

---

(١) الفرقان: ٤٣، ٤٤.

(٢) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، والترمذي في الفتن وابن ماجه في الفتن واحمد.

والغريب في الأمر أن هذه الحضارة تجهل أو تتجاهل ما كانت عليه المرأة في الغرب ذاته قبل الثورة الصناعية الأخيرة، التي كانت في حقيقتها ثورة على الدين والأخلاق والقيم. وتستوقف الباحث في هذا الموضوع كثير من المراجع والموسوعات الأجنبية التي تناولت الجذور التاريخية لحركة تحرير المرأة الغربية والزج بها في معترك الحياة القاسية الظالمة، وإيرادها صوراً فوتوغرافية معبرة هي بحد ذاتها أبلغ من كل عبارة. فقبل عقود قليلة من الزمن قبل الثورة الفرنسية كان لباس النساء في الغرب ذاته لباساً عفيفاً محتشماً كما جرت عليه في الأرياف وقتها ـ مقارنة بما آل إليه الحال اليوم ـ لم يكد يظهر منه إلا صفحة الوجه والكفين فحسب. وحتى الرأس كان مستوراً بغطاء فضفاض واسع، وكذا الأقدام لم يكن يظهر منها شيء البتة وكلما اقتربت المرأة من طبقة نبلاء الغرب في ذلك الوقت (Nobility) كانت أكثر تستراً على الرغم من الفساد المنتشر في مظاهر أخرى كذلك سوء اللباس.. تلك كانت البداية.. ويا له من تناقض وقع فيه أولئك الشهوانيون الذين يريدون أن يميل الناس عن فطرتهم ميلاً عظيماً. وجميع النقولات والصور التي ترد حول هذا الموضوع أوائل التسعينات سواء من داخل المصانع ـ التي انتشرت انتشاراً ظاهراً ـ، أو المدارس التي عرفت في ذلك العصر كانت تحمل بقية من آثار العفة والاحتشام الظاهر في اللباس على أية حال، ولا تكاد تجد اختلاطاً بين الذكور والإناث في جميع تلك الرسوم والصور من داخل تلك المصانع أو المدارس، ولا تكاد تجد تهتكاً أو سفوراً عالمياً يضرب بأطنابه في جميع أرجاء الأرض، كما هو عليه الآن.. لقد بدأ مسلسل

الانحراف الأخلاقي المقنن، وسياسة الإفساد الاجتماعي المدروس خطوة خطوة بعد ذلك..

ويكفي لإيضاح هذه الحقيقة أن نعلم أن التربويون في الغرب ذاته لم يبدأوا بطرح مسألة التربية المختلطة إلا في نهاية القرن التاسع عشر؛ لأنها في بداياتها الأولى ما قامت من الوجهة العملية ـ كما يقول (رونيه أوبير) إلا: (تحت تأثير عوامل متباينة جداً)، وأن معارضات عارمة قامت في الغرب ضد هذه الفكرة من قبل العديد من رجال الدين والمفكرين، ورجال التربية الذين أكدوا بالحقائق أن (التجارب الكاملة في هذا المجال كانت نادرة جداً). وقد فصّل (أوبير) فصلاً مطوّلاً في كتابه تناول فيه جملة من اعتراضاتهم، والتي منها قولهم: (لا نستطيع أن نطلق اسم التربية المختلطة على ما يحدث في معظم المعاهد المختلطة حيث يقبل الفتيان والفتيات معاً في صفوف واحدة، ولكن شريطة أن يكونوا زمرتين منفصلتين، وألا تقوم بينهم صلات، وأن يراقبوا دوماً داخل المدرسة بل خارجها. ومثل هذه التربية المختلطة نتيجتها المحتومة أن تلفت الانتباه إلى مخاطرها ذاتها...) إلى قوله: (.. وإذ ذاك تكون الحجج التي يوردها أنصار النظام وخصومه حججاً قبلية سابقة على التجربة)(١).

والحضارة المادية اليوم لا تقبل إلا بالصدارة، ولا تؤمن حتى بالمماثلة مع عقائد أخرى مهما كانت صحيحة أو أخلاقيات وثقافات مهما كانت كريمة. وهي تتعمد تجاهل الحضارات

---

(١) رونيه أوبير: التربية العامة، ترجمة د. عبدالله عبدالدائم، ص ٥٦٣، ٥٦٤، دار العلم للملايين، ط ٦، ١٩٨٣م.

العريقة وبخاصة حضارة الإسلام، بل تسعى لتذويبها وطمس هويتها بكل صورة وبأي سبيل، ولا ترض سوى بالتبعية المطلقة لها في كل شيء.

بل لقد رضينا أن نتبع أعداءنا هؤلاء حتى فيما فضلنا الله تعالى به عليهم مما كرمنا الله به دونهم، فكيف الحال بما سوى ذلك؟ وأنت إذا شئت المثال أعجزك الحصر مما هو ظاهر بين في أبواب تقليد الغرب والشرق فيما لو تميزنا به دونهم كان حرياً بهم أن يقلدونا فيه، وأما ما كان خفياً من هذه الأمور فكثير وكثير جداً مما درج عليه الأول وغفل عنه الآخر حتى أصبح في قائمة المسلمات التي لا يعقل أن يدركها أحد أو يشك فيها، وهذا يشكل مادة بحث عزيزة لو قام بها الغيورون على دينهم وحضارتهم وثقافتهم الإسلامية. وإليك مثلاً من هذه الأمثلة للتوضيح.

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُم الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ الْيَهُودُ غَداً وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**» رواه الإمام البخاري رحمه الله. من يشك في أن التقديم والتأخير في أيام الأسبوع من التأريخ الذي نتداوله اليوم قد اعتراه تحريف وتشويه متعمد لا يخفى على العاقل؟ بل هو تحريف واضح الهوية سلفاً وله آثاره اليهودية الجلية التي تدخلت في كثير غيره من خصوصياتنا، وشوَّهت كثيراً من مآثرنا. إن النصوص النبوية الصحيحة الواضحة التي نقلت إلينا بنقل الثقاة العدول تقول إن: إن أفضل الأيام عند الله تعالى وفق سياق الحديث هو يوم الجمعة وترتيبها هو هكذا: الجمعة ثم السبت ثم الأحد لما جاء صريحاً واضحاً في روايات كثيرة منها

رواية الإمام مسلم رحمه الله عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وحُذَيْفَةَ رضي الله عنهما قَالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلائِقِ**». فمن يدرك مغزى التأخير المتعمد لهذا اليوم.. يوم الجمعة خير أيامنا أهل الإسلام، وما يوحي به؟ وما الفرق بين أن يكون يوم الجمعة إجازة لأول الأسبوع بدلاً من كونه إجازة لآخر الأسبوع؟ إلا أنه الحقد والحسد الذي ملأ قلوبهم على أهل الإسلام حتى في هذا المعنى الانهزامي الذي أرادوه من جراء كل عبارة توحي بالسبق والصدارة لأهل الكتاب، والتخلف والتأخير لأهل الإسلام مجرد معنى خفي غاب عنا في غمرة غيابنا عن المكانة التي خلقنا الله لها وجعلها قدراً محتوماً لا ينفك عنا بحال إذا عدنا إلى ديننا، ورجعنا لمصدر عزنا، وسبيل نصرتنا الذي وضحه لنا رسول الله ﷺ: الجهاد في سبيل الله، وتحكيم شرع الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي بسبب تركها سلط الله علينا ذلاً لا ينزعه حتى نعود لديننا، قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

والحضارة المادية اليوم لا تحسن حتى التفريق بين العلم والجهل.. فمع انتشار العلم (المادي) اليوم انتشاراً لم تصل إليه البشرية بمجموعها في أي وقت مضى إلا أن الجهل قد انتشر بدوره انتشاراً فاحشاً كذلك. والفرق كبير بين العلم الذي أثبته الله للكافرين الذين حادوا عن منهج الرسل، وعن دين الإسلام وهو العلم بظاهر الحياة الدنيا والعلم بالمادة والصناعة والحرف، وبين

العلم الذي أثنى الله عليه ورغب فيه. والعجيب أنه في آية واحدة جمع الله سبحانه بين العلم وعدم العلم معاً، فقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله: أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين، وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلّب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾: يعني الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهّال)[2].

ومن الجهل حقاً أن لا يفرّق اليوم بين العالم والجاهل إلا بمعيار المادية فحسب.. حتى إنك لتجد معيار الحضارة في الدول يقاس اطراداً بنسبة الأميين فيها ونسبة القراء والمثقفين. وهذا هو الجهل بحد ذاته عند كل عاقل بصير تحددت لديه معايير التقييم الصحيحة التي يزن بها نجاح الحضارات وفشلها. والأمية كثيراً ما تكون لقب شرف للأمة إذا حافظت على عقيدتها، وصانت حقوقها، ورفعت من معايير الشرف والعفة والكرامة بين أفرادها. كما أن الحضارة والثقافة والمادية كثيراً ما

---

(١) الروم: ٦، ٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/٤١٢.

تكون معول هدم للأمة إذا حادت عن منهج ربها، وأغرقت في شهواتها، وتحللت من قيمها ومبادئها، وفرّطت في حقوقها.

ولهذا جاء وصف الشرف الغالي بأصالة الأمة في قول النبي ﷺ: «**نحن أمة أميه لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا**». كما ورد في صفات النبي ﷺ أنه الأمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾.

وليس هذا بوصف نقص على الإطلاق، بل هو سمة شرف لمن نظر ببصيرة نافذة. فلربما كان الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب أوعىٰ وأعلم وأفقه بالمسألة التي يسمعها من ذلك القارىء الكاتب. عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نضّر الله امرأً سمع منا حديثاً، فحفظه حتى يبلّغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»[1]. وفي رواية: «**فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»[2].

والأمية لا تستلزم الجهل.. لكنها معركة الحضارة المادية اليوم وتلاعبها بالألفاظ، وتحايلها على الدين والأخلاق والقيم. وكيف تكون الأمية ـ بهذا المعنى ـ نقصاً وقد وصف الله بها هذه الأمة التي أخبر بأنها: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ

(١) حديث صحيح رواه الترمذي. انظر صحيح الجامع: (٦٧٦٣).

(٢) رواية صحيحة أخرجها الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم وغيرهم. انظر: صحيح الجامع: (٦٧٦٦).

﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[1]. والأمي هو الرجل الذي لا يحسن الكتابة ولا القراءة. قال الأصفهاني في مفرداته: قال قطرب: الأمية الغفلة والجهالة، فالأمي منه، وذلك هو قلة المعرفة، وقيل: منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم كقولك: عامي لكونه على عادة العامة، وقيل: سمي بذلك ﷺ لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله منه بقوله: «**سنقرئك فلا تنسى**»، وقيل: سمي بذلك لنسبة إلى أم القرى[2].

والفرق بين الأمي والجاهل فرق كبير واسع.. ولكن التربية المادية نجحت في الربط بين الأمرين وجعلت كلاً منهما بمعنى الآخر لتخلص إلى تمجيد العلم.. ولكنه العلم بظاهر الدنيا، مجرداً عن كل نظر أو بصيرة فيما وراءها. ولقد نجحت بالفعل في جعل الناس لا يتجاوزون هذا الظاهر، ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه. (وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير، مهما بدا للناس واسعاً شاملاً، يستغرق جهودهم بعضه، ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة، والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل..) والذي لا يتصل قلبه إلا بهذا الظاهر، ولا يدرك ما هو أبعد منها، ولا يستبصر الحكم العظيمة من ورائها (يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة، ولكنه لا يدرك حكمته، ولا يعيش بها ومعها، وأكثر الناس كذلك؛ لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، ط١، ١٤١٨هـ، ص٣٣.

ظاهر الحياة بأسرار الوجود، وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود. والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس. ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية..)[1].

❖ من يلمّع صورة الفيلسوف ؟!

ليس غريباً أن يجد الباحث صورة التناقض الصارخ في حياة الغرب من خلال سيرة أعلامه الكبار في مجال الفكر والتربية وسائر التخصصات الأخرى.. وهذا ما يدعو للدهشة، فهو واقع ملموس، ومشاهد محسوس لكل من اطلع على تراجم هؤلاء وتأمل واقعهم. ولا عجب من هذه النتيجة إذا انطلقنا في تقييمنا من منطلق الإيمان، ومعيار الأخلاق والكمالات البشرية. وعندما تتحدد معالم التقييم والنظر هذه يمكننا أن نتقبل باطمئنان أخبار التناقضات الصارخة في حياة أعلام الغرب ورموزه.

من هؤلاء الغربيين - على سبيل المثال - من كانت كتبه - كما يقال - ملاذاً لأصحاب المشاكل النفسية والقلق والاكتئاب.

وكانت العبارة الشهيرة التي تتصدر كتبه تقول: «.. إن معاهده تساعد الناس على التوصل إلى حياة (سعيدة) ومثمرة.. وذلك بتفجير المزايا الكامنة في أنفسهم..»، و «إن كتبه فيها دعوة صريحة للإنسان ليحيا حياته بصورة متكاملة مثالية»، وأصبح اسمه - كما يقال - معروفاً في كل بيت ينشد السعادة والهناء..»[2]. ثم.. ماذا بعد؟! لقد مات هذا الأسطورة..

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٨ـ ٢٧٥٩.

(٢) دايل كارنيجي: (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس) و (دع القلق وابدأ الحياة)؟!.

منتحراً!؟ نعم.. مات منتحراً لأنه كان يجد في قرارة نفسه فراغاً عظيماً لم يستطع أن يملأه بأي مما كان يقدّم. لم يكن هذا الغربي بحاجة إلا لسجدة العبودية الحقة بين يدي خالقه ومولاه.. وثمَّ السعادة للقلب، هناك ربيع والاطمئنان الذي لا يشوبه قلق، ولا كدر قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[1].

ومن خلال نظرته المتفائلة الصفراء كان ينشد السعادة من داخل قلبه.. لكنه لم يكن ليجدها بعيداً عن الإيمان الصحيح بالله وحده.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[2]. وإنها الحقيقة التي لا تخفى على أحد من عوام المسلمين أياً كان موقعه.

ومعلوم أن حياة كل عضو بجنس ما فقده وافتقر إليه. وحياة الروح لا يكون إلا في وجود دوائها وغذائها، وهو الإيمان الصحيح والهداية الحقة، وذلك هو ما يفتقده أعلام الغرب مهما سمت منازلهم ومكاناتهم.

وهذا مثال آخر لعلم من أعلام التربية الغربية هو (برتراند رسل) ـ أسوقه لتقرير هذه الحقيقة، وإلا فالنماذج في هذا المبحث كثيرة جداً، ويصعب حصرها ـ.

عاش (راسل) في القرن الثامن عشر وهو يعد ـ في نظر الغرب ـ ظاهرة بشرية نادرة، ونابغة من نوابغ الفكر الإنساني..

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) طه: ١٢٤ـ ١٢٦.

هذا ما يعلم عنه الدارسون والباحثون في مجال تخصصه وهو ما يدركه حتى كثير من تلامذته ومريديه في عالمنا العربي والإسلامي!! والكثيرون لا يكادون يعلمون من سيرته الذاتية ـ خارج تخصصه ـ إلا النزر اليسير الظاهر. غير أن (راي مونك) وهو الكاتب الذي يعلم تفاصيل أدق عن حياة هذا العالم الغربي كان له رأي آخر، ولهذا لم يجد صفة يعرّف بها (راسل) في كتابه الذي تناول سيرته الذاتية بالتفصيل سوى (التناقض)[1]. وهذا التناقض كان سمة بارزة يعيشها هذا المفكر في واقع حياته. يقول راي مونك: (.. رغم كل نظرياته، يبدو أن (برتراند رسل) لم يحقق شيئاً وفق تقويمه شخصياً، إلا أنه من وقت لآخر يعود لهواجسه الباكرة والتي ما يلبث أن يدحضها بسلوكه. وهذا أدل المواقف على تناقضه..). ثم يمضي الكاتب في سرد سلسلة طويلة من تلك التناقضات السلوكية في حياة هذا العلم البارز من أعلام التربية الغربية!!

وأكرر.. إن المسألة تتجاوز الإغراق في منهج علم بذاته من أعلام الغرب وإنما معالجة ما خفي على أولئك المبهورين بالأطروحات الغربية المعربة ـ أياً كان تخصصها وفنها ـ وتأكيد أن التربية المادية الزائفة قد لا يظهر عوارها إلا في غاياتها ونتائجها، على الرغم من بهرجها الساطع لأول وهلة الذي تنمّق فيه العبارات، وتقاد به الأساليب البلاغية.. كل ذلك باستخدام الحبكة الموضوعية للأهداف والنتائج، والتلاعب بعقول القراء

---

(١) قام بترجمة الكتاب والتعريف به: ميرغني معتصم، ونشر مقال مختصر حول الكتاب في جريدة عكاظ الأسبوعية عدد ١٠٨٧٣.

وعواطفهم عن طريق التأثير والتشويق معاً.. وتبقى الحقيقة الماثلة للعيان منذ القدم، يدركها كل ذي بصيرة سليمة معتز بأصالة منهجه، ومدرك لحقيقة المفاصلة بين الكفر والإيمان وبين الحق والباطل.. وهي الحقيقة التي كان يرددها شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه فيقول: «.. ليس من أمور الكفار في دينهم ودنياهم إلا وهو فاسد أو ناقص في عاقبته، حتى ما هم عليه من إتقان أمور دنياهم..»[1]. وتأكيده رحمه الله على أن اتباعنا لهم لا بد أن يكون: «.. فيه مضرة إما بديننا وآخرتنا، أو لأحدهما، وإن لم ندرك ذلك».

وهذا يجري على كل أمور الكفار في مقاصدها وفي كثير من وسائلها. وإن كان ذلك لا يعني مطلق الرفض لما أمكن الاستفادة منه بعينه في بابه المادي الذي لا يداخله الفساد عندنا في أصل مقصده أو في وسيلته، إذا تحول لمقصد آخر غير مقصده، ووسيلة أصح من وسيلته. والله أعلم.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٤١/١ تحقيق د. ناصر العقل.

علام يتهافت الدعاة؟!

يعرض عدد من الدعاة عن استقاء المفاهيم الإدارية أو القيادية أو التربوية من نصوص الكتاب والسنة مباشرة، بالاعتماد على تفاسير أهل العلم وشروحاتهم الكثيرة.. بل ويتحاش بعضهم حتى تلك الكتب الإسلامية في الإدارة والقيادة، بحجة قصورها عن إدراك هذا الفن ـ غالباً ـ، أو عن الدخول في صلب تخصصه مباشرة، ويفضلون بدلاً من ذلك الاعتماد على هذه الكتب المعربة مهما كلفهم ذلك من مال وجهد!!

وهذا يدعونا للتساؤل عن سر هذا التهافت الذي يتخذ في واقع الأمر صورتين متلازمتين إحداهما: صورة الإقبال والشغف بهذه الأطروحات، والثانية: صورة الإعراض والزهد عن الأطروحات الإسلامية المعاصرة في الإدارة والتربية وفنون التعامل.

ولنبدأ **بأولهما**.. ولعله من المسلمات التي يجب البدء بها هنا أن كثيراً ممن ينهجون هذا النهج الخاطىء في التربية هم غالباً من أولئك الذين لم يتبعوا الطرق الصحيحة للبحث العلمي، ولم يتذوقوا بعد حلاوة العلم الشرعي، وكما لم يتعودوا الصبر على تقليب المسائل، والبحث عن الفرائد والدرر الكامنة في أعماق

كتب الإسلام المباركة. أو لربما كانوا ممن يقرأون ويطّلعون ولكن ينقصهم جانب الفقه، والاستنباط، وحسن النظر والفهم. وأنت تجد أن هذا الصنف من القراء سريعاً ما يهرع لهذه القوالب الجاهزة، والقواعد الغربية المفهرسة والمبوّبة. غير مدركين غالباً حقيقة الفرق بين تقاسيم العلوم وفروقاتها. وإذا كانت العلوم البحتة كالكيمياء والفيزياء والأحياء والطب والزراعة ونحوها من العلوم أو المهارات القتالية والصناعية التي سُبقنا إليها ولا تعرف بدقة إلا بأخذها ممن أتقنها وبرع فيها هي مما يسوغ للمسلم أن يتلقاه عن المسلم وعن غيره، بنية صالحة جديدة يسدّ بها حاجة أمته ويقوم بعمارة الأرض، فإن نوعاً آخر من العلوم والفنون هو مما يستغنى عنه البتة ولا يطلب إلا لمصلحة راجحة من إظهار حقيقة النقص والخلل، أو التحذير وبيان الصواب. وهذا النوع يتمثل في كثير من العلوم الإنسانية والاجتماعية، من فلسفة وعلم نفس واجتماع، وكذا ما تناول جانب العقائد، والأديان، والأخلاق، والتربية، ونحوها؛ نظراً لوجود الكفاية النافعة في الإسلام الذي يغني عن تلقيها من مصادر أخرى، وبخاصة إذا كانت هذه المصادر تناقض أصول الإسلام، أو تعارضه. وكثير ممن يتهافتون على هذا الطرح الغربي المادي الرخيص الذي لا حاجة إليه لربما لم يدركوا بعد حقيقة التفاصل بين المنهج الإسلامي والمنهج المادي، وبين الغايات والنتائج لكل منهما.. بل لربما لم يدركوا خطورة هذا النهج على عقيدة الولاء والبراء، وعلى كمال الإيمان في حياتهم.

والنظرة الموضوعية الأصيلة في هذا الموضوع تسمو فوق نظرتين قاصرتين: إحداهما تدعو للقبول المطلق، والإفادة الكاملة

لكل ما لدى الغرب. والأخرى تنادي إلى نبذ كل وافد بالكلية، لا على أساس النقد البصير المتزن، وإنما للرفض ذاته. والرفض المطلق قرين القبول المطلق، إلا أن خطر القبول المطلق أعظم؛ لأنه مؤشر خطير يدل على ضياع الهوية والقيم، كما أنه مظهر من مظاهر الانهزامية البليدة أمام حضارة الغرب المادية، وهو فوق ذلك كله يغفل أحقية الأمة في أن يكون لها كيانها الخاص، وشخصيتها المستقلة، وعقيدتها الصافية، وقيمها الرائدة الواضحة، ووسطيتها بين سائر الأمم. وهذا التيار الهادر من دعاة التطويع والتطبيع هو الذي أصبح مقرباً لدى أقطاب العولمة والأمركة في هذا العصر ممن باتوا يحرصون على تسليط الأضواء على رموزه ويمنحونهم شهادة التحضر والرقي، ويشيدون بجهودهم الحثيثة في القضاء على الرجعية وفي القضاء على الثوابت والأصول، وإعادة ترتيب معايير الأخلاق والقيم في المجتمع.

على أن الرفض المطلق كذلك ـ على أصالته ـ لا يعد حلاً ناجحاً في مواجهة تحديات العصر وغالباً ما تحركه إحدى غايتين، **أولاهما**: وهي الغاية المحمودة التي تتبنى الدعوة للرفض من أجل البناء الذاتي وإيجاد البدائل[1] المناسبة، وصياغة الخطط والأهداف الاستراتيجية بعيدة الأمد نحو الكفاية الذاتية. وأما **الثانية**: فهي التي تتمثل في النبذ والترك لذاته، بعيداً عن التفكير

(١) سبق أن أشرت إلى أنا بحاجة لتقنين هذه اللفظة، في سبيل القضاء عليها. وذلك لما توحيه من ضياع هوية الأمة، وضعفها عن المبادرة في إيجاد كيان واضح يعتمد على الأصالة التي لا مدخل فيها لأي وافد من خارج ماهيتها، ولا تحتاج إلى التفكير في بديل يماثله ويوافق هويتها الواضحة.

في اتخاذ التدابير الأصيلة لتحقيق الكفاية، أو النظر في الإفادة الواعية من الموجود الذي يسوغ الانتفاع به لغاية أعلى ولهدف أسمىٰ.

وعليه فنحن أشد حاجة إلى أن نفرق بين الحق والباطل، حتى يُقبل الحق في بابه وفنه وتخصصه، مع الحفاظ على الهوية، والتخطيط الحثيث لإيجاد الكفاية التي تغني عن ذلك الاستخذاء في سبيل إقامة حضارة الأمة المعتزة بدينها مع قدرتها وأهليتها، وكفائتها في كل شيء.. بدءاً من اختيار المسميات والمصطلحات، مروراً بجودة التوظيف والممارسة لها، وانتهاء بتحديد الغايات وسلامة النتائج.

وقبل هذا وبعده لا بد من التأكيد على نوعية القراءة في ذاتها[1]، وأهم منه القارىء ومؤهلاته. وجميع التأثيرات الخارجية والدعايات البراقة لأي أطروحة غربية أو شرقية تزول حالما يخلو القارىء بالكتاب، خلوة شرعية معتبرة.. ثم يبدأ بالقراءة الناقدة المتبصّرة.

وليس هناك في الأخير سوى قارىء وكتاب.. وبحسب مقدرة القارىء، وكفاءته، وعلمه، تظهر نتيجة المواجهة الصامتة، بين فكرين، وبين قناعتين، ثم تحسم النتيجة لصالح أحدهما في النهاية.

أما **الصورة الثانية** فتتمثل في الإعراض عن (البدائل)

(١) سوف يأتي مزيد تفصيل عند ذكر الفرق بين قراءة الإضافة وقراءة التوظيف لهذا النوع من الكتب.

الإسلامية التي يقدمها أصحابها لسد هذا الجانب أو ذاك في مجال الإدارة أو التربية. وبغض النظر عن مستوى الجودة والتخصص فإن القراءة الموضوعية عموماً تستلزم عدم توحيد مجال النظر، أو قصره على منهج بذاته من مناهج هذه الظاهرة أو حصر الاهتمام في أطروحات مؤلف بذاته أو كتاب بعينه إذا أردنا الخروج بنتائج إيجابية للدراسات الناقدة المحترمة. وعلى كل منصف يزعم الاستفادة من هذه المفاهيم الغربية التخصصية لتوظيفها في واقعه الدعوي أن تكون له قراءات نقدية واسعة كذلك في الأطروحات الإسلامية المعاصرة لهذه الفنون الوافدة مهما بدت ـ في نظره ـ ضعيفة في الأسلوب أو المحتوى. وليكن همه البحث عن الحق لذاته، وعن الصواب عينه، مهما بدا مغموراً في ركام من الضعف سواء في المحتوى أو الأسلوب أو الإخراج الفني.

وبما أن الدراسة ليست مخصصة لهذه الجزئية المهمة إلا أن مما يجب أن يراعيه كل من أراد التأليف في هذا المجال ضرورة الكفاءة الشرعية أولاً ثم المعرفة الواسعة بالمناهج الغربية في التربية والإدارة؛ لئلا يقتحم علماً ليس له بأهل أو يخوض في فن لا يدرك منه إلا المسلّمات التي قد لا تخفى على أحد من صغار المثقفين[1]. فإذا تحققت الأهلية الشرعية والكفاءة، جاء دور إخلاص القصد لله وحده، جاعلاً غرضه محض النصح للمسلمين،

---

(١) تعجب أحياناً من بعض الكتب التي يسميها أصحابها بأنها (نظرات تأصيلية) أو (ضوابط إسلامية) في باب من أبواب التربية والإدارة أو آخر، ثم لا تجد فيها من ثمين المعلومات إلا تراجم الأعلام في حاشية الكتاب، وما عدا ذلك متاع رخيص لا يستأهل حتى الكتابة.

وسد ثغرة من الثغرات المعاصرة بنظرة شرعية تجعل من القرآن والسنة نصب عينها، وتغني المسلمين عن الاستمداد من الأطروحات الغربية أو الشرقية التي لا تخلو من الآفات والمحاذير.

فإذا استفرغ هذا الباحث المبارك الجهد، وأخلص القصد فعليه أن يحترم شخصية القراء الذين يوجه إليهم هذا الطرح، كما عليه ألا يلبّس في ثوابت العلوم والتخصصات، وألا يعتسف النقل والاستشهاد، ولا يلوي ظواهر النصوص عن دلالاتها بغير قرائن شرعية معتبرة.. مراعياً مع كل ذلك فنون الكتابة، وأساليب التشويق والتأثير، ومهارات الإقناع مع الأصالة ووضوح الهوية المسلمة المعتزة بدينها في كل مراحل التأليف. وليعلم أنه لا يخاطب قراء من كوكب آخر، بعيدين عن التأثير الخارجي. وإنما حاله كمن يبحر في قارب غريب وحيد تتلاطمه الأمواج الهادرة من كل مكان، وأنه مع حرصه على إيصال الناس إلى بر الأمان إلا أن هناك العديد والعديد من البدائل المنافسة، في سوق العرض والطلب. وهي الأقوى من حيث شهرتها، وإقبال الناس عليها.. وليعلم علم اليقين أنه بغير الأصالة، وبغير حفظ الله تعالى وتوفيقه فلن يقوى على المنافسة، بل على المواصلة في لجة ذلك الفن الذي يكتب فيه. وليعلم أن أول من يطّرح مؤلفاته ربما كان من المثقفين الذين لم يراعوا الإنصاف في حكمهم ونقدهم، بل حتى من الدعاة العاملين من أمثال ذلك الذي قال لي بالحرف الواحد: «أنا لا أكلف نفسي قراءة تلك الكتب الإسلامية في التنظيم والقيادة، وإنما تكفيني هذه» وأشار إلى عشرات الكتب المعربة في القيادة التي أنفق في سبيل تحصيلها أموالاً طائلة، وجهداً شاقاً، ووقتاً ليس بالقليل.

ومع أن هذا القول من ذلك الداعية لا يتسم بالإنصاف والموضوعية، ولا يتبّع المنهج العلمي في النقد والتحليل إلا أن له ـ في بعض الأحيان ـ ما يبرره، وبخاصة عند النظر في المستوى العلمي والدعائي الذي تخرج به عدد كبير من تلك المؤلفات الإسلامية في هذا الفن أو ذاك.

❖ كيف يهتدي المسترشد إذا كان الدليل حائراً؟

العلماء والدعاة هم مصابيح الدجى، وهم أدلاء الطريق للمسترشدين، فإذا صلحوا أصلحوا، وإذا فسدوا أفسدوا، ولن يستقيم الظل والعود أعوج. فإذا تهافتوا على شيء كان غيرهم أحرى بالتهافت عليه، وإذا نهوا عن شيء كانوا أولى بالبعد عنه، فسبيلهم أمام الناس لا كسبيل غيرهم، وهديهم أظهر من هدي غيرهم. ولعظيم هذه المكانة كان كثير من سلف هذه الأمة يتحرج من فعل بعض المباحات خشية أن يكون فيه إزراء بمكانة العلماء، وحمدوا لمن كان إماماً في الدين ألا يشابه سائر الدهماء، وفرقوا بينهم وبين غيرهم في كثير من المسائل في باب إجابة الدعوات التي يخشى أن يكون فيها منكر ظاهر، أو ارتياد أماكن الشبهات والريب، أو الحديث مع أهل البدع أو الفساق المجاهرين الذين لا يتورعون عن المنكرات وعدم إنعامهم ولو بكلمة واحدة، وغير ذلك. كل هذا منهم حفاظاً على مكانة العلماء وأهل الديانة والصلاح. ومن ذلك ما نقل عنهم رحمهم الله من التحذير من اتباع محدثات الأمور أو التهوك في المشتبهات التي لم يتبين فيها الحق من الصواب، أو القول في أمر من أمور هذا الدين بغير علم، أو سلوك غير سبيل المؤمنين

السابقين أو الأخذ من الكافرين واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين.. ولاية الديانة والمحبة والنصرة، وكذا ولاية الاقتداء والتقليد والأسوة والتعظيم فيما عليه الكفار من شؤون حياتهم، وكذا ما هم عليه من طرائقهم ومفاهيمهم وأكفارهم ومناهجهم المحدثة التي لا ضرورة تدعوا إليها، ولا حاجة لنا بها بعد أن أغنانا الله عنها بخير الهدي وأقوم السبل. وما أحسن ما أورده الإمام أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمٰن بن الفضل بن بهرام الدارمي السمرقندي رحمه الله (١٨١هـ ـ ٢٥٥هـ) في مقدمة مسنده المطبوع، والمتداول باسم (سنن الدارمي) ومن ذلك ما أورده رحمه الله عن عبدالملك بن سليمان أبو عبدالرحمٰن الأنطاكي عن عبّاد بن عباد الخواص الشامي أبي عتبة أنه قال مخاطباً العقلاء من أهل عصره: أما بعد اعقلوا، والعقل نعمة، فرب ذي عقل قد شُغِل قلبه بالتعمق عما هو عليه ضرر عن الانتفاع بما يحتاج إليه، حتى صار عن ذلك ساهياً. ومن فضل عقل المرء ترك النظر فيما لا نظر فيه حتى لا يكون فضل عقله وبالاً عليه في ترك منافسة من هو دونه في الأعمال الصالحة، أو رجل شُغِل قلبه ببدعة قلّد فيها دينه رجالاً دون أصحاب رسول الله ﷺ، أو اكتفى برأيه فيما لا يرى الهُدى إلا فيها، ولا يرى الضلالة إلا بتركها يزعم أنه أخذها من القرآن وهو يدعو إلى فراق القرآن. أفما كان للقرآن حملة قبله وقبل أصحابه يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه؟ وكانوا منه على منار كوضح الطريق فكان القرآن إمام رسول الله ﷺ، وكان رسول الله إماماً لأصحابه، وكان أصحابه أئمة لمن بعدهم؟ رجال معروفون منسوبون في البلدان متفقون في الرد على أصحاب الأهواء مع ما كان بينهم

من الاختلاف، وتسكع أصحاب الأهواء برأيهم في سبل مختلفة جائرة عن القصد مفارقة للصراط المستقيم فتوَّهت بهم أدلاؤهم في مَهَامِه مُضِلّة فأمعنوا فيها مُتعَسّفين في تِيهِهِم كلما أحدث لهم الشيطان بدعة في ضلالتهم انتقلوا منها إلى غيرها؛ لأنهم لم يطلبوا أثر السالفين، ولم يقتدوا بالمهاجرين. وقد ذكر عن عمر رضي الله عنه أنه قال لزيادٍ: هل تدري ما يهدم الإسلام؟ زلة عالمٍ، وجدال منافقٍ بالقرآن، وأئمةٌ مضلون. اتقوا الله وما حدث في قرائكم وأهل مساجدكم من الغيبة والنميمة والمشي بين الناس بوجهين ولسانين. وقد ذكر أن من كان ذا وجهين في الدنيا كان ذا وجهين في النار. يلقاك صاحب الغيبة فيغتاب عندك من يرى أنك تحب غيبته، ويخالفك إلى صاحبك فيأتيه عنك بمثله، فإذا هو قد أصاب عند كل واحدٍ منكما حاجته، وخفي على كل واحدٍ منكما ما أُتي به عند صاحبه. حُضُورُهُ ـ عند من حضره ـ حُضُورُ الإخوان، وغيبته ـ على من غاب عنه ـ غيبة الأعداء. من حضر منهم كانت له الأثرة، ومن غاب منهم لم تكن له حرمةٌ. يفتن من حضره بالتزكية، ويغتاب من غاب عنه بالغيبة. فيا لعباد الله أما في القوم من رشيدٍ ولا مصلحٍ يقمع هذا عن مكيدته ويرده عن عرض أخيه المسلم؟ بل عرفَ هواهم فيما مشى به إليهم فاستمكن منهم وأمكنوه من حاجته فأكل بدينه مع أديانهم. فالله الله.. ذُبُّوا عن حُرم أغيابكم وكفوا ألسنتكم عنهم إلاَّ من خيرٍ، وناصحوا الله في أمتكم إذ كنتم حملة الكتاب والسُّنَّة؛ فإن الكتاب لا ينطق حتى يُنطق به، وإن السُّنة لا تعمل حتى يُعمل بها. فمتى يتعلَّم الجاهل إذا سكت العالم فلم ينكر ما ظهر ولم يأمر بما ترك؟ وقد (أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه

للناس ولا تكتمونه). اتقوا الله فإنكم في زمانٍ رقّ فيه الورع، وقلَّ فيه الخشوع، وحمل العلم مفسدوه فأحبُّوا أن يعرفوا بحمله وكرهوا أن يعرفوا بإضاعته، فنطقوا فيه بالهوى لما أدخلوا فيه من الخطأ، وحرَّفوا الكلم عمَّا تركوا من الحق إلى ما عملوا به من باطلٍ.. فذنوبهم ذنوب لا يستغفر منها، وتقصيرهم تقصيرٌ لا يعترف به.

كيف يهتدي المستدل المسترشد إذا كان الدليل حائراً؟ أحبوا الدنيا وكرهوا منزلة أهلها فشاركوهم في العيش، وزايلوهم بالقول، ودافعوا بالقول عن أنفسهم أن يُنسبوا إلى عملهم فلم يتبرؤوا مما انتفوا منه، ولم يدخلوا فيما نسبوا إليه أنفسهم؛ لأن العامل بالحقِّ متكلِّمٌ وإن سكت. وقد ذكر أن الله تعالى يقول: إني لست كل كلام الحكيم أتقبَّل، ولكني أنظر إلى همِّه وهواه، فإن كان همُّه وهواه لي جعلت صمته حمداً ووقاراً لي وإن لم يتكلَّم. وقال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ـ لم يعملوا بها ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي كتباً. وقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ قال: العمل بما فيه. ولا تكتفوا من السُّنَّة بانتحالها بالقول دون العمل بها فإن انتحال السُّنَّة دون العمل بها كذبٌ بالقول مع إضاعة العمل. ولا تعيبوا بالبدع تزيُّناً بعيبها؛ فإنَّ فساد أهل البدع ليس بزائدٍ في صلاحكم. ولا تعيبوها بغياً على أهلها فإن البغي من فساد أنفسكم، وليس ينبغي للطَّبيب أن يداوي المرضى بمال يبرئهم ويمرضه؛ فإنه إذا مرض اشتغل بمرضه عَنْ مداواتهم، ولكن ينبغي أن يلتمس لنفسه الصِّحَّة ليقوى به على علاج المرضى. فليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم نظراً منكم لأنفسكم،

ونصيحةً منكم لربِّكم، وشفقةً منكم على إخوانكم. وأن تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعنى منكم بعيوب غيركم، وأن يستطعم بعضكم بعضاً النَّصيحة، وأن يحظى عندكم من بذلها لكم وقبلها منكم. وقد قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي. تحبُّون أن تقولوا فيحتمل لكم، وإن قيل لكم مثل الذي قلتم غضبتم؟ تجدون على الناس فيما تنكرون من أمورهم وتأتون مثل ذلك فلا تحبون أن يوجد عليكم؟ اتَّهموا رأيكم ورأي أهل زمانكم، وتثبَّتوا قبل أن تكلَّموا، وتعلَّموا قبل أن تعملوا؛ فإنه يأتي زمانٌ يشتبه فيه الحقُّ والباطل ويكون المعروف فيه منكراً، والمنكر فيه معروفاً. فكم من متقرِّبٍ إلى الله بما يباعده، ومتحبِّب إليه بما يغضبه عليه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾. فعليكم بالوقوف عند الشبهات حتى يبرز لكم واضح الحقِّ بالبيِّنة؛ فإن الداخل فيما لا يعلم بغير علم آثمٌ، ومن نظر لله نظر الله له. علكيم بالقرآن فأتمُّوا به، وأُمُّوا به، وعليكم بطلب أثر الماضين فيه. ولو أن الأحبار والرُّهبان لم يتَّقوا زوال مراتبهم وفساد منزلتهم بإقامة الكتاب وتبيانه ما حرَّفوه ولا كتموه، ولكنَّهم لمَّا خالفوا الكتاب بأعمالهم التمسوا أن يخدعوا قومهم عما صنعوا.. مخافة أن تفسد منازلهم، وأن يتبين للناس فسادهم، فحرَّفوا الكتاب بالتفسير، وما لم يستطيعوا تحريفه كتموه. فسكتوا عن صنيع أنفسهم إبقاءً على منازلهم، وسكتوا عمَّا صنع قومهم مصانعةً لهم. وقد ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ بل مالئوا عليه ورفقوا لهم فيه. انتهى كلامه رحمه الله ورضي عنه، وقد نقلته بتمامه من غير

تصرف؛ لأنه يعد منهجاً كاملاً من مناهج الأدب الذي نحتاج إليه في هذه الأيام، ولا يكاد يجده ذلك الذي غرّب وشرّق في بحثه وفكره ومنهجه. فمثله كمثل:

العيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

وإنما يخرج بهذه الكمالات العالية طالب الكفاية بالحق دون سواه عندما يقلب صفحات سلفه الصالح متلمساً الهداية عندهم لا عند سواهم، قانعاً بالكفاية من معينهم لا من موارد سواهم، والله المستعان.

❖ منهج حياة كامل.. لو كان له رجال !!

بعد ظهور الطفرة العلمية والتربوية في الغرب سعى الغربي حثيثاً لأن يكون الأنموذج الذي يحتذى في كافة أرجاء العالم، ووظف لأجل ذلك الطاقات البشرية للوصول إلى مستوى الإبداع المادي مهما كلف ذلك من مال ووقت.. حتى ظهر الأنموذج الغربي وبخاصة الأمريكي في صورة المثال الذي يحتذى، والأصل الذي يستنسخ هنا وهناك من أجل الوصول للحضارة المزعومة. وفرق بين كمال مصطنع وكمال حقيقي.. كمال ذاتي وآخر مشوّه لا يعرف إلا في جانب دون آخر، وفي زمن دون زمن.

وكمال الإسلام كمال حقيقي نابع من ذاته، وعظمته صادرة من سنده العالي على الرغم من ضعف حملته في بعض الأزمان.. وهو بذلك ليس كمالاً نسبياً يعرف في مجال دون

آخر، بل هو كمال مطلق لا يغادر شيئاً من أمور المعاد أو المعاش إلا وانتظمه. ولا يتم إيمان العبد حتى يعتقد بكمال هذا الدين في كل شيء.. في عقيدته وشريعته، ومعاملاته وأخلاقياته، وحتى يعتقد يقيناً أن به تحقيق مصالح العباد كلها، وأن كماله لا يقتصر على ذلك فحسب، بل دائر في شؤون الحياة من سياسة واقتصاد وتربية واجتماع ونحوها؛ لأن قاعدة (الكمال) مطّردة على كل ذلك. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

والعبد المؤمن ـ أياً كانت وظيفته ـ يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة من رب الأرض والسموات موقفاً مهيباً.. إنه يقف أمام حقيقة إكمال هذا الدين ليستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل منذ فجر البشرية.. ويرى موكب الهدى والنور على معالم الطريق. ويجد أن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة كل زمان.. وأن منهجها الكامل.. صالح في كل زمان.. وعظمته تكمن في مصدره.. ومصدره هو الوحي الخالص الذي تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة.

والداعية المخلص الذي يستمد قوته من عظمة هذا المنهج تظل سمة العظمة ملازمة له، مترقية في سلّم دعوته بمقدار استمداده ذاك. وتلوح هذه القوة الذاتية فيه حتى في فترات الهزيمة والضعف المادي الذي يحيط بأمته جراء ابتعادها عن شروط التمكين في الأرض، وتخلفها عن مواكبة السنن. ولن يبلغ أحد هذه المنزلة العالية من منازل اليقين حتى لا يشك طرفة

---

(١) المائدة: ٣.

عين في أن سبيل العزة والتمكين والفلاح لهذه الأمة لا يكون إلا بالعودة الصادقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في (كل) شيء.. يقيناً يفوق اعتقاده بأن الماء والهواء لازمان لاستمرار الحياة. وبغير هذا الاعتقاد الجازم لن يكون مؤهلاً لإصلاح أي شيء، ولا لتغيير أي شيء.

ولئن كانت السنن تحرك رياح النصر (المادي) من هنا إلى هناك، وفق تقدير العزيز الخبير، إلا أنها لن تغير من ثبات المبادىء، وصفاء العقائد، وجلال الرسالة التي يؤمن بها الأفراد. وكم مرت على الأمة فترات ضعف إلا أنها لم تكن مصابة في عقيدتها أو في أخلاقياتها كما أصيبت به اليوم.. لقد كانت ترى أنها على الحق، وأن عدوها الظافر مادياً هو الخاطىء الكافر. وكانت نظرة الاستعلاء الذاتي بالإيمان ونظرة الاحتقار والازدراء لما عليه الكفار نظرة عامة يشترك فيها الصغير والكبير في بلاد الإسلام قديماً مهما استضعفت الأمة وقهرت مادياً.

ولئن أصبحنا في هذه الأيام نتحسر من غزو ثقافة المنتصر الكافر مادياً وعسكرياً واقتصادياً وفكرياً، ونتحسر على ترنم أهل الإسلام بلغته وثقافته، بإعزاز وإكبار فلقد ولى زمان - ليس بالبعيد - كانت العقيدة الإسلامية بكل إشراقاتها تبهر عقول مثقفي الغرب المسيحي، وكانت الثقافة الإسلامية والحضارة العربية الإسلامية مشعل نور يضيء عصورهم المظلمة ويستحوذ على اهتماماتهم. ولئن كنا نتحسر من تهافت المثقفين والدعاة على الكتب الغربية المعربة بوعي وبدون وعي، ونحذر من صرف الأموال والأوقات والجهود في سبيل تحصيلها من غير إدراك، فإن عهداً مضى كانت فيه الكتب الإسلامية عموماً، وكتب العلوم

والتربية والثقافة واللغة العربية خصوصاً هي سمع أوربا وبصرها. وكان المثقفون الأوربيون يتهافتون عليها.. يوم كانت هي (لغة المنتصر) في ذلك الوقت، حتى قال الكاتب المسيحي الأسباني ألفارو Alvaro[1] يومها متحسراً من ذلك الغزو الذي استولى على عقول شباب أوربا وقلوبهم: «يطرب إخواني المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين[2] لا لتنفيدها بل للحصول على (أسلوب) عربي صحيح رشيق. فأين تجد اليوم عالماً يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وا أسفا! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا على علم بأي أدب ولا لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة، وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب. وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة باحترامهم...»[3].

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة.. وما أسرع رياح التغيير وما أقسىٰ مرارة الواقع.

---

(١) عاش في القرن التاسع الميلادي.

(٢) يعني العلماء المسلمين.

(٣) مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب، ص ٤٩.

كيف نقرأ هذه الكتب؟

ها نحن نبحر أخيراً في لجة هذه الظاهرة التي أشرت إليها ونعود إلى شاطئها الرحب لنتعرف على جوانب مهمة منها.

ونحن كثيراً ما نتعجل الإجابة على هذا السؤال المهم - كيف نقرأ؟ - وكثيراً ما نخطىء كذلك عند الإجابة المباشرة عليه.

ونظراً لأن بروز الآثار السلبية الكثيرة لهذه الظاهرة ناجمة عن الطريقة الخاطئة في كيفية القراءة، التي مهدت لنشوء العديد من المناهج الدعوية المشوهة تبعاً لذلك فإن الآليات التي يعنى بها القارىء المسلم لتحسين طريقة القراءة يجب أن تُسبق بسؤالين مهمين يمثلان في الواقع التسلسل المنطقي لمراحل القراءة الجادة التي تؤتي ثمارها. وباكتمال الإجابات الواضحة على هذه الأسئلة الثلاث يتحدد مكمن الخلل في المناهج المعاصرة. ويتضح جانب القصور فيها.

ماذا نقرأ؟ و: لماذا نقرأ؟ و: كيف نقرأ؟ هذه هي الخطوات المنطقية الثلاث التي يجب تناولها بالتفصيل عند التعامل مع هذه الأطروحات الغربية، ثم عند الاستفادة منها فيما بعد.

والمعرفة النظرية المجرّدة - بحد ذاتها - لأهمية هذا

التسلسل الواعي للقراءة الموضوعية عاصم بإذن الله تعالى من الوقوع في كثير من آفات القراءات الدعوية التي أصبحنا نشاهدها ونعاني منها.

❖ ماذا نقرأ؟!

لقد أصبحنا نتعامل في هذه المرحلة مع (مسوخ) من العلوم الفلسفية والنظرية والتربوية الوافدة التي لا هوية لها غالباً. ويكفي لتقرير هذه الحقيقة أن نعلم أن أهمية (التصنيف) ـ الذي ما هو إلا توزيع متقن للكتب والدراسات في قوائم محددة يضمها فن من الفنون بعينه ـ تغيب في هذا النوع من الأطروحات المعربة؛ فعلى الرغم من العناية الفائقة التي توليها المكتبات ـ على اختلاف أنواعها ـ بالتصنيف فإن كثيراً من هذه الكتب قد يصعب إدراجها تحت تصنيف بعينه حتى على الخبير؛ لأنها ببساطة تصلح لأن تصنّف وفق عشرات المواضيع المتغايرة أحياناً (!!) وكثير من الكتب المعربة ـ بتصرف مترجميها ـ مثال ظاهر على ذلك، على الرغم من كون نسخها الأصلية ـ قبل التعريب ـ ظاهرة التصنيف، واضحة العبارة، محددة المصطلحات والتخصصات غالباً. ولا يفوق الانبهار بإدراج كتب غربية معربة كانت تصنف ـ قبل تعريبها ـ في باب التسويق أو إدارة المؤسسات أو التوظيف دخولها تحت قوائم تضم: صفات الداعية، ومهارات الدعوة، وشروط الدعوة.. إلخ، لا يفوق هذا الانبهار إلا ما يحدث مؤخراً في ظاهرة انتشار ما يسمى بـ(ورش العمل) والدورات الإدارية حول: فن التسويق وزيادة الإنتاج ومهارات التفاوض.. إلخ، حيث تمثل نسبة اشتراك الصالحين ـ من طلبة العلم والدعاة ـ في بعضها ٩٠٪

من العدد الكلي في حين لا يتكلف بعضهم الانتظام أو الصبر حتى في درس علمي في باب مهم يتكرر عليه في يومه وليلته مثل باب الطهارة أو الصلاة!؟ مع أنك لو سألته عن الباعث وراء مشاركته في تلك الدورات وورش العمل لقال:

بغية زيادة الفاعلية في مجال الدعوة!! ولو أدرك هؤلاء حقيقة هذه الدورات، ومجال تخصصها الفعلي لم يكن لهذا الانبهار أثره في الواقع. مع العلم بأن هذه الأطروحات الثقافية والدورات المكثفة الحالية تمثل في الواقع سوقاً تجارية محمومة[١]. والشاهد أن زيادة هذه التداخلات في الدعايات والعناوين التي توضع لدورة معينة بين الحين والآخر وبين دورة

(١) بل في كثير من هذه الدورات ـ كما سمعنا وعلم غيرنا ـ تهدر الأموال، وتصادر العقول، وتغيب الأفهام، ويظهر السخف والجهل المركب، حين ينفق الفرد آلاف الريالات للاشتراك في دورة لمدة أسبوع أو أسبوعين ما هي في حقيقتها إلا عرض لكتاب غربي سيار لا تتجاوز قيمته ثلاثون ريالاً؟؟! ولو لم يكن إلا هذا الأمر لكفى به رادعاً وزاجراً لأولي الألباب. كَتَبَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه إلى المغيرة بن شعبة أن اكتب إليَّ بشيءٍ سمعته من النبي ﷺ فكتب إليه: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**» رواه البخاري في كتاب الزكاة. والعجيب في الأمر أن عدداً من هذه الدورات لا تقوم إلا على هذه الآفات الثلاث مجتمعة!! فكيف الحال إذا اجتمع معها فوق ذلك المحاذير الشرعية الأخرى من ترك العمل بالقرآن، والسنة والرد إليهما في أبواب الإدارة والقيادة ـ وما أكثرها ـ، ومن تعظيم الكفار وتمجيدهم، والتسليم المطلق لمناهجهم بل وحتى نظرياتهم وآرائهم الذاتية؟ على أن هناك عدد آخر منها في المقابل ما هو جيد في تخصصه ومادته وطريقة عرضه وتحرره من عقدة الولاء للغرب في فنه، لكنه لا يزال قليلاً حتى الآن.

أخرى لا تختلف عنها - في الغالب - إنما يزداد طرداً مع زيادة العرض والطلب. وحتى السعي في أسلمتها وتأصيلها - في الغالب أيضاً - يتنامى مع تنامي الإقبال عليها. ولربما بلغت شهرة دورة بعينها، أو كتاب غربي بعينه بمقدار التناغم بين الأصالة الدعوية العريقة، والحداثة الغربية الأنيقة!! حين تخاطبك الأصالة بنصوص شرعية وقواعد علمية، بينما تناجيك الحداثة الغربية بشواهد عصرية ومصطلحات إنجليزية فنية، وأمثلة مؤسساتية معاصرة.. لا تقدر معها أن تميز هذا النوع من العلوم أو أن تصنفه!؟ وخذ - لتقرير هذا الكلام - هذين المثالين فقط من ركام الأمثلة التي لا يتسع هذا المبحث لها.

❖ المثال الأول:

كتاب (كيف تكون عملياً أكثر؟) لمؤلفيه: جون وفيونا همفري.. هو كتاب (إدارة، أكاديمي مترجم) على حد قول معربه الأستاذ: سامي سلمان في المقدمة. والذي يؤكد أنه: (من الصعب أن يقدّم بغير ملامحه الثلاث هذه). لكن الغريب في الأمر إيراد تلك العبارة الأصيلة البراقة من كلام المعرّب في الغلاف الخارجي للكتاب التي سريعاً ما تجذب القارىء، وتستدرجه. ونصها: (أعجبني قول الإمام الحسن البصري: يا ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك) (!!!)، من هذا الفهم لقيمة الوقت عند المسلم - والكلام لا يزال متصلاً للمعرب - أردت أن أقدم طريقة عملية لتحسين الإنتاجية، فوجدتها في كتاب: «How to get more done?»)ا.هـ[1].

---

(١) سامي سلمان: كيف تكون عملياً أكثر؟!، المؤتمن للنشر.

والحيرة التي تتملك القارىء هنا ظاهرة من جهتين: **الأولى**: عند النظر لأول وهلة في غلاف الكتاب الأمامي، ثم إعادة النظر في غلافه الخارجي ـ بعد التعريب ـ، **والثانية**: تكمن في إسقاط لفظة مهمة من العنوان الأصلي للكتاب ـ قبل تعريبه وهي: (at work) وتعني: (في العمل) أو الوظيفة. وبهذا تكون الترجمة الحرفية هي: (كيف تحصل على فاعلية أكبر في العمل).

وهذه اللفظة: (at work) مهمة جداً في تحديد هوية الكتاب الحقيقية، وتخصصه. كما أنها مهمة كذلك في فهم مصطلحاته وتوجيهاته. وعلى الرغم من نبل مقصد المعرب ـ جزاه الله خيراً ـ بعدما علمت عنه من الخير والصلاح، إلا أن التناقض لن يزول أبداً من ذهن القارىء العادي حين يقلّب الكتاب ظهراً لبطن، ويقرأ العنوان بحروفه الإنكليزية البراقة، واسم المؤلف بأعجميته المعهودة، ثم يقرأ كلام الحسن البصري.. الإمام الزاهد العابد!؟

إن مؤلفا هذا الكتاب الغربي حول (الفاعلية في العمل) لا يتناولان تلك الفاعلية التي تعنينا نحن الدعاة بأبعادها الشرعية الواضحة مهما بدت متوافقة في الوسائل أو الألفاظ. ومن الصعب أن نفهم الكتاب بغير ضابطه الذي حدده له مؤلفه. ومؤلفا الكتاب قد حددا مجال دراستهما في نطاق العمل المؤسسي والوظيفي فحسب. ولهذا فإن قدراً كبيراً من اللبس سوف يصيب قارىء هذا الكتاب المعرب حين يشتري الكتاب الغربي بعنوانه ومؤلفه وبلغته الأصلية، ثم يفاجأ بتأصيل جديد لمفهوم الإنتاجية الدعوية في مقدمة تعريب هذا الكتاب

الغربي البحت والتي تحث على حفظ الوقت في عبارة طويلة منها: (وفي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ من المعاني ما جعلهم - أي السلف - كذلك - محافظين على استغلال أوقاتهم - وينبغي أن يجعلنا كذلك. يقول الحسن البصري: أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه..). وقد ورد في المقدمة كذلك الاستشهاد بقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ الآيات[1]، وقول النبي ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع**...» الحديث. كما ورد فيه الكثير الطيب من النصوص والشواهد التي سردها المعرب وفقه الله، غير أن مكمن الخلل هنا هو التقديم بهذه النصوص الشرعية لكتاب غربي سيار، مهما سمت درجته، ومهما بلغت منزلته. وإنما تصلح هذه النصوص الشرعية للتقديم في كتاب أصيل ومستقل حول الموضوع، من خلال استقراء نصوص الكتاب والسنة، وأقوال أهل العلم.. بعيداً عن أي رطانة أو عجمة لا تخدم خصوصية الموضوع وأصالته.

إن ما نقرأه إذن في هذا الكتاب الغربي - ولا شك - ليست توجيهات إسلامية لتحسين الإنتاجية الدعوية الشرعية، غير أن تلك العبارات التأصيلية في المقدمة والخاتمة تجعل القارىء العادي أمام مفترق طرق قد لا يستطيع تحديد هويتها لأول وهلة.

---

(١) المنافقون: ٩ - ١١.

❖ **المثال الثاني:**

لا يتمالك كثير من القراء توازنهم أحياناً وهم يقرأون في هذه الكتب ـ الفذة في مجال تخصصها ـ، وكثيراً ما يتسرعون في غمرة الاندهاش والإعجاب. لقلب عباراتها، أو تغيير مسمياتها وشواهدها، وتحوير مفاهيمها لتوافق مفهوماً إسلامياً بعينه أو تشهد عليه. وهذا لا يعطي الإجابة الواضحة على سؤال: ماذا نقرأ؟!.

في كتاب (الخطوات الذكية) (smart moves) لمؤلفيه: سام ديب وليل سوسمان Sam Deep and Lyle Sussman وردت اثنتا عشرة طريقة لتحسين الإصغاء. صيغ لأحداها عنواناً مقتبساً: (أمسك عليك لسانك)، وهو شطر حديث ورد عن رسول الله ﷺ في رواية. والأصح منها رواية الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: «أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك». ولا حرج في اقتطاع هذا الشطر عنواناً لقاعدة شرعية، أو لِنصوص أخرى من الكتاب والسنة شاهدة عليه وموضحة له، غير أن هذا الإجراء في اقتطاع هذا العنوان الذي يظهر ـ في ذهن القارىء لأول وهلة ـ شارحاً وموضحاً لذلك المتن الغربي لم يكن موفقاً، مهما بدا خاضعاً للتصرف من قبل المعرب ذاته. وهذا هو الاستنتاج المنطقي للعلاقة بين العنوان والمتن، وهي العلاقة المطّردة في كل كتاب آخر. وحين يقدّم مؤلف الكتاب نصيحة في هذا الباب نصّها المعرّب: (عليك بالصمت، فإنك لا تستطيع أن تتحدث وتصغي في نفس الوقت) فإنا نتوصل إلى مفهوم واضح الدلالة، واضح المصدر كذلك، ولا يحتاج بحال إلى عبارة تأصيلية تعقبه قد لا يفطن القارىء لكونها مدرجة من

خارج ذلك النص.. من كلام المعرب نفسه وهي قوله: (..والله سبحانه وتعالى خلق لك أذنين، ولساناً واحداً لتصغي أكثر مما تتكلم)[1]. ولأن الكتاب قد نُقل إلى العربية بتصرف فإن هذه الجملة ستظل شاهدة على هذا الخلل في التصرف ما دامت توصل إلى ذهن القارىء لأول وهلة إيمان مؤلفي الكتاب بهذا الخالق (سبحانه) ونسبتهما الخلق إليه وحده وهو ما قد يعطي الكتاب الغربي قوة إضافية تأصيلية لا داعي لها، مع أن إثبات هذا الإيمان الصحيح بالله.. موضوع آخر.. لا مجال للقطع به إلا بعد دراسة مستفيضة في سيرتهما الذاتية ـ ومحال ذلك لكل قارىء ـ، وكان يغني عنها ببساطة موضوعية النقل والتصرف معاً.

وعلى هذا النهج في القراءة تتوافر لدى الباحث أمثلة أخرى كثيرة يصعب حصرها.

وما يقال عن الأطروحات العلمية.. يقال عن الدورات العلمية أيضاً.. وهذا باب واسع يستحق دراسة ميدانية واعية مستقلّة، وحصراً دقيقاً لمناهج هذه الدورات، وأهدافها؛ للخروج بإجابات واضحة على سؤال: ماذا نتلقى؟! وما الأهداف والغايات التي تحققها هذه الدورات؟! وبعيداً عن العناوين البراقة التي تخرج بها هذه الدورات مثل: (كيف تكسب من الجولة الأولى) مثلاً؟!. فإن المناهج العملية والعلمية تعد فيصل القضية وقطب رحاها، ثم مناهج أولئك القائمين عليها، وطرائق تفكيرهم، وأهدافهم. ولا أنسى جواب أحد الأصدقاء الذين انتظموا في إحدى هذه الدورات حين سألته عن عدد المحاضرين فيها فقال:

---

(١) الخطوات الذكية: ص ٢٦.

ثلاثة. قلت: ممن انتفعت أكثر؟ قال: من أقلهم حظاً بالديانة، وأجهلهم بالقرآن والسنة (!!) فسألته عن السبب، متعجباً، فقال ـ باللسان الدارج ـ: لأنه يعرض النظرية الواردة في الكتب الغربية كما هي.. بدون (لف أو دوران)!! والآخران لا يتحدثان عن شيء من المنهج الغربي في المادة العلمية المحددة إلا ويعقّبان عليها بما يشهد لها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.. وأقوال السلف، وكثيراً ما يحدث الخطأ.. وكثيراً ما تحمّل النصوص ما لا تحتمل(١).

إن المعرفة الحقيقية لماهية المادة المقروءة أو المدروسة في الأطروحات الغربية ـ قبل تعريبها أو بعده ـ لا تقل أهمية عن الفائدة التي نحصّلها من جراء القراءة ذاتها؛ ذلك أنا حين نصل إلى هذا المستوى من التفكير الذي يحدد الماهية بدقة، ويتعامل معها في إطارها الخاص نكون قد خطونا خطوة إيجابية أولى في طريق الاستفادة الواعية من تلك الأطروحات فيما بعد.

❖ لماذا نقرأ؟!

سبق وأن عدّدت أصناف القراء الذين يُقبلون على هذا النوع من الكتب المعربة، وعليه فإن الإجابة الواضحة على هذا السؤال ستختلف باختلاف أولئك القراء أنفسهم؛ فالقارىء الأكاديمي المتخصص الذي يسعى للبحث عن حلول عملية محددة لقضية

---

(١) لدرجة أن يعقب أحدهم على كلام (ستيفن كوفي) حول العادات السبع التي يجب على الإداريين والقادة بها، والمصابرة في سبيل تحصيلها بقوله: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ..﴾؟! وكثيرة هي الأمثلة حول هذا النشاز من التأليف والإلقاء.

إدارية محددة - كذلك - ستختلف إجابته لهذا السؤال عن إجابة المدير العام الذي يسعى لتطوير شركته، وزيادة الفاعلية في طاقم العاملين بها، ومعرفة أفضل طرق التعامل معهم. وهي ستختلف - بطبيعة الحال - عن إجابة موظف بعينه يسعى لتطوير فاعليته الذاتية داخل نطاق عمله الوظيفي بالمؤسسة، وعن إجابة موظف آخر في وظيفة أخرى بالمؤسسة نفسها!! وكل هذه الإجابات منطقية ومعقولة لأنها توجد المرادف الصحيح لها من خلال عملها المباشر.

ولكن تبقى إجابة القطاع الأكبر من القراء المثقفين الذين لا تخاطبهم تلك الأطروحات مباشرة وهي إجابات متباينة بالنظر إلى تباين الأذواق والميول والاهتمامات.

وقد اتخذتُ جانب الموضوعية في هذا المبحث وغيره حين اعتمدت عدداً من هذه الإجابات وفق نتائج استبانة ميدانية وجهتها لصفوة عزيزة من الدعاة الذين يمارسون عملهم التربوي والدعوي في قطاعات متعددة من المجتمع ولديهم قدر من العلم الشرعي العاصم من الوقوع في الزلل بإذن الله. والطريف أن جميع الإجابات التي وردت على سؤال: اذكر ثلاثة أسباب تدفعك لقراءة هذه الكتب المعربة كانت تجمع مزيجاً من (الوعي والتبرير).. الوعي بماهية هذه الكتب ومصدرها.. والتبرير الدافع لاعتمادها في نطاق العمل الدعوي المباشر.. وهي لا تعدو حدود التبرير - في نظري -؛ لأنها تفتقر إلى الحجج والأدلة الواضحة التي ترتقي بها إلى درجة الإقناع والاطمئنان. وفيما يلي إجابات مختارة من هذه التبريرات كما ذكرها أصحابها:

- العجز عن إدارة وقتي.
- الوصول إلى الإنجاز والإبداع، وهو المقدرة على إدارة الوقت بما ينفع.
- محاولة سد النقص ومساعدتي في التفكير العلمي الصحيح.
- أنهم قد سبقونا بلا شك في حضارتهم المادية.
- الاطلاع على ما يستجد في الأساليب والنظريات الإدارية.
- العمل في المجال الدعوي على بينة.(؟!)
- التجديد والابتكار، والإحاطة والاستزادة الثقافية والعلمية.
- اعتمادها على خبرات مؤلفيها في نفس المجال.
- الترجمة الجيدة.(؟!)
- اشتمالها على نظريات جديدة في علم الإدارة، أو طرح نظريات قديمة بأسلوب جديد.
- العلم بالشيء خير من الجهل به.
- التدرج (المنطقي) في عملية التصحيح.(؟!)

❖ أنتم الأعلون.. إن كنتم مؤمنين !

إن الذي ينبغي ألا نغفل عنه ونحن نستعرض كل هذه البواعث التي تحرك كثيراً من الدعاة لقراءة هذا الطرح الغربي الجديد واعتماده.. أن المقاصد في أصلها حسنة مباركة، والنوايا صادقة إن شاء الله تعالى في خدمة العمل الدعوي، إلا أنها تظل ـ في جملتها ـ اجتهادات ذاتية، ومبررات شخصية قد تَعْلَق

بها آثار الهزيمة النفسية التي تصاحب نظرة الإعجاب والإكبار للنظريات الغربية التي تزخر بها هذه الأطروحات الوافدة.. ولا يملك البعض سوى التسليم لها واتباع قواعدها وخطواتها حذو القذة بالقذة. حتى بات عدد من المثقفين اليوم يتتبعون الضب الغربي إلى جحره، ولكن ـ هذه المرة ـ بأسلوب أكثر تنظيماً عن ذي قبل.

وتعد إجابة أحد هؤلاء الدعاة على سؤال: ما مدى حاجة الدعوة في هذا العصر لهذه المفاهيم؟ بقوله: كحاجة السمك للماء (!؟) إجابة واضحة في تأثير هذه الظاهرة على قطاع آخر من الدعاة المبهورين يمثل نسبة ليست بالقليلة في هذا المجال.

وعندما تتحدد الإجابة الواضحة على: ماذا نقرأ؟! وَ: لماذا نقرأ؟ يمكن أن تصاغ تلك المبررات بأسلوب آخر يتناسب مع (الاستعلاء الإيماني) الذي شرفنا الله به دون سائر الأمم. وهو الاستعلاء بالإيمان والعقيدة، وبالأخلاق والقيم. وحينها نفهم هذا الخطاب الرباني جيداً، وندركه حقيقة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[1]. أنتم الأعلون في عقيدتكم؛ لأنكم (تسجدون لله وحده، وهم لا دين لهم سواء، ومنهجكم أعلى.. فأنتم تسيرون على منهج الله وحده، وهم يسيرون على مناهج من صنع خلق الله.. ودوركم أعلى؛ فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها، والهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق.. ومكانكم في الأرض أعلى، فلكم وراثة الأرض التي وعد الله بها، وهم

---

(١) آل عمران: ١٣٩.

إلى الفناء والنسيان صائرون.. فإن كنتم مؤمنين حقاً.. فأنتم الأعلون)[1].

وليست القضية هنا تُقاس بالذكاء، أو بدقة الاستنباط والنظر الوارد في هذه الكتب؛ وإنما بهذا الشعور العميق بالكفاية والهداية الذي يقوّي الله به القلوب، ويُصلح به العقول. ومع ذلك الانهزام النفسي الذي يداخل جميع تلك التبريرات فلا يكاد أحد من هؤلاء الدعاة يجوّز لنفسه الانطلاق - في العمل والحركة - من قواعد غربية مهما كانت مطعّمة بعبارات إسلامية ناصعة، أو تأصيلات شرعية براقة لأنه بحمد الله محصن تجاه الغزو المباشر الصريح.. ولكنه الخلط بين نوعين متغايرين من القراءة.

❖ قراءة التوظيف الدعوي!؟

ينطلق القراء في قراءاتهم من خلال النفسية التي تحركهم، والثوابت التي تلازمهم. وعلى هذا تتباين بواعث القراءة وتختلف غاياتها، من خلال التعرف على نوعين متغايرين من القراءة: قراءة التسخير والتذليل، التي ينطلق منها الواثقون بصلاحية منهجهم الإسلامي وكماله وعظمته، وقراءة التأصيل والتكميل، التي يتميز بها أصحاب النفسيات الضعيفة المنهزمة. والأثر الذي يتولد من خلال هذا التباين في القرائتين عظيم.. وعظيم جداً، فالشعور بالكمال والعظمة يوظف جميع مراحل القراءة توظيفاً واعياً لخدمة القضية الحقيقية الواضحة.

والشعور بالنقص الذاتي علمياً وروحياً يدفع إلى إزاحة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، بتصرف.

النقص على المناهج ذاتها، من غير وعي، ويضيف إليها مناهج أخرى من جراء الانبهار وضعف الاتزان معاً.

وحقيقة الفرق ـ كذلك ـ تتضح بعد معرفة الفرق بين (الإضافة) وَ (التوظيف)، فالثاني يشعر بالتذليل والتسخير، والأول يوحي بالإعجاب والتقدير.. والإكثار من ذلك التوظيف قد يتحول هو في ذاته إلى نوع من الإضافة إذا كان منهجاً متبعاً مع كل وافد دخيل مهما كانت قيمته. والخط الفاصل بين الحدّين دقيق جداً، غير أن ما بينهما من التباين عظيم جداً جداً.. كعظمة المنهج الرباني الكامل إذا ما وقفت أمامه مناهج البشر القاصرة مجتمعة!!

ومن ثمار هذه القراءة التوظيفية أن صاحبها يكتسب من المعاني والمفاهيم التربوية ما لا يحصّله ذلك اللاهث وراء ترقيع منهجه الإسلامي بمناهج الغرب والشرق، مهما سمت درجتها. إنه سيدرك آثار جريان السنن الكونية بين الناس، وسيرى تعلّق الأسباب بمسبباتها.. فإذا بهرته آثار التجارب القيادية، والمهارات الإدارية في حياة أولئك الغربيين تيقن ضرورة التجربة والممارسة في إذكاء الملكات، وتنمية المهارات، وبناء الذات.. وعلم أنها سنة تجري على المؤمن والكافر سواء بسواء.. فكل من أخذ بالأسباب المتوافرة، وتملّك مفاتيح العلم المادي، ووسائل عمارة الأرض وصل إلى غايته، بقدر ما بذل واجتهد. قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ...﴾ إلى قوله جلَّ شأنه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾(١). وقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا

(١) الإسراء: ١٨ـ ٢٠.

﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾[1]. ولهذا لا تجد هذا النوع من القراء إلا متحسراً لواقع كثير من الدعاة الذين قد يقضي الواحد منهم في دعوته أضعاف ما يقضيه ذلك الغربي في مؤسسته، غير أنه يظل عاجزاً عن إدراك أهداف دعوته، وغاياتها، ولا يقدر على مواكبة أجيالها، والأخذ بها شيئاً فشيئاً إلى مراتب الكمال والعظمة، بخلاف ذلك الغربي الذي عاش تلك السنوات يوماً فيوماً، ومرحلة مرحلة، وهدفاً هدفاً ثم خرج بهذه التجارب والنظريات الفذة ـ في بابها ـ.

ومن القناعات التي يحصّلها ذلك الذي يقرأ بهذه النفسية التفريق بين العلم والعالم، وبين النهج والناهج، فتجده يحكم بفساد عمل الكافر حتى في ما يتقنه من أمور دنياه، ثم لا يمتنع عن قبول الحق الذي يصدر عنه، لكنه يذلّله في قراءته، ويحدد معالمه التي لا تمس منهجه، ولا تشوّش قناعته، ثم يسخرها بوعي في بناء ذاته، قيادياً وإدارياً، من غير الخوض في تكميل، أو تأصيل أو إضافة لمنهجه الكامل. بل إن الأمر أعجب من ذلك.. فقد رأيت وسمعت ممن داخلته النفسية الضعيفة أمراً عجيباً حتى إن أحدهم ليتكلّف في إيجاد المبررات والأعذار لأصحاب هذه الكتب الغربية إذا ما عرضت العبارات الأخلاقية الساقطة أو الشواهد والأمثلة المشينة والتافهة التي لا تتناسب ومكانة ذلك الكتاب الاجتماعية وشهرة صاحبه. والقارىء إذا أدرك مكامن النقص، وتبيّن جوانب الخلل فإنه لا يتكلف هذه الأعذار، ولا يوجد المبررات لهؤلاء المؤلفين، وإنما تتولد عنده قناعة أخرى مغايرة

---

(١) هود: ١٥.

تماماً لقناعات أولئك المرضىٰ من القراء.. إنه يرى آثار ذلك الفساد الذي يعتقده يقيناً في مناهج الكفار، من خلال زفراتهم وكلماتهم وحروفهم، بل وعلامات الترقيم في مؤلفاتهم التي يدرك فيها حياة كامنة لا يدركها صاحبه ذاك. مستشهداً بكلام ربه الحق وبسنة نبيه ﷺ ومستأنساً بكلام أهل العلم الصادقين. مردداً بلسان حاله ومقاله قول خالقه جلَّ وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

وهذا الصنف من القراء يدرك أثر الإيمان الحق في الأخلاق والقيم، فإذا وقع على خلق حسن أو صفة محمودة جاء التنبيه عليها في هذه الكتب، مثل صفة الوفاء والصدق، والأمانة وحفظ العهد والوعد، فلا ينساق مادحاً ومطرياً كما ينساق غيره، ولا يرى لكافر على مسلم فضل ولا تكريم مطلق، ما دام كافراً بالله ورسله. ولا يقارن كافراً بمسلم في صفة بعينها، أو أدب بذاته؛ لأنه يدرك أن خيرية هذا كامنة في أصل إيمانه بالله جلَّ شأنه وعبادته له وإن تخلّف عن بعض الكمالات أحياناً، ويدرك أن شقاوة ذاك كامنة في أصل جحوده ونكرانه، مهما تحلّى به من آداب وشمائل. قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. سواء كان الإعجاب به لفكره أو لعقله، أو لدماثة خلقه وشمائله. ومع ذلك فهو يثني على الصفات الحميدة لكونها

---

(١) البقرة: ١١، ١٢.

(٢) الحجرات: ١٧.

مما فطر البشر على حبه، وتألفه طبائع الناس السوية وعاداتهم. ويشير إلى الجميل والإحسان ولا ينكره، ويثني على الخلال الحميدة من حفظ الوعد والعهد ونحوها ولا يجحدها، مع قناعته بأن تلك الأخلاقيات الغربية الحسنة في ظاهرها ما هي إلا أخلاقيات نفعية ـ في الجملة ـ تنطلق من باب تبادل المصالح مع الآخرين، لا علىٰ أساس كونها شمائل كمال، وقيماً فاضلة في ذاتها ـ غالباً ـ. وكثيراً ما تولّد هذه القناعة إدراكاً بعيد النظر حال المقارنة بين الواقع والمثال في حياة عقلاء الغرب الذين ينظرون إلى هذه الأخلاقيات على أنها صفات (كمال بشري) لمجتمع مثالي مفقود ـ عندهم ـ.

ولا يعدم وجود أفراد آخرين في الغرب يلتزمون هذه المبادىء لكونها من الأخلاقيات التي يجب أن يتصف بها الإنسان؛ ليتميز بها عن سائر العجماوات. وهذا ما قد يجده القارىء المنصف في واقع أطروحات عدد من المفكرين والعقلاء، الذين أبصروا مدى انحطاط الحضارة المادية في مستوى الأخلاق والقيم، وسعوا إلى الابتعاد عن تروس الآلة التي أصبحت تطحن كل شيء في الغرب، حتى الإنسان، وتقضي على كل معايير الفضائل والشمائل التي كرّمه الله بها.

وحتى في غمرة الانبهار بعبارة غربية مثل: (هذه الدراسة ما هي إلا حصيلة خبرة في الإدارة تدريساً وتدريباً واستشارة طيلة خمس عشرة سنة..) كما جاء في كتاب غربي سيار، فإن الفرق بين أثر القراءتين يتضح جلياً في ردة الفعل الانهزامية للأول، التي تتميز بشدة التعلق والإعجاب والثقة والاطمئنان لهذه الخبرة الطويلة، وبين ردة فعل أخرى للثاني لها نظرة أعمق وأكثر

نفعاً. . إنه يحاسب نفسه، وينظر في واقع دعوته فيتحسر على أولئك الذين يتجاوز عمرهم الدعوي عشرات السنين ولكنهم غير قادرين ـ حتى الآن ـ على تحديد الهوية الواضحة لدعوتهم التي تعتمد على الاتّباع، وتتصل بالسند المشرق إلى الرعيل الأول. . ويتحسر على هؤلاء عندما يقفون على أبواب الغرب بعد هذا العمر الدعوي الطويل يتكففون منهم نظرياتهم، ويستجدونهم مفاهيمهم حتى يقيموا عليها دعوتهم، التي لم يفهموا ـ حتى الآن ـ مراحلها، ولم يدركوا خصوصيتها، ولم يتبصروا حتى الأخطار المحيطة بها!! على أن غيرهم عاشوا مهامهم المادية مرحلة مرحلة وهدفاً هدفاً، حتى استخرجوا احتياجاتها، وأدركوا أسرارها، وخرجوا بمثل هذه المفاهيم القيادية والإدارية.

والذي يعرف ماذا يقرأ، ولماذا يقرأ يتطلع دائماً للأمام بنور الإيمان، وبهداية الوحي المعصوم. ولا تراه إلا مستعلياً بإيمانه، مستمسكاً بثوابته، مدافعاً عن كل شرائع دينه صغيرها وكبيرها. متسائلاً عن غايات العلوم وأهدافها، فلا تخدعه تراكيبها وألفاظها، ولا يأسره بهرجها. إنه يعلم يقيناً أن جميع العلوم الإنسانية أو المادية التي قامت عليها حضارة الغرب أو الشرق ما هي إلا وليدة الحاجة التي سعى إليها البشر أنفسهم، بالاعتماد على السنن التي جعلها الله وقدرها، وإنها لم تصل إلى ما وصلت إليه الآن إلا بتعاقب الجهود، وتكامل الهمم، وتواصل البناء. وكل حقيقة مادية اليوم كانت فرضية أو نظرية بالأمس. وكل علم بهر العالم شرقاً وغرباً ما كان إلا فكرة تخامر رأس فرد أو أفراد. والذي يقرأ بهذه الثقة يعلم أن كل علم وفن ليس حكراً على غاية أهله الذين نشأ فيهم، وليس مقصوراً على

أهدافهم، فلو أنه نشأ بجهود مؤمنة، وصُنع على أعين موحدة، بأيد متوضئة لكانت له غايات أكمل وأهداف أعظم، ولما ظهرت آفات العلوم التي نشاهدها في هذا العصر، يوم أن سلطت عليه عقول أخرى، بأهداف متباينة لا تبصر إلا المادة، ولا تؤمن إلا بالمنفعة.

إن مجرد الاقتناء المتعجل لهذه الأطروحات، مع عدم الحرص على إدراك الكيفية في القراءة، أو الأسلوب الأمثل في التروي قبل مخاطبة الجمهور يعد جريمة ثقافية معاصرة يجب الحذر منها. وإن معرفتنا الحقيقية بأهمية السؤال: لماذا نقرأ؟ ثم أهمية الجواب عليه فيما بعد هو خطوة موفقة على الطريق الموصل إلى: الاستعلاء بالإيمان، وإلى إدراك شرف الرسالة العظيمة التي نحملها، والأمة الشاهدة التي ننتمي إليها. ولا أنسى مقولة أحد أولئك الدعاة الذين شغفوا باقتناء هذه الأطروحات مع البحث عن أفضل الوسائل لعرضها وتطبيقها في دعوتهم حيث قال وهو يقلّب مجموعة من الكتب التي اشتراها من معرض للكتاب: (إن أهم ما ينبغي أن أقوم به في المرحلة القادمة أن أقوم بتدريب عدد من الأفراد الذين معي فن الإدارة وأصول التعامل من خلال ورشة عمل مكثفة تعتمد على هذه الكتب)!! وعلى الرغم من نبل المقصد إلا أنه أغفل حينها سؤالين مهمّين كان يجب عليه استحضارهما والإجابة عليهما: أي نوع من المفاهيم سوف ينقلها إليهم، وبأي لسان سوف يعبّر عنها؟! وهذا ما يقودنا للحديث عن ظاهرة تربوية جديدة باتت تغزو محاضن تربية الأحداث لتنافس كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في صياغة العقول، وتشكيل القناعات.

❖ رفقاً بـ (القادة) الأحداث !!

لا أعظم من التأكيد على سلامة الابتداء في نشأة الحدث ولا أغلى من ضرورة منهج السلف رضي الله عنهم في إكسابه أدب الطلب، والتقدير والإجلال للنصوص، وتعظيم الشريعة، والارتقاء شيئاً فشيئاً حتى يصلب العود، ويستقيم الطريق.

ومتى ما أصبح من مناهجنا المستقبلية في التربية إعداد جيل قادم تتحدد أمامه الوجهة الإدارية سلفاً، ويعد بعناية وفق المهارات الإنسانية العامة التي يلتقي عندها جميع البشر، وتظهر أمام ناظريه النتائج في خطوات الإعداد الأولى اعتماداً على مرجعيته السابقة لمعايير التقييم والتحليل الذي يخرج به بعد دراسات مكثفة ودورات متعاقبة.. فإن ذلك نذير مسخ قادم لا يعوّل عليه في مكرمة، ولا يعتمد عليه في مهمة إلا مهمة التغريب والعولمة التي لن تتردد في إمداده بآخر مستجدات العلوم، ومهارات الفنون المادية والإنسانية. وأي خير في دورة للأحداث حول الإبداع والنبوغ والإدارة لا يذكر الله تعالى فيها، وفي كتاب لا يكثر فيه من الصلاة والسلام على رسوله ﷺ، فضلاً عما تكتنفه من الآفات والمحاذير!!

وخطورة هذا النهج المادي في التربية المعاصرة للشباب في سن مبكرة يكمن - في نظري - من خلال أمرين: **أولهما**: إبعاد الشاب الصالح عن الطريق الصحيح الذي يحتاج إليه فعلاً في هذه السن المبكرة من معرفة أصول الدين وأركانه، وطلب العلم الشرعي الذي لا بد منه، وحفظ القرآن والسنة، والتعرف على أعلام الأمة والتأدب معهم من خلال قراءة سيرهم ودراسة

مآثرهم، وهذا ما لا يروق لأتباع المدرسة المادية التي تأثر بها البعض فأصبحوا يعطلون الشاب عن كل ذلك بحجة أنه مما لا يطيقه كل أحد، وأنه مجرد فرع واحد من فروع النبوغ والذكاء الإنساني التي منها: الاجتماعي والفني والعقلي.. الخ. وقد رأيت منهجاً عملياً غربياً في القيادة وإدارة الأعمال وضع خصيصاً لشاب حدث لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، ولم يتلق شيئاً من التربية الإيمانية أو التعبدية بعد، ولم يحفظ شيئاً من القرآن، ولا يحسن التعامل مع السنة (!!) بحجة أن هذا المنهج القيادي يتناسب مع مواهبه وقدراته؟! ويقرر أحد هؤلاء المثقفين إخراج ولده من حلقة لتحفيظ القرآن الكريم بحجة أنها تغذي فيه جانب إبداعي واحد.. هو مجرد الحفظ والتلقين بينما هو بحاجة إلى تنمية جوانب إبداعية أخرى خارج الحلقة؟!؟

ونحن مع شدة حاجتنا لمهارات التخطيط والقيادة والإدارة وسائر العلوم التقنية النافعة أشد حاجة إلى تحديد معالم الهوية المسلمة الحقة التي تتسلّم مثل هذه العلوم وتمارس هذه الفنون.. إننا أشد حاجة إلى غرس مفهوم الكفاية بالإسلام وحده، وهي الحاجة التي تفوق حاجة السمك للماء، لا كما يقول ذلك المهزوم أمام مطارق الحضارة الغربية الجوفاء. وصدق الله القائل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

---

(١) الأنعام: ١٢٥، ١٢٦.

الثاني: الانحراف في مفهوم التكريم الرباني وفي معايير التفضيل. حتى يكرّم من ليس بأهل، وحتى يأفل نجم العلماء، ويزول أثرهم.. وهم حملة الشريعة وورثة الأنبياء وأعلام الهدى؛ لأنهم ـ وفق معيار التكريم المادي ـ لا يمثلون سوى مرجعية شرعية تقليدية، لا أثر لها في التربية، ولا قيمة لها في التغيير والقيادة، ولا يمثلون سوى جانب واحد من جوانب الإبداع الذي تتنازعه جوانب أخرى قد تكون أهم وأولى في معركة الصراع المعاصر مع الحضارات المادية. وبهذا يدور الزمان دورته ليظهر أهل الكلام والرأي من جديد وتكون لهم الصولة من جديد لكن بمصطلح آخر وبأسلوب حديث قد لا يعتمد هذه المرة على تأويل الصفات أو تعطيلها!

ولقد ظهرت في الآونة الأخيرة ـ مع بواكير هذا النهج المادي ـ مظاهر الحفاوة بنوع معين من الدعاة وهم أولئك القادرون على التخاطب الدعوي بشفرة اللغة القيادية الراقية، المؤهلون للحديث بلسان الغرب المادي في مصطلحاته ونظرياته، مع قلة البضاعة في علوم الشريعة، وعدم القدرة على فهم نصوص الوحي أو مسائل الدين.

إن أبرز سمات المنهج المادي المعاصر الذي أصبح يغزونا في عقر دورنا ومدارسنا ووظائفنا.. (الجرأة). وهذه الجرأة تتخذ صوراً عدة لعل من أظهرها اعتماد أسلوب (الصراع من أجل البقاء) الذي تولّد في واقع الحياة الغربية والذي قد يظهر في صورة صراع حقيقي بين الطبقات، أو معنوي في المفاهيم والنظريات؛ ذلك أن النجاح في الغرب لا يكتب غالباً إلا لأولئك

الذين بذلوا طاقات فذة، واستطاعوا الصمود والمقاومة في معترك الحياة الضارية ـ كما سيأتي في مبحث قادم ـ.

ولهذا ينشأ الغربي انعزالياً، مثابراً، متحفزاً للمواجهة في أي وقت، مُتهيِّئاً للمقاومة وللظلم منذ نعومة أظفاره. وبهذا ينطبع أثر التمرد والجرأة في حياته، على كل شيء، حتى على الأخلاق والعقائد والقيم إذا عارضت طموحاته وآماله.

والتربية في ظل الإسلام بعيدة عن كل ذلك، وأمر النشأة الأولى للشاب في ظل منهج السلف يختلف تماماً عما هي عليه في الغرب ـ كما سيأتي ـ.

ولم يحدث أن قرن النجاح في الإسلام بمعاييره المادية البحتة على أهميته؛ لأن ذلك مما لا يستطيعه كل أحد، وكلٌّ ميسّر لما خلق له؛ فالواعظ الذي مكّن الله له في باب التذكير بالآخرة وربط القلوب بخالقها، وفق السنة في هذا الباب، قد استجمع معايير النجاح كلها وإن لم يُدرك أبعاد عملية التخطيط أو الإدارة. وذلك المجاهد الآخذ بعنان فرسه، لا يسمع هيعة إلا هب ملبياً لنداء طلب النصرة، ولا يعلم بانتقاص للدين أو انتهاك لحرمات المسلمين إلا وبذل الوسع في ماله ونفسه.. إن كان في الساقة كان في الساقة وإن كان في الحراسة كان في الحراسة قد استجمع معايير النجاح كلها ـ في الإسلام ـ وإن لم يفقه ما يدركه قائده من الخطط الاستراتيجية، أو النظم القيادية.. وهكذا هو العالم العامل الذي أوقف عمره للتعليم وتبليغ الشريعة.. وهكذا هو التاجر الصادق الذي أخلص لله نيته وأتقى الله في ماله؛ فأخذه من حله وأنفقه في حله.. وهكذا هو الداعية المبارك الذي

أوقف نفسه لله، صبراً ودعوة وجهاداً.. كلٌ قد حقق النجاح والإبداع فيما يسّره الله له.

فإذا استجمع المرء مع أنواع الكمالات هذه مهارات أخرى مكتسبة كان أنفع لنفسه وأقوى لتخصصه، لكنها ليست كل شيء كما هي عليه بمنظار الماديين.

إننا لسنا بحاجة إلى تغذية الأفراد بتربية مادية إبداعية على مهارات وقوانين ونظم جامدة ليس فيها روح الإيمان، ولا آثار التقوى والورع والزهد، والخوف من الله تعالى. ويوم أن نؤمن بهذه المعايير المادية في التقييم، وبالنظرة الآلية في التخطيط، بمعزل عن التقوى والتزكية وصلاح القلوب، فإنه يحق لنا أن ننسب دعوتنا إلى أي شيء عدا نسبتها إلى منهج أنبياء الله الكرام ومن تبعهم بإحسان. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

ولطالما تطلعنا إلى من يستجمع الإبداع التربوي من معين منهجنا الإسلامي في هذا العصر، بمعزل عن أسلوب الاستخذاء أو التطفل على مناهج الغرب ونظرياته، وإنما بتقليب كنوز الكتاب والسنة وصفحات التاريخ المشرقة لهذه الأمة عبر نظر صحيح ثاقب، وبعقل صريح صائب، مكلل بسلامة المعتقد، والأمانة في النقل، والإنصاف في الحكم، والوضوح في الغاية.. وما أقل هذ الصنف من الدعاة والمربين، وما أندره؛ لأنك سريعاً ما تفجع بعمق هذا الغزو الحديث حتى في أكناف عقول هذا الصنف أيضاً وطيات تفكيرهم ومنهج تعاملهم. وهم مع ذلك لا يقصدون إلا الإصلاح ولا يطلبون إلا الخير كذلك الداعية المبارك

الذي قام بشراء خمسين نسخة من كتاب معرب سيار في الإدارة ثم أهداه إلى خمسين من طلبة العلم والدعاة الأحداث الذين لم يتعودوا بعد على مثل هذا الطرح الغربي الجديد!؟.

وليت شعري كم من هؤلاء الخمسين من تمالك نفسه أمام هذا الكتاب، واعتدل فكره، واعتمد القصد في النظر ثم في الاستفادة من هذا الطرح الغربي الجديد؟! ولا نشك حتماً في أن هذه الجواهر الخمسين من جواهر الصحوة ليسوا كلهم ممن يحتاجون هذا المستوى من الفهم والتخطيط؛ لأنهم ليسوا بعد على درجة سواء من القناعات والفهم الصحيح، والاتزان الفكري.. أفليس من الحكمة إذن أن يقدم لهم هذا المفهوم الإداري بأسلوب أصيل آخر بعيداً عن طريق الرطانة والعجمة والتشويه؟! أو أن يقدم لهم ما هم بحاجة إليه أكثر من غيره في هذه السن من كتب أهل العلم، وأسفار السنة وتراجم أهل الإسلام؟!

إن لنا الحق الكامل في طرح مثل هذه التساؤلات وغيرها.. ما دمنا نسعى إلى وضع الإطار الصحيح حول التربية الإسلامية الصحيحة، والإدارة الإسلامية الصحيحة، والنظر الإسلامي الصحيح المستنير بنور الوحي.. وليس ذلك تخلفاً ولا تحجراً ولا تقوقعاً إنما هو استعلاء الإيمان الذي أكرمنا الله به وحرمه كثيرين غيرنا، وإنما هي الكفاية بالإسلام وحده.. فحسبنا الله وما أنزل علينا من الهدى وما أكرمنا به من ميراث الوحي ونور الرسالة. وإن كنا لا نمنع التوظيف المتعقل من تجارب الأمم ـ كلها ـ إذا وافقت الحق والصواب. لكن هذا التوظيف ليس حقاً مشاعاً لكل أحد أياً كان، ولا هو وسيلة لخلط الأوراق، أو تجاهل الفوارق، أو تعميم

نقاط الالتقاء. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[١].

واللبس هو الخلط، يقال: التبس عليه الأمر: إذا اختلط عليه الحق بالباطل. وأحال سبحانه هذا الخلط إليهم، فكأنه قال: احذروا هذين الشيئين: أن تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وتزيين الأمر للناس، وتشويه الحقائق عليهم. واحذروا كذلك أن تكتموا الحق وأنتم تعلمون ذلك بما أنار الله به بصائركم، وبما علّمكم ما لم يعلّم غيركم[٢]. والآية مع كونها نزلت في اليهود إلا أن فحوى الخطاب فيها، أو لحنه يتناول هذه الأمة ـ كما ذكر الإمام الشوكاني رحمه الله ـ.

وكثيراً ما يظهر هذا الخلط في الأوراق لدى كثير من القراء الذين لا يعرفون كيف يقرأون، ولا يحسنون التفريق بين المتناقضات، أو الجمع بين المؤتلفات.

وهذه هي مادة الرسالة الثالثة بعد أن تناولنا المقدمة العامة والتعريف بأنماط القراءة لهذا النوع من الكتب. وسوف أركز في هذا الجزء على ذكر شواهد مختارة من ركام الأمثلة على القراءة غير المتأنية لهذا الطرح الغربي المعرب، وأذكر طرفاً من تأثيره المباشر أو غير المباشر على الواقع الدعوي. وهي قراءات كثيرة وأمثلة متظافرة يصعب حصرها في هذه الدراسة الموجزة، لكنا نكتفي فيها بضرب الأمثال والشواهد والعاقل تكفيه الإشارة. والله الموفق للصواب.

---

(١) البقرة: ٤٢.

(٢) فتح القدير: للشوكاني، بتصرف، ١/٩٠.

قراءات مختارة!

١ـ ستيفن كوفي يعلم ولده أهمية العمل!!

(«في مدرج كبير ضم أكثر من ٣٠٠ ألف أميركي رفع ستيفن كوفي صوته متسائلاً: هل تحفظون القاعدة الأولى من قواعدي السبع؟! فيردد الحشد بصوت واحد: نعم. إذن اسمعوني إياها قال كوفي. وبعد قليل يتناغم صوت واحد كأنه البحر الهادر داخل القاعة مردداً القاعدة الأولى.. وتعلو ابتسامة عريضة على وجه كوفي». هل تعلمون الآن لماذا تفوقوا علينا، ولماذا نحن متخلفون حتى الآن!؟ إن الجواب ببساطة لأننا حتى الآن لا نحفظ شيئاً من هذه القواعد السبع)؟! هكذا بدأ محاضر مسلم مبهور نقاشه مع طلابه في إحدى الدورات الإدارية التي باتت تمثل غزواً جديداً آخر يتخرج منها جيل مثقف جديد محسوب على الدعوة، بينما يمثل في الواقع خطراً داهماً عليها.

وإذا جاز أن يقال عن كوفي (الرجل الغربي) أنه ادعى الألوهية في إشاعة ساذجة تمثل مدى تعلق الغرب بأفكاره وإقبالهم على تطبيقها واعتمادها في حياتهم اليومية.. فلا يحق أن ترسم هذه الأفكار البعد التأثيري ذاته في مناهجنا ولا في أفكارنا

وتصوراتنا مهما بلغت جودتها. وبين يدي أمثلة عديدة لقراءات لم يحالفها الصواب في كتاب «العادات السبع للقادة الإداريين». غير أني سأكتفي بقراءة واحدة فقط تبين المقصود وتوضح شيئاً من المراد[١]. يقول كوفي في مقدمة الكتاب: «... أريد أن أعلم أولادي قيمة العمل. لكنّ دفعهم لعمل أي شيء يقتضي أن أشرف على كل حركة.. وأن أحثهم، وهم يتذمرون في كل خطوة يخطونها. ومن الأسهل لي كثيراً أن أقوم بالعمل بنفسي.. فلماذا لا يستطيع الأولاد القيام بعملهم بطواعية ودون أن يذكرهم أحد بذلك..»[٢].

كلام عادي وبسيط يدركه حتى رجل الشارع الذي لا يحسن تركيب الجمل، أو التفريق بين النثر والشعر. كما يدركه بصورة أرقى وأرقى ذلك القارىء الذي يعرف ماذا يقرأ واتضحت أمامه المرادفات الحقيقية لمصطلحات مهمة مثل: (قيمة العمل)، (العمل ـ في ذاته ـ)، (الحث على العمل)، (الدافع للعمل)... الخ. ولا يحتاج هذا القارىء لذكاء أكثر من مجرد هذه المعرفة الأولية بماهية الكتاب وقارئه ليدرك طبيعة هذا (العمل)؛ لأن الكتاب برمته ما هو إلا شاهد حي لهذا التحديد، بدءاً من عنوانه وانتهاء بخاتمته. إن هدف الكتاب ـ كما وضعه صاحبه ـ مساعدة الموظف ومدير المؤسسة لزيادة الفاعلية داخل العمل المؤسسي الذي يتناول ذلك المرادف الواضح لماهية العمل الإداري على

---

(١) يمكن مراجعة بقية الملاحظات في أطروحات خاصة تناولت نقد الكتاب مثل ما قام به د. خالد الغيث وغيره.

(٢) العادات السبع: ترجمة هشام عبدالله، ص ٨.

اختلاف مهماته، وتنوّع أهدافه وبرامجه. وخير معين على البدء بتأكيد هذا المفهوم لدى القارىء إبراز المؤلف هذا التساؤل الأولي الذي اختاره من صلب محيطه العائلي.. وفي شخص ولده الذي يدّعي أنه لا يعرف حتى الآن قيمة العمل.. فإذا استقر في ذهنك أيها القارىء هذا التمهيد ناسب أن يبادئك المؤلف بسرد مهارات رآها مناسبة لمساعدتك أنت على إنجاز عملك الخاص بصورة أفضل. وحتى يكتسب الموضوع بعداً تشويقياً أكثر فقد ساق المؤلف مهاراته على هيئة قواعد ونظم مباشرة أكثر تأثيراً وإقناعاً تعتمد على أسلوب: (افعل) و (لا تفعل).

ولا جديد حتى الآن!! فالبعد الموضوعي واضح، كما أن هدف المؤلف أشد وضوحاً كذلك. غير أني اطلعت على فهم عجيب، وتأصيل أعجب من أحد هذا الصنف من القراء الذين لم تتحدد معالم القراءة الموضوعية لديهم بعد. ذلك أنه حاول جاهداً تقريب كلام (كوفي) السابق إلى السامعين ـ الذين تفاوتت مداركهم وتباينت عقلياتهم ـ معتمداً على وسيلة تأصيلية غريبة لهذا التقريب تنص على وجوب العمل في الإسلام. واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. وقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**..» الحديث[2]. وانطلق كالبحر يستشهد بمشتقات الجذر (ع م ل) في كلام العلماء والسلف ومُلح الأشعار، ثم سرد مبحثاً لطيفاً في وجوب اقتضاء العلم

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) متفق عليه.

العمل من كلام الخطيب البغدادي رحمه الله؟!؟

وبهذا اكتسب ذلك النص الغربي قدراً كبيراً من الحصانة الشرعية بهذا التصرف المتعجل الذي لا يفرّق بين الليل والنهار، ولا بين المشرق والمغرب، ولا بين الظلمة والنور!! والخلط بين الأوراق واضح جداً في هذه القراءة المشوّهة، ذلك أن فيها تحميلاً للنص فوق ما يحتمل وإعطاؤه مكانة فوق ما يستحق. وما يكون (كوفي)، ومن يكون؟ حتى يصبح كلام الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله مجرد حاشية لجزئية واحدة من جزئيات كلامه، وحتى يكون كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ مجرد شاهد وشارح لقواعده؟! ثم أين مفهوم العمل في الإسلام بشموله وعظمته، وبكماله وجلالته من هذا المفهوم الغربي المادي على لسان هذا الغربي أو غيره؟!

إن الذي لم يدركه هذا القارىء ـ في غمرة انبهاره ـ أن العمل في القرآن لم يذكر ـ غالباً ـ إلا مقترناً بالصلاح والتقوى والإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ..﴾[2]. ونحوها من الآيات الكثيرة الأخرى التي تربط كل مفهوم للعمل بهذا الضابط العظيم.. الصلاح والإيمان، والجزاء في الآخرة. وصلاح العمل لا يكون إلا بحسن القصد، وبسلامة الاتباع. وهكذا الشأن في الأحاديث النبوية المباركة التي ترد في معرض التأكيد على إخلاص القصد

---

(١) الحج: ٥٠.

(٢) النحل: ٩٧.

لله تعالى والتحذير من إرادة غير وجهه جلَّ شأنه في العمل.

وحتى لو كان الفهم الأولي لمصطلح (العمل) منصباً في تلك العملية الإدارية المنظمة التي قد تفهم من سياق هذا الكتاب الغربي السيار فلم يكن يصح أن تورد الإبل هكذا.. من غير خطام ولا زمام. ومع أن نظرة متأملة في كمال التشريع وسموه في باب النظام والتخطيط سواء في باب العبادات أو المعاملات أو المغازي ونحوها، ثم مقارنته بطبيعة التنظيم المادي البشري في هذا الكتاب ونحوه، تجعل الباحث المسلم على نور من ربه لأن البون بين هذين العملين المنظمين واسع جداً جداً.. فأين الإحسان، والصدق، وأين الإخلاص والتقوى؟ وأين الغاية من الغاية، وأين الباعث من الباعث.. بل أين الثمرة من الثمرة؟!

ولربما اختلط مفهوم (إتقان العمل وإحسانه) في الكتابات الإدارية الغربية (بإحسان العمل وإتقانه) في الإسلام لدى بعض القراء من هذا الصنف أو بعض المؤلفين في المفاهيم الإدارية أو القيادية في الإسلام.. وعليه يكفي أن نعلم أن إحسان العمل في الإسلام مقترن بصلاحه، وصلاحه كثيراً ما اقترن بالإيمان في كتاب الله تعالى. ولا يُقبل من كافر عملاً عند الله تعالى حتى يؤمن بالله وحده وبملائكته وكتبه وجميع رسله. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[2].

---

(١) الكهف: ٣٠.

(٢) النور: ٣٨.

ولا يشترط في العمل الصالح أن يكون محصوراً في الشعائر التعبدية المحضة فحسب؛ لأن الأعمال الصالحة على ضربين: قسم يقرب إلى الله تعالى في ذاته، مع أصل مقصده كشعائر التعبد من صلاة وصيام، وذكر لله تعالى، وطلب العلم الشرعي، والصدقة والجهاد ونحوها. وضرب آخر لا يقرب إلى الله تعالى في ذاته وإنما لصلاح مقصده، والنظر في غاياته الصالحة التي يراد بها وجه الله تعالى.. ويدخل في ذلك سائر الأعمال والعلوم والمعارف الدنيوية المباحة. وصلاح القصد عليه مدار قبول العمل وعدم قبوله حتى وإن كان من أشرف الأعمال، وأكمل الهيئات المقربة إلى الله تعالى ظاهراً. فكم من عمل من أعمال الطاعة، وشعيرة من شعائر العبادة أفسدته النية وقللته، وكم من عمل للدنيا منقطع في ذاته عن الآخرة أصلحته النية وأوصلته وكثرته. وعلى هذا يكون فهم الحديث النبوي الشريف الصحيح الذي سيق اعتسافاً لكي يصبح شاهداً لذلك النص الغربي المعرب في قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى..**» الحديث[1].

٢ ـ الإشراف.. دعوة لا مهنة!!:

على الرغم من تنوع مسؤوليات المشرفين.. إلا أنهم يشتركون جميعاً في مهمة واحدة هي: (إدارة الأفراد الذين يعملون لديهم) وبخاصة في المؤسسات والمنظمات العمّالية التي يظهر فيها هذا النوع من التسلسل الإداري، وتتحدد ملامحه

---

(١) متفق عليه.

وأهدافه. وعلى هذا يمكن اعتبار المشرفين - في الحقيقة - هم الجهة المباشرة الأولى المسؤولة عن أولئك العمال.

ولكثرة تناول هذا المصطلح في الآونة الأخيرة، ودخوله حيزاً أوسع في مجال التطبيق، فقد تواتر ذكره في جميع الكتب الإدارية والقيادية المعربة تقريباً. وتعددت بالتالي مجالاته وطرق التعريف به، والتنويه بصلاحياته وأساليبه ووظائفه. ولعل أوجز وأدق تعريف وقعت عليه من بين ركام الكتب الأخرى التي تناولته، هو ذلك التعريف الذي أورده (د. جيري ل. جراي) Jerry L. Gray في كتابه واسع الانتشار: (الإشراف.. مدخل علم السلوك التطبيقي لإدارة الأفراد) (Supervision: An Applied Behavioral Science Approach to Managing People) وفيه أن: (الإشراف هو إنجاز الأعمال من خلال الآخرين)[1].

ولأني كنت ولا أزال أعتقد أن كثيراً من مشاكلنا الدعوية المعاصرة ما هي إلا نتاج طبيعي لذلك التحوير الخاطىء للمفاهيم الغربية - إدارية كانت أم تربوية - لتوافق أصول التربية الإسلامية ومناهجها، فإن مفهوم الإشراف يعد من أشد هذه المفاهيم فتكاً، وأعظمها أثراً بالإضافة لمفهوم الفروق الفردية. فالإشراف يخاطب الرواد ويُعنىٰ بصياغة عقول النخبة لضبط مسار التنظيم والمتابعة، ومفهوم الفروق الفردية يشكّل بدوره المعايير المطلوبة في المدعوين ويُعنى بطرق التعامل معهم كل على حدة[2].

---

(١) ترجمة د. عبداللطيف هوانة: مطبوعات معهد الإدارة العامة، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الحاجة ماسة لطرح هذين المفهومين من جديد في ساحة العمل الدعوي والتربوي بأسلوب علمي لكن أكثر أصالة عما هو عليه الآن.

إن المرحلة الأولى في باب الاستفادة من كتب الإشراف عموماً ـ وهذا الكتاب على وجه الخصوص ـ تكمن في تحديد نطاق التخصص بشكل دقيق، ثم تحديد إطار الاستفادة بشكل أدق. وفي كتاب (الإشراف) يتجول القارىء مع (المشرفين) وكيف يقضون أوقاتهم في العمل، ومع من يتعاملون، ونوعية القرارات التي يتخذونها، والمشكلات التي يصادفونها في طيات ٦٨٣ صفحة هي محتوى هذا الكتاب الأكاديمي المعرب الذي يقدّمه (جراي) بدقة ومهارة فائقتين في مجال تخصصه.

وعلى الرغم من أن الكتاب يتناول إدارة (الأفراد)، إلا أن هذا التصور لنوعية (الأفراد) يتحدد بوضوح عندما نعلم أن الكتاب ـ كغيره من كتب الإدارة الأخرى ـ موجه في الأصل للمشرفين في الشركات والمؤسسات، وللباحثين عن الطرائق الناجحة التي تؤهلهم لمهمة الإشراف في هذه المؤسسات. وهذا ما يؤكده المؤلف[١]، في الصفحات الأولى من كتابه، وبالأمثلة المتعددة التي يسوقها في معرض الاستشهاد الافتتاحي لكل فصل من الفصول. فهو يعرض مواقف وخبرات قام بها عشرات المشرفين خلال عملهم الوظيفي).

وفق هذا التصور، ومن خلال هذا المفهوم للإشراف (Supervision) يجب التعامل بدقة مع جملة واسعة من الألفاظ الاصطلاحية التي وردت في الكتاب مثل: الحوافز، الإنجاز، الأفراد، المنظمة، العمال، القرارات، الدور الإيجابي، الإنتاجية،

(١) وهو محاضر في كلية الدراسات الإدارية في جامعة مانيتوبا بكندا.

العلاقات الإنسانية، المراقبة، الخبرات... والعديد من المصطلحات الأخرى.

وهذه المصطلحات تتكرر كثيراً في غير هذا الكتاب من الكتب الإدارية المعربة التي تتناول مهمة الإشراف (الوظيفي). وهو ما يحلو لـ (سام ديب وليل سوسمان) أن يطلقا عليه (الإشراف الإيجابي) في كتابهما (الخطوات الذكية). وملخص (الإيجابية) في الإشراف ـ كما يرونه ـ يكمن في معرفة الفرق بين الكيفية التي يؤدى بها العمل، وبين المقدرة على جعل الآخرين يقومون بتأديته[١]. وكل مشرف كفء كان مديراً في يوم ما، وغالباً ما يتولد لديه شعور آخر حين يتسلم منصبه الجديد، مغاير تماماً للشعور الأول الذي كان يلازمه؛ فالمتعة التي كان يشعر بها ـ عندما كان يقوم بتأدية عمل ما بنفسه داخل الشركة ـ قد حل محلها شعور بالإحباط كلما حاول أن يجعل الآخرين يقومون بتأدية العمل نفسه، بالجودة ذاتها التي كان ينجزها قبل أن يتحول إلى منصبه الجديد.

هذا باختصار هو الإطار العام لمهمة المشرف (أكاديمياً). وتلك هي صلاحياته، في ضوء المعرفة السابقة بتدرج العمل الإداري، وسلّم العمل الوظيفي في المؤسسة. وهذا الشعور الذي يصاحب المشرف هو شعور (إداري) لا بأس به، إذا كان متولداً عن هذا النوع من الإشراف (الوظيفي)؛ لأن توصيف العمل الإداري داخل المؤسسة يتطلب هذا النوع من (الصلاحيات)، وذلك النوع من التدرّج المعقول في المهمات داخل إطاره

(١) الخطوات الذكية: ص ١٠١.

الوظيفي، وتسلسله الإداري الذي صيغ بعناية فائقة لتحقيق أهداف واضحة، وللحصول على فاعلية أكبر داخل المؤسسة.

إن إدراك هذا المعلم الواضح لمهمة المشرف كفيل بتسليط بؤرة الضوء على مكمن الخلل الحاصل عند إزاحة هذا المصطلح ليصبح مصطلحاً دعوياً بتعديل طفيف جداً، لا يمكن معه إدراك الفرق بين إدارة مؤسسة ربحية في شوارع نيويورك، وبين إدارة مخيم دعوي، أو معهد علمي، أو مجمّع تربوي، يضم العديد من الكتاتيب القرآنية في بلاد الإسلام!!.

وكثيراً ما يحكم هذا الصنف من الدعاة المشرفين، الذين اتخذوا سلّم التعريب طريقاً للتغيير، واعتمدوا تحوير الألفاظ والمصطلحات أساساً للتقويم. . كثيراً ما يحكمون على نجاح عمل دعوي أو فشله، لا على أساس معايير الصلاح والفساد الشرعي الذي يستنبط من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم سلف الأمة الصالح طوال العصور الماضية، وإنما على أساس الصلاحيات المخوّلة لكل من المشرف، والمدير المباشر، والعاملين في حقل الدعوة أنفسهم. معتمدين على طرائق التقييم الغربي المحددة في هذا المجال؟! وكثيراً ما يحدث اللبس، وتنقلب الموازين عند إزاحة هذه الضوابط لمفهوم (الإشراف الإيجابي) الذي يتناسب والعمل الوظيفي البحت إلى نطاق (العمل الدعوي). وسوف تختلف حدود الإيجابية حتماً بين الإشرافين. وكثيراً ما تظهر الآثار السلبية على الإشراف الدعوي عندما يحتدم العمل الحركي وتتعدد مجالاته في أي برنامج دعوي، وتتشابك حدود الصلاحيات فيه بين الأفراد، وتختلط الأوراق عندما يلتقي الجميع على بساط العمل الواحد. وبعيداً عن الفوضوية أو

الانعزالية التي تحرك كثيراً من الأعمال التي ينقصها التخطيط والتنظيم الجيد فإن العمل الناجح يستمد قوته من (أصالته) ويكتسب نجاحه من (صحة سنده) إلى سلفه الصالح، ويضبط نجاحه ويحدد معايير تقييمه بمناهج الوحي، وقواعده الشرعية الأصيلة التي نؤمن بها. ولا زلت أذكر حواراً مع أحد هؤلاء الذين لم يفهموا من الإشراف إلا حدّه الغربي المعرب بعد أن تدنىٰ مستوى الدعوة في المحيط الذي كان يشرف عليه آنذاك، بعد أن كثر تذمّره من سلبية الأداء الذي كان يقوم به العاملون في مجال التنفيذ المباشر للبرامج الدعوية، التي كان يحلو له التذكير دائماً بمستوى جودتها يوم كان هو المنفّذ المباشر لها. ومعرفة سبب هذا التدني لن يكون صعباً على من أدرك سبب الخلل وبواعثه، وتبصّر عمق الهوة التي أفرزت ذلك الأداء السلبي الذي جاء ثمرة من ثمار تلك القراءة السلبية لهذه المصطلحات أولاً، ثم سلبية الأداء وفق معالمها المهنية ثانياً؛ فعندما كان هذا الداعية يرعى شؤون دعوته شخصياً ويتابع اهتماماتها ويرصد احتياجاتها، ويواكب أهدافها. . هدفاً هدفاً، ويتنقل بذكاء مع مراحلها. . مرحلة مرحلة كانت فجوة النقص غير واضحة، ومعالم الخلل سرعان ما تظهر حتى تزول. ولكن عندما غادر موقعه تاركاً لأفراد آخرين مهمة ملء هذا الموقع ظهرت هذه الهوة. ومع ازدياد الابتعاد اتسعت الهوة، ولم يستطع أحد أن يسدها لأنه كان أعلم الناس بها، وأخبر الناس في طريقة التعامل معها. وكل من جاء بعده متسلماً زمام العمل الدعوي لن يتمكن ولا شك من إدراك فن التعامل مع الأمواج التي تعصف بسفينة العمل حيناً بعد حين طوال الرحلة الشاقة التي سيكلف بها. ولهذا السبب نجد أن

(تأسيس) عمل دعوي جديد في كثير من الأحيان أيسر بكثير من (تسييس) عمل دعوي سابق، أو الإشراف عليه ومتابعته؛ لأن التأسيس ـ على مشقته ـ أضمن بإذن الله في النتائج، وأما التسييس فإنه مع حاجته الأولية لمعرفة الهدف؛ لضمان مواكبته ومواصلته، تلافياً للرجوع إلى نقطة البداية من جديد فيه هو بحاجة أكبر إلى معرفة طبيعة الأفراد، فرداً فرداً، والأسلوب التربوي الذي كان ينتهجه الداعية السابق، وطرائق تعامله، سواء مع الأفراد، أو مع المنهج الدعوي المطروح وذلك في سبيل تعزيز الإيجابيات وتلافي السلبيات. ثم هو بحاجة كذلك إلى معرفة المدى الذي تم تحقيقه من الأهداف، ونقاط القوة والضعف في الأفراد.. وجوانب أخرى مهمة لا يمكن تسييس العمل إلا بمعرفتها. وهو ما يوقفنا مباشرة على سبب رئيس من أسباب تدني مستوى الأعمال أو الأفراد. وليس هذا دعوة للذوبان في محيط عمل صغير أو محدود بقدر ما هو تنبيه إلى الرجوع لطرق متابعة الأعمال والإشراف عليها وفق ما كان ﷺ يدير أفراده في الظعن والإقامة، ويسوى رعيته، وكان على ذلك خير الخلق بعده رضي الله عنهم أجمعين.

وسريعاً ما يشبه الباحث مرحلة المتابعة هذه للأعمال الدعوية ـ التي غادر أهلها مواقعها بدون إدراك لخطورة النتائج، ولا بحسن تقدير للمصالح والمفاسد، ولا بعمق تقدير لحجم المعاناة التي ستقع على كاهل من بعدهم ـ بمرحلة (الترويض) التي يقوم بها سائس الأسود والسباع المفترسة، حين يصبح في مرحلة حرجة من مراحل العمل أمام أحد خيارين لا ثالث لهما: إما الانسحاب من معترك المواجهة الصعبة، وإما خوض غمار

هذه المهمة الشاقة.. قابضاً على سوط التهذيب للطباع والآثار الرديئة بيده اليمنى لإجراء التعديل، ومسكّناً بيده اليسرى آثاره تمهيداً لمواصلة التكميل. وقد كان في غنية عن كل ذلك لو أنه أنشأ عملاً جديداً، وأسّسه على التقوى من أول يوم!!

وخطورة الأمر في هذا المفهوم الدعوي للإشراف هو إحسان الظن ـ دائماً ـ بأن تلك المواقع الخالية سيتم ملؤها بآخرين. غير أن ضابطاً مهماً كان يجب مراعاته أولاً ألا وهو طبيعة هذا الامتلاء، وجودته، ومؤهلات القائمين عليه، ومقارنته بالبدائل الأخرى التي تعرضها التربية المادية على الأفراد صباح مساء، وتغريهم بها. والمواقع إذا خلت من روّاد الحق القادرين فلن يملأها إلا رواد الباطل القادرين كذلك. ويتناسىٰ الزمن غالباً أنصاف الحلول؛ إذ لا عزاء لمن لم يقدّر حجم النتائج، ولا رحمة بمن يترك الساحة خالية تمهيداً لتدريب الأحداث من الدعاة على (حمل الأثقال). ومتى سيحدث الارتقاء إذا كان الكفء القادر يتنقل سنة بعد أخرى إلى برج أعلى فأعلى، حتى يطاول النجوم، ويدع العمل الصالح على دمنة الأرض تأكله الهوام؟! ومتى سيحدث الارتقاء إذا أصبحت الدعوات تجترّ أخطاء هذا ثم هذا ثم هذا؟ ويظل الأفراد يراوحون مكانهم، وتظل الأعمال تشكو.. ولا بواكي لها!؟

وهذا ليس مبرر بحال من الأحوال إلى وقف الدفق الدعوي الحي بالدماء الشابة الجديدة التي تتحمل العمل، بقدر ما هو تحذير من تصلّب الدماء القديمة في أعزّ مكامن العروق، أو تكلّس المكاسب القديمة العظيمة على الجدران بارزة أمام الجميع، محرجة كل جهد يقوم به حدث متحمّس يسعى جاهداً

لبلوغ الكمال.. ولا طاقة له به، ويهفو للإصلاح.. ولا قدرة له عليه!! والحديث عن هذا الدفق الشبابي المتجدد باب عظيم آخر، بعيد عن مسرح القضية التي نناقشها، والإشراف الذي نتحدث عنه.

وأي مرب صادق، أو منظّر حكيم، طرق سمعه منهج الوحي الخالد، وأبصر معاناة الرسل الأوفياء، ومصارع الشهداء، ونزف الدماء، ومقتل الأنبياء. وقرأ عن جلد العلماء، وغربة الأولياء.. كل ذلك في سبيل الله تعالى ورفعاً لهذه الراية الخالدة، ثم يقنع نفسه بأن دوره الوحيد لتحقيق سنة الإرتقاء في العمل الدعوي المشرق لا يكون إلا من خلال ساعة يقضيها في المتابعة كل أسبوع؟! أو أن طريق الإصلاح لا يتأتى إلا بالصعود إلى برج الإشراف السلبي، والختم بالشمع الأحمر على كل عمل مباشر، أو جهد مبذول، أو مخالطة للأفراد، أو مشاركة حية في مسرح الدعوة الحقيقي؟! بل لربما تحول العمل المباشر في حس إلى نوع من الامتهان الذي يترفع عنه في هذا الموقع وإنما هو شأن أصحاب الدرب الدنيا في السلم الإداري؟!.

إن المعرفة الواعية بحقيقة الفرق بين الإشراف الدعوي والإشراف الوظيفي بمفهومه الغربي مهم جداً في سبيل إزالة الآثار المترتبة على سوء التطبيق فيما بعد. ولعل حقيقة هذا الفارق يمكن إيضاحها في جانبين مهمين: **أولهما**: أن العبد الصالح أياً كان موقعه لا غنى له عن كل عمل صالح يقرّبه إلى مولاه، فهو يعتقد أن ممارسته لهذه الأعمال قربة من القرب، وعبادة من أجل العبادات التي يتقرب بها إلى محبوبه سبحانه. وأنها ذخر له في

الآخرة، ومعين له على مواصلة العبادة والاستمرار في الطاعة. بخلاف ذلك الغربي الذي لا تمثل أعباء العمل الإداري بالنسبة له سوى جهد شاق، وعبء ثقيل يسعى لتخفيفه وتقليصه من حين لآخر. **الثاني**: ـ وهو محصلة طبيعية لهذا التصور ـ ويكمن في التناسب الطردي الذي يحدث عند الموازنة بين حجم المسؤولية، وحجم التكليف والجهد. ولعل هذا الفارق هو الأظهر عند التمايز، فكلما ازدادت المسؤولية في الإسلام تعاظم الجهد، وتفاقم التكليف، وظهرت المشقة ثم حصل الابتلاء والتشريف. بينما نجد في التربية المادية نقيض ذلك تماماً فمع ازدياد المسؤولية يتضاءل الجهد والتمحيص. فالمسؤولية أو الارتقاء الإداري في المنظمة المادية ما هو إلا نوع من أنواع التشريف للتخفيف من أعباء العمل المباشر، وهو نوع من أنواع المكافأة لذلك الجهد المبذول. أما المسؤولية في الإسلام فتكليف يزداد معه العبء، ويزداد معه ثقل المراقبة والتبعات، وثقل المحاسبة، بل والابتلاءات.

قال تعالى في تحديد مبدأ التشريف: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴿٢٤﴾﴾[1]، أي: (لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجره، وتصديق رسله واتباعهم في ما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..). أنهم لمّا أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في

(١) السجدة: ٢٤.

الدنيا..»[١]. وقال ﷺ في ذكر تبعات ذلك التشريف وآثاره: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه...**»[٢]. وذلك الصبر، وهذا الابتلاء ما هو إلا ثمرة من ثمار المراغمة والعمل المباشر المتواصل والمجاهدة التي تعد من أبرز سمات الأنبياء والمصلحين.. وأنى يتأتى ذلك إذا كان دورهم مجرد (إنجاز الأعمال من خلال الآخرين) بمفهوم الإشراف الغربي السائد؟! وأنى يزداد الإيمان إلا بزيادة الأعمال الصالحة ومباشرتها، وتجدد الإيمان في القلب واستمراره؟! وأنى يكون التنافس على درجات الجنة بعد رحمة الله تعالى ورضوانه إلا بزيادة الأعمال الصالحة التي تقرب إلى الله زلفى؟! وهذه الموازنة الصحيحة بين مقدار الجهد، ودرجة المسؤولية، وبين التكليف والتشريف، ضابط مهم في الموضوع؛ فالمشرف الحقيقي في العمل الدعوي هو ذلك الأكثر مسؤولية من بين جميع الأفراد وهو مع ذلك أيضاً الأكثر جهداً وعملاً ومشقة، ومتى تخلّف أحد الأمرين زال هذا اللقب ولم يكن له رصيد في الواقع.
وهذا رسول الله ﷺ في أعلى مقامات الإشراف لم يكن يلجأ للتفويض إلا في المهام المحددة اليسيرة التي كان غالباً ما يضبط زمنها كذلك، وجهتها، وهدفها، وعدد أفرادها، كما كان يحدث في السرايا. بينما كان يخوض بنفسه غمار الموت في المعارك، ويصاب ويجرح، ويتألم ويبكي، ويصبر، ويتجرع

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٤٤٦.
(٢) حديث صحيح.

غصص الآلام في سبيل الله تعالى، ثم يواصل المسير. ولقد مشى إلى الطائف ﷺ وحده، وبايع أهل العقبة في تلك الليلة وحده. ولربما سمع الهيعة في جوف الليل فخرج وحده، وكان بمقدوره التفويض. بل كان أصحابه من حوله يستحثونه على تكليفهم ويتطلعون بشغف إلى تفويضه لهم، ويتطاولون بأقدامهم حباً في تنفيذ أوامره ﷺ وتلبية مطالبه.

وقد وعى هذا الدرس العظيم في الإشراف أصحابه من بعده، فهذا أبو بكر رضي الله عنه في أعلى درجات الإشراف يقم منزل امرأة عجوز، ويسير حافياً بجنب أسامة رضي الله عن الجميع ويباشر أمور المسلمين بنفسه. وذاك عمر في أعلى مقامات الإشراف يطارد بعيراً ند عن إبل الصدقة في حر الهاجرة، ويتعاهد الأرملة والمسكين، ويتفقد ابن السبيل، ويقطّع الليل في السير بين البيوت، وخارج المدينة يعسّ بنفسه، وسائر القوم نائمين. ويقيم الحدود، ويؤدب أهل السوق وحده، ويخوض مخاضة الشام بقدميه وهو ممسك زمام ناقته وعليها خادمه رضي الله عنه وأرضاه. ولم يكن ذلك لينزل من مكانتهم نظراً لهذه الموازنة الرائعة بين حجم المسؤولية ومباشرة الأعمال الصالحة، كما لم يحط ذلك من قدرهم لما أحكموا بدقة ميزان المسؤولية وتبصروا عظم التكليف الذي تحملوه.

ويبقى لأهل الفضل فضلهم، ولأهل الخير سابقتهم في الدعوة.. ويظل التخطيط الواعي لاحتياجات الدعوة، بأصالة لا تشوبها حداثة، وسند متصل لا يكدره انقطاع.

٣ـ توظيف الفروق الفردية لتحسين (النوعية) الدعوية !!

يشكل التوظيف الخاطىء لمفهوم الفروق الفردية القطب الثاني في معادلة الخلل الإداري والتربوي الذي تعاني منه العديد من الدعوات التربوية التي تنطلق من المفاهيم الغربية المعربة. ولأسوق هذا المثال لقراءة من هذا النوع من القراءات. في كتاب غربي سيّار حول القيادة عرض المؤلف قواعد مهمة في باب (معرفة الرجال) ذكر في أحدها جواباً لأحد رجال الأعمال الناجحين، عن سؤال أصدقائه عن سر تفوّقه الباهر حين قال: «لم أكن أعرف الآلات كما يجب، ولكني كنت أعرف الرجال»[1]. وهذا كلام من رجل مارس القيادة العسكرية فترة طويلة، وهو يعي جيداً ما يقول في نطاق عمله. ولا يحتاج الأمر لأكثر من هذا لفهم المراد من كلام هذا القائد الغربي الذي عرف رجاله في محيط عمله الدنيوي البحت. وعليه فإنا ندرك الخطأ في أي تحوير لهذا الكلام عن حقيقته فضلاً عن إعطائه حقيقة أخرى مغايرة عنه تماماً، كما فعل أحد الدعاة عندما قام بحشد مواقف النبي ﷺ التي تؤكد هذا الكلام وتضفي عليه هالة جديدة، لكن بحصانة أكبر. من ذلك الاستشهاد بقوله ﷺ: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**. ومحل النزاع هنا يكمن بالدرجة الأولى

(١) لمحات في فن القيادة: ج. كورتوا، ص ٣٠.

في الخلط بين (طبيعة) تلك المعرفة للأفراد، و (غايتها). وقبل ذلك (هدفها) وطريقة استنتاجها. ولعدم وضوح هذه الأبعاد الفارقة ين حقيقة التوظيف لمبدأ الفروق الفردية في المجتمع المادي، وحقيقته في التربية الإسلامية، أصبحت جميع مراجع هذا المبحث - أو كثير منها - لدى الباحثين - حتى المسلمين منهم - هي كتب علم النفس، ونظريات التربية الغربية، لدرجة لا يكاد يفرّق فيها البصير بين غاية وغاية، فضلاً عن وسيلة ووسيلة. وليس الحديث هنا من باب التجاهل لأهمية هذا المبدأ وثمرته في العملية التربوية بقدر ما هو تحرير للآثار السيئة الناجمة عن سوء توظيفه في الدعوة على وجه الخصوص. ويكفي تأكيداً لمفهوم الفروق الفردية أن علماء التربية الإسلامية قديماً حرروه بدقة، وأكدوا عليه، واستخرجوا من كتاب الله العزيز، وسنة نبيه ﷺ ما يبيّن أهميته. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إن الرجل ليحدّث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث فيكون عليه فتنة»، وأرشد الخطيب البغدادي رحمه الله إلى ذلك بقوله: «.. وكذلك ينبغي للعالم أن يحدث كل قوم بما تحتمله قلوبهم، وعقولهم من العلم». قال الأصمعي: «لن يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا». كما أكد هذا المبدأ الإمام الشوكاني رحمه الله في باب الانتفاع بالعلم فقال رحمه الله: «يختلف الانتفاع بالعلوم باختلاف القرائح والفهوم، فقد ينتفع من هو كامل الذكاء صادق الفهم قوي الإدراك بالقليل ما لا يقدر على الانتفاع بما هو أكثر منه كثير من جامدي الفهم راكدي الفطنة».

ويتعدى هذا الفارق بين الأفراد حدود الفهم والعلم ليشمل سائر الصفات والسمات البشرية الأخرى. وليس هنا مقارع

النصال، وإنما في حقيقة الفهم ومن ثم في طبيعة التوظيف التربوي له. والحديث يطول لو استرسلنا في تقرير هذه الحقيقة الكونية والشرعية، لكني أشير هنا إلى جملة من الفروقات المهمة، تأكيداً لسمو التربية الإسلامية، وعظمة مناهجها مقارنة بغيرها.

١ـ تكاد أن تكون الثمرة التربوية (الظاهرة) من جراء اعتماد هذا المفهوم متساوية ـ تقريباً ـ في نظر جميع التربويين والقياديين، من خلال محورين اثنين مهمين. **أولهما**: وضع الفرد المناسب في المكان المناسب، أو توجيهه بدلاً من ذلك لما يناسب ميوله وطاقاته وقدراته. **الثاني**: الانتقاء المدروس لذوي الطاقات والمواهب العليا والمبدعين، والاعتناء بهم. غير أنه يتحتم عند تقييم أداء (العاملين)، و (الموظفين) في المؤسسات المادية المعاصرة وضع معايير مادية محسوسة ثابتة للتفريق بين الحد الأعلى والحد الأدنى عند تحديد مستوى الأداء المطلوب، أو معرفة معيار التفضيل بين الأفراد وفق (قيم رقمية) في الأداء الوظيفي[1] للأفراد، أو وفق التنظير المجرد الذي يأخذ بهرج

---

(١) ما أسهل النجاح الوظيفي بمعياره المادي عندنا يوم أن أخذنا بشكليات التقييم وأهملنا جوهره وثمرته. بل لقد أصبح ذلك واضحاً حتى لدى أولئك البسطاء العاديين من الموظفين الذين يدورون في حلقة الحفاظ على (شكليات) الوظيفة فحسب. وما أشقه على أولئك الذين أخلصوا لعملهم وبذلوا أضعاف جهدهم حتى تسبب ذلك في إخلالهم ببعض هذه الشكليات أو إهمالها. ولعل من المسلمات المضحكة التي يتبادلها الموظفون اليوم أن من أراد التفوق في وظيفته ـ بمعيار التفوق المادي في التقييم عندنا ـ فليلزم الحضور في الوقت المناسب، والخروج في الوقت المناسب، وليحسن تخيّر العلاقات المناسبة، ثم لا عليه بعد ذلك أن=

التخطيط والتنظيم والعمل الظاهري غير الحقيقي - في الغالب - للإدارة في المنظمات والمؤسسات.

ومكمن الخطورة في هذا التقييم أنه يقطع بالنجاح وفق معايير رياضية تحدد نقاط الضعف ونقاط القوة بطريقة آلية. بينما يشمل بُعد التقييم دائرة أوسع من نطاق هذه القيم الأحادية المادية عند اعتماد مقياس التفضيل في التربية أو الإدارة الإسلامية التي تعتمد على صلاح القلب والجوارح معاً وذلك بسلامة الأتباع، وصلاح المناهج والعقائد وسلامة التعبد، والإخلاص والمراقبة لله وحده، والخوف من تبعات التكليف يوم الحساب الحقيقي. ووضوح هذا المعيار لدى الأفراد الذين تم إعدادهم مسبقاً لإدراك

= يعمر وقت الدوام بالنوم أو بقراءة الجرائد، لأنه على يقين من درجة التميّز التي سيحصل عليها في تقرير نهاية العام، والتي سوف يحرمها إذا بذل نشاطاً آخر مهما كان متميزاً أو قام بجهد غير عادي لصالح المؤسسة خارج عن مفردات التميز التي بات يحفظها عن ظهر قلب والسبب أن الباعث في ذلك هو إرضا عين الرقيب.. مديراً أو نائباً أو وكيلاً، وهو بشر يطّلع على مكنونات الضمائر وإنما يرضيه هذا الأثر المادي المحسوس الذي يشاهده من ذلك الموظف المحافظ على هذه الإجراءات الظاهرة المهمة. وسبيل الإصلاح الوحيد إنما يكمن في تغيير هذا الرقيب الذي يهابه الموظفون ويعملون له ألف حساب ليكون رقيباً لا كالرقباء وعليماً لا كالعلماء يبصر مكنونات الصدور قبل ظاهر الأعمال ويحاسب على خفيّات النوايا وعميق الأسرار: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾. عندها فقط يصلح ظاهر هذا الموظف وباطنه ويراقب الله وحده ولو لم يكن عليه أي رقيب من رقباء البشر. ذلكم هو مصدر عزنا أهل الإسلام الذي لا يملكه أحد في العالم سوانا ولله الحمد على عظيم نعمه ووافر كرمه.

المعنى الشمولي للعبادة كفيل بإيجاد طراز فريد من الأفراد الذين ينطلقون من نقطة (المراقبة) لله تعالى وحده في الحفاظ على جودة الأداء، ومن (الخوف) من تبعات الجزاء في الآخرة يوم الحساب الذي يولّد عندهم الحرص على إتقان العمل بغير مقابل مادي والحذر من الإخلال والتفريط. ولعل هذا الباعث يعد جواباً ضمنياً لسؤال ذلك المدير الفاضل في إحدى المدارس حول تفوّق المدرسين الصالحين والمستقيمين على طاعة ربهم في أعمالهم وفي دفع الأنشطة الطلابية داخل مدارسهم بدون مقابل بينما لا يوجد هذا الحس عند زملائهم الآخرين الذين ربما تفوقوا عليهم في (شكليات) العمل الأخرى حضوراً وانصرافاً، وكثير منهم بحمد الله على خير في مدارسنا ومؤسساتنا لو أنهم كمّلوا أنفسهم بهذا المعنى العزيز من معاني النجاح الدنيوي والأخروي معاً. وهو كذلك كفيل بإيجاد طراز فريد في الإدارة الإسلامية لم ينعم به العالم التائه في مصنع المادية حتى الآن.

٢ـ من خلال هذه النظرة الأولية تتفرع معالم ثانوية أخرى لا تقل عنها أهمية.. منها: أن الحكم على الأفراد وتقييمهم أضحى (هدفاً جوهرياً في التربية المادية؛ لضمان الحصول على (جودة) أعلى في الإنتاج وكفاءة أفضل في الأداء. بينما يمثل ذلك في التربية الإسلامية (ضرورة يلجأ إليها ويعتمدها المربي لضمان استمرار التربية (ربانية) كما أمر الله بها. والفرق بين الحدين دقيق جداً لمن تأمله.

٣ـ مع تكريس الاهتمام بهذا المفهوم ازداد المظهر المادي للإنتاجية (الثمرة)، وتحدَّد كثير من معالمه، وطرق قياسه، والتحكم في مؤثراته داخل العمل المؤسسي الغربي. وأضحى

الحديث عن درجة الإنتاجية ونوعيتها، وسبل تحسينها هي الهم الشاغل للإداريين والقادة الغربيين. وهذا التحسن في مستوى النظر المادي للإنتاج الدنيوي البحت هو القاسم المشترك الذي تتفق عليه كل المجتمعات المادية التي تحيد عن الإيمان الصحيح بالله تعالى وتكفر بالله قديماً وحديثاً، وبخاصة إذا أصبح مفهوم: (القوة) و: (التمكين) مرادفاً لمفهوم (الحضارة المادية) بمعالمها المختلفة في مصطلح التعامل مع البيئة المحيطة تسخيراً وتذليلاً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾. ثم ذكر سبحانه أبرز سمة مادية يؤمن بها هؤلاء الآخرين الذين جاءوا بعد سلفهم الأولياء فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾[1].

وتلك هي النتيجة المتوقعة.. إيمان بالماديات والمحسوسات فقط.. بل بأعلى درجاتها في ميزان التقييم والنظر. وقال سبحانه في معرض الرد على كفار قريش مبيناً لهم ضآلة ما هم فيه من حضارة بميزانهم المادي الذي لا يكاد يختلف عن ميزان السابقين قبلهم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ...﴾ الآية[2]. والنصوص في هذا الباب كثيرة لمن تتبعها وتأمل فيها.

---

(١) الأنعام: ٦، ٧.

(٢) الروم: ٩.

فلا عجب إذن أن تصل الحضارة المادية اليوم إلى هذا المستوى الرفيع من الحرص على كل وسائل القوة المادية في شتى العلوم، وبلوغ أعلى درجات الإنتاجية الممكنة فيها. ولا عجب أن نجد هذا التنافس للاعتناء بالأفضل والأجود من الأفراد - من خلال هذا المقياس - الذين يظهرون تفوقاً أكثر من غيرهم في هذا المجال، سواء على المستوى العام داخل المجتمع، أو في الهيئات والمؤسسات الخاصة. ولعل أظهر ما يكون التنافس على هذا النوع من الأفراد مشاهد في واقع هذه المؤسسات التي يسعى أصحابها على اقتناء هذا النوع من الموظفين الأكفاء لبلوغ (أعلى) درجة ممكنة في (الإنتاج).

٤- يمثل الحافز (المادي) - في المقابل - أعلى درجات التشجيع، وأعظم المحفزات في الغرب؛ لإقناع العاملين في تحسين أدائهم. وهذه الحوافز قد تتفاوت فيما بينها في القدر، إلا أن القاسم المشترك الذي ينتظمها جميعاً هو: تحقيقها لمبدأ العِوض أو المقابل المادي لكل جهد مادي مبذول.

ويشمل ذلك: الإغراء بالمال أو بكل ما يدور في فلكه من صور المكافآت المتعددة، كما يشمل المنصب، والترقية إلى درجة أعلى في السلم الوظيفي. ولربما اختلط هذا المفهوم للحوافز في أذهان البعض مع مفهوم الحوافز والتشجيع في التربية الإسلامية، لكنّ ما بينهما من الفرق كما بين السماء والأرض بالنظر إلى محتوى العمل القلبي الذي تحرص على تثبيته التربية الإسلامية، والذي يمثل (الإخلاص) أعلى ركائزه، والصدق والمراقبة أعظم أركانه وأقطابه.

وإلا فكيف تكون كلمة مجردة مثل: «جزاك الله خيراً» أو: «بارك الله في جهودك» أو «وفقك الله» ـ عندما تقال بصدق ويتلقاها العامل بصدق أيضاً ـ وساماً غالياً يتمنى العامل المسلم أو الطالب المسلم أو الداعية المسلم الحصول عليه، بل يعده أغلى من كل مال، وأثمن من كل ترقية!؟ إن الوصول لهذه الغاية العظيمة لن يكون إلا بتربية عظيمة.. وعظيمة جداً يعدل فيها أثر هذه الكلمة التي لا يأبه لها المادي مثاقيل الدنيا وبهارجها، وتلك هي الهداية الحقيقية، وذلك هو النجاح بكل معاني النجاح وأشكاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾[١].

وفي المقابل يعتبر أقسىٰ أنواع الحرمان والعقاب في التربية المادية هو الحرمان من هذه المغريات المادية ـ المال والمكافأة والمنصب ـ أو التقليل منها، بينما قد يصبح العقاب في وجدان الفرد المسلم أمراً عظيماً لكلمة واحدة مثل: (اتق الله) أو (خف من الله) يوجهها المسؤول المسلم لأولئك الأفراد المسلمين الذين يدركون عظم هذه الكلمة ومدلولها. ويبقى للحرمان المادي مكانته المعقولة كذلك وأثره الفاعل.

وحين تختلط معالم هذا الفارق العزيز بين التشجيع المادي في الغرب، والثناء المعنوي ـ أو حتى المادي ـ في الإسلام عند تربية الأفراد تتشوه حتى معالم النظر البسيط لهذا

---

(١) يونس: ٩، ١٠.

الفارق العزيز. وها هنا مثالان عمليان لهذا النوع من التشويه.

لم يتحرج البعض من التصريح بالمطابقة بين كلمة «شكراً» Thank you بلسانها الغربي المجرد أو المعرب وقول: (جزاك الله خيراً).. عندما أصبح الأثر لكليهما واحداً، والنتيجة المطلوب تحققها واحدة - في نظره - وهي إشعار الفرد بالامتنان والرضىٰ، ومكافأته على تفوقه[1].

وفي كتاب مثل الخطوات الذكية[2] - فضلاً عن غيره من الكتب الأخرى - أمثلة أكثر صراحة في التأكيد على هذا المبدأ المادي في التشجيع عبر التساؤل: (هل المال حافز مهم للموظفين؟!) وقد وقفت أتأمل ملياً في عبارة: (أو أي شيء آخر) التي وردت بين قوسين في عنوان هذا المبحث من مباحث الكتاب الغربي. ولأني لا أملك نص الكتاب بلغته الأصلية فلا أملك الجزم بكونها مدرجة من تصرف المعرّب ذاته لكي يوسّع دائرة الحوافز التي نؤمن بها نحن المسلمون لكي يشملها سياق هذا الكلام الغربي، الذي كان نصه قبل هذه العبارة على النحو الآتي: (٦ شروط ضرورية لجعل المال عنصراً مهماً في التحفيز

---

(١) وعليه فإنا بحاجة إلى إعادة النظر في منهج الحوافز المادية أو المقابل المادي للأفراد دائماً في أعقاب كل عمل يقومون به وبخاصة من أعمال العبادات والقُرب الشرعية، كما أنا بحاجة ماسّة في المقابل لغرس هذا الشعور العميق بالثواب والجزاء من الله تعالى، فإذا استقر في النفوس أولاً فلا يضر بعد ذلك مهما كان الحافز، لأنه لن يمثل عند الفرد كل شيء بل إن بذرة الإخلاص التي زرعتها في قلبه هذه التربية الإيمانية تجعله يتطلع إلى تكريم آخر أكثر قدراً وأعظم مكانة يوم القيامة.

(٢) الخطوات الذكية ص: **١٤٣**.

للأداء الأفضل). وأصبح بعد هذه الإضافة: (٦ شروط ضرورية لجعل المال (أو أي شيء آخر) عنصراً مهماً في التحفيز للأداء الأفضل)؟!

ولأن السياق مادي بحت فلا تستقيم هذه العبارة المدرجة؛ لأن هذا (الشيء الآخر) لم يرد له أي ذكر في هذه الشروط الستة التي عرضها المؤلف. ثم لا نسلّم قطعاً بأن (هذا الشيء الآخر)، الذي قد ينصرف ذهن القارىء (المسلم) لكل جزئياته الممكنة - حتى تلك التي تتناول الدعاء بالأجر من الله تعالى، أو الثواب بالجنة مثلاً - كان يجب وضعه هنا، بل لا يتفق ذلك مع الموضوعية التي تقتضي نقل فكرة المؤلف بأبعادها المادية الحقيقية، بعيداً عن هذا التشويه الذي قد يحدثه لدى ذلك القارىء (المسلم)، الذي ربما انصرف ذهنه إلى جانب آخر من جوانب التحفيز، أسمى وأكمل من المال ولم يقصده المؤلف بأي حال من الأحوال، بل لم يطرأ على ذهنه يوماً من الدهر.

وعندما ننجذب سريعاً لمصطلحات مثل: (المال) و (التحفيز) و (الإنتاج) و (الأداء الأفضل) تتشوه في أذهاننا الفروقات الكبيرة بين المناهج المتغايرة. ولن نصل مطلقاً لجواب صحيح على سؤال ماذا نقرأ!؟ إلا بفهم هذه الفوارق الدقيقة الحاسمة التي لن يدركها بعمقها الحقيقي إلا أولئك الذين يبحثون عن الأصالة، بعيداً عن ربقة الهجمة المادية المعاصرة من جهة الغرب أو الشرق.

٥- أصبح المعيار الأوحد في طريقة انتخاب (الأكفاء) أو (الموهوبين)، والتفريق بين الأفراد هو (جودة المستوى)، وبلوغ

درجات التفوق، والنبوغ في إطار المهارات البشرية المشتركة التي يتساوى فيها الناس جميعاً، بغض النظر عن عقائدهم وقيمهم وأخلاقياتهم أو أجناسهم وبلدانهم. وهي عولمة ظاهرة إذا تأملنا في غاياتها، وفي النتائج التي يحققها أولئك الداعمون لها في الخفاء. ومن السهل جداً ـ من خلال هذا المفهوم ـ تكريس الجهد على هؤلاء (النوابغ) و (المبدعين) فقط وتجاهل أولئك الآخرين من ذوي المستويات الدنيا، أو ناقصي الذكاء. والقضية في حقيقتها قضيتان، وأجدني محتاجاً لإطالة النفس قليلاً مع هذه القضية لإيضاح الثمار التربوية التي تنجم عنهما، وإن كان ذلك على حساب التدخل قليلاً في خصوصية هذه الرسالة، لأن ذلك مما يعين على فهمها وإدراك الغاية التي أردتها من جراء تكلّف إخراجها.

أ ـ (قضية المعيار المادي في التفضيل بين الأفراد).

في سؤال قمت بتوجيهه لعدد من الدعاة والمربين الذين أدمنوا النظر في هذا النوع من كتب الإدارة والتربية الغربية أو العربية المشوهة، والحريصين على الدورات التي تعقد حولها بين الحين والآخر، وكان نص السؤال: ما هي السمات الفارقة التي تميّز الطلاب المتفوقين والمبدعين عن سائر زملائهم؟! لم أجد جواباً واحداً اخترق حاجز (المحسوسات) ليستقر في أعماق النفس والروح ويتلمّس إشراقاتها. ويتأمل في صلاح الباطن وقوته، المتمثل في قوة الإيمان بالله تعالى الكامنة في القلب، ومعالم الصفاء الروحي، وصدق التعامل مع الله تعالى ووحسن التعبّد، وسكون الجوارح وهدوء الطباع، وبشاشة الخلق الصادق... إلخ. لقد كانت كل تلك السمات التي ورد ذكرها

دائرة في فلك (المدركات العقلية) و(المعرفية) و(المهارية) الظاهرة فقط وتنتظم: (الذكاء، الخطابة، نظم الشعر، الإلقاء، الابتكار العلمي، جودة العلاقات الاجتماعية والاتصال مع الآخرين، حسن الخط، الثقافة العامة، القراءة... إلخ)[1]. وهذه المواهب ـ على أهميتها ـ إنما تمثل (بهرج) الإبداع والنجاح، ومظهره الخارجي فقط. ولا تمثل حقيقته وجوهره ومادته الأصيلة في معيار التربية الإسلامية وتعريفها لحقيقة النجاح والتفوق. وعظمة النظرة التربوية الإسلامية في التفريق بين الأفراد ـ على أساس النبوغ والتفوق ـ تبدأ أولى خطواتها من أبعد نقطة عن عالم المحسوسات التي يؤمن بها الماديون في كل زمان ومكان.

إنها تبدأ من أخص عمل للقلب على الإطلاق.. من درجة (الإحسان) الذي يعبد فيه العبد ربه كأنه يراه رأي العين، ويراقبه مراقبة من يعلم نظره إليه وإحاطته به. ثم ترتقي هذه النظرة إلى أقرب نقطة من الإحسان في المحيط ذاته، وهي الإيمان الذي ينطلق من أعماق القلب السليم ليبعث الحياة في عالم الجوارح بعد ذلك. ثم ترتقي كذلك إلى عالم المشاهدة الظاهرة لتشكل قبل النظر في سلامة هذه المواهب، النظرة في سلامة هذه الجوارح من عوارض الإبداع، والسعي في تحقيق النبوغ الحقيقي للفرد المتمثل في سلامة انقياد هذه الجوارح، وامتثالها لأمر ربها بالطاعة والتعبد، وبالخضوع والتذلل. ثم تأتي بعد ذلك كله عملية التحلية بسائر مدركات الكمال العقلي والمعرفي والمهاري

---

(١) لم أتمكن من استخراج النسبة المئوية لكل سمة من هذه السمات على حدة ـ على أهمية ذلك ـ نظراً لانشغال الذهن بأمور كثيرة، ولما يتطلبه ذلك من تعاون طاقم من الأفراد يؤمنون بالمهمة ويتفاعلون معها.

الذي سوف يأخذ بعده الحقيقي ونبوغه الصادق على مستوى الأفراد والجماعات بعد هذا التسلسل الرائع في حلقة (الإبداع) التربوي.

ومن هنا فقط يتحدد الخط الفاصل في إدراك حقيقة الإبداع بين منهج التربية الإسلامي والمنهج المادي المعاصر؛ ذلك أن هذه المدركات العقلية والمهارية والمعرفية ما هي إلا أمور متممة ومكمِّلة، وليست قواعد أساسية ومعايير ثابتة مطّردة في عالم التفوق والإبداع. كما أن هذه المهارات هي مما يُدرك بالتجربة، والخبرة، والمحاكاة، ونحوها مما هو في طاقة كل أحد. ومن تأمل هذا الفارق العزيز أبصر عمق الهوة، وأدرك حقيقة الأزمة في غالب مناهجنا الدعوية والتربوية المعاصرة. بل حتى في قصور نظرتنا إلى الكثير من العباداتَ الشرعية المحضة مثل العلم الشرعي والجهاد وسائر القرب الأخرى الظاهرة. بل حتى الصلاة والصيام.. لا يساويان في ميزان الشرع شيئاً إذا لم يكن لهما حقيقة قلبية تسيّرهما وتضبط مسارهما، بدءاً من اتباع السنة، والإخلاص، والصدق، واليقين والمحبة.. وانتهاء بإتقان العمل وإحسانه. والعجيب في سر المكانة التي توليها التربية الإسلامية بالقلب، ونسبتها المئوية بين جملة برامج الإصلاح أنها جعلت صلاح سائر أعمال الجوارح الظاهرة محكومة بصلاح هذا القلب. ليس فقط في هذه المدركات والمهارات البشرية بل حتى في أشرف العبادات، وأعظم القربات التي جاء الحث عليها والأمر بها. ولذا ورد عنه ﷺ قوله في الخوارج: «**أينما لقيتموهم فاقتلوهم**»، مع ما ذكر من احتقار الصحابة لصيامهم مع صيامهم ولصلاتهم مع صلاتهم. وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله عن

أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً قال ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزيّن صلاته لما يرى من نظر الرجل**». فلا عبرة بالظاهر إذن في ميزان الشرع ما لم تكن له حقيقة قلبية ترتفع به. ومن أراد الاستزادة، أو البحث الموسّع في هذا الباب فلينظر في مادة (أي الناس أفضل) أو: (أي العمل أفضل) أو سائر أفعال التفضيل الأخرى في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ. ولا أحسن ولا أفضل مما وصفه الله تعالى ووصفه رسوله ﷺ بالحسن.. فكيف إذا وصف بغاية الحسن والفضل؟! قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا..﴾[1]؟!. وقال سبحانه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. وما أعظم هذه المقارنة بين المعنى المحسوس الذي يفيده العموم في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي بكل معنى ظاهر تجدونه فيه من إتقان العمل الذي أو الذكاء أو الخطابة.. إلخ مقارنة بالمعنى العظيم غير المحسوس الذي ينتظمه الإيمان، حتى ولو كان مقترناً بهذا الوصف الناقص المتمثل في الرق والعبودية. وذكر سبحانه شأن المنافقين الذين استجمعوا خصال الكمال في الظاهر وهم في الحقيقة يعانون من مرض خطير في المحرّك والباعث لها فقال جلّ شأنه وتقدّس: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ

(١) النساء: ١٢٥.

لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾[١].

وأما ما ورد في صحيح السنة المطهرة فكثير طيب، لمن أراد الهداية، وطلب الكفاية في هذا المبحث وغيره. عن سهل رضي الله عنه قال: مر رجل غني على النبي ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفّع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفّع، وإن قال أن لا يسمع. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**» (يقصد الأول)[٢]. وفي الحديث العظيم الآخر عن أبي هريرة رضي الله عنه ورد توضيح أكثر وأدق لحقيقة هذا الفارق بين صلاح القلب، وبهرج الظاهر. قال رسول الله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتُقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرّة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة. إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفّع**»[٣].

ولما ذُكر معروف الكرخي الزاهد العابد في مجلس الإمام أحمد قال بعضهم: هو قصيرُ العلم. فقال أحمد رحمه الله:

---

(١) المنافقون: ٣ ـ ٤.

(٢) رواه البخاري.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري والترمذي.

أمسك. وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف[1]. فعد العلم وسيلة لتحقيق تلك الغاية من صلاح القلب وطهارته التي وصل إليها هذا الرجل الصالح.

ب ـ (قضية التغاضي عن ذوي المدركات الدنيا وقليلي الفهم من الأفراد، أو إهمالهم).

أصبح من إفرازات اعتماد المنهج الغربي في التفريق بين الأفراد إهمال ناقصي الذكاء، وقليلي الفهم والإدراك، وراكدي الفطنة. وهذا إن كان له ما يبرره في (مصنع) الحضارة الغربية الصاخب فليس له أي مبرر في منهج التربية الإسلامية الكامل للأفراد. ويحدث الخلط في المفاهيم حين يتبادر لذهن الدعاة والمربين هذه النتيجة الأولية من جراء القراءة المكثفة للنصوص الغربية في هذا الباب. كما ورد ـ على سبيل المثال ـ في كتاب (الخطوات الذكية)[2] في خطاب خاص بالقادة والإداريين تحت عنوان (١٩ خطة للقيادة الناجحة) ومنها: (وظّف الأشخاص الذين (لديهم استعداد) للعمل ضمن فريق. فالأشخاص الانعزاليون من الصعب اندفاعهم مع فريق العمل، لذا فلا تضيّع أموالك بتدريبهم) ونصوص أخرى كثيرة في كتب أخرى كثيرة كذلك.

---

(١) سير أعلام النبلاء: **٩/٣٤٠**.

(٢) وهذا لا يعني سلامة غيره من الكتب المعربة لو قرأ فيها الباحث بعين الناقد، ولكني إنما أكثرت من القراءة في هذا الكتاب عينه فوجدتني حريصاً على الاستشهاد به كثيراً دون غيره، ولو قرأ القارىء المسلم كتاباً غربياً لآخر لوجد فيه الداء ذاته؛ لأن الجميع إنما يصدرون عن منبع واحد وينطلقون من مشكاة واحدة.

إن هذا السياق الغربي في هذا الموضوع المادي ما هو إلا تصور مقترح لبناء (فريق العمل) الذي سيثمر الإنتاج المادي المقدّم للمؤسسة فيما بعد أضعاف التكلفة المادية التي أنفقها صاحب المؤسسة في سبيل تدريبهم وإعدادهم. فهي إذن مصلحة مقابل مصلحة أخرى.. وتلك هي الفلسفة الغربية باختصار. والفارق بين كون التفريق هدفاً بحد ذاته - كما تنظر إليه المدرسة الغربية - وبين كونه ضرورة يُلجأ إليها في التربية الإسلامية يتضح من خلال عدة محاور لهذه القضية. فالعالم المسلم والمربي المسلم والداعية المسلم[1]، وكل قائد أو إداري مسلم يؤمن بأحقية (الجميع) في تلقي الاهتمام ذاته، بموضوعية التوجيه ذاته كذلك.

ولا يتم اللجوء إلى التفريق (المبدئي) بين الأفراد بحال من الأحوال على أساس مادي بحت، حتى يتجاوز الجميع مرحلة أولية واحدة ومنهجاً محدداً، ويتلقون علوماً واحدة يحكم فيها بعد ذلك بضرورة التخصيص والتفريق التي ينتقلون بعدها تلقائياً إلى درجة واضحة أرقى من الفهم والوعي والإدراك. وهذا الاهتمام ثنائي الاتجاه لكلا الصنفين، ولا يسلب أولئك القاصرين عن مستوى الفهم والإدراك اهتماماً آخر يتوافق مع مستوى

---

(١) هذه التفريقات من باب ضرب الأمثلة وتخصيص نطاق التربية ومحاورها فحسب لتشمل جوانب أخرى عدا تلك الجوانب العلمية، وإلا فكل عالم يفترض فيه أن يكون هو في ذاته داعية ومرب وإمام. وكفى بالعلم الشرعي شرفاً أنه يطلب لما وراءه من إصلاح الناس وتربية الأمة. وأنّى للجاهل بعلوم الشريعة أن يصنع حضارة أو أن يصقل شخصية أمة أعدّها الله تعالى لتكون خير أمة أخرجت للناس.

إدراكهم، وفهمهم، كما لا يحرم غيرهم من الانطلاق والتفوق في درجات أعلى وأكمل. بمعنى آخر: إن ذلك التفريق ليس هو الغاية في حد ذاته - كما هو في التربية المادية - ولكنه ضرورة ملحة لضمان سير التربية السليمة مع جميع الأفراد. ومن تأمل هذا الفارق المهم أدرك سراً عظيماً من أسرار هذه الشريعة، وصلاحيتها في كل زمان ومكان، وأنها منزلة من لدن حكيم خبير.

وبهذا المعنى الرائع ندرك عظمة تلك النصوص التي تدعو إلى وجوب الصدع بالبلاغ للعالمين ونفع الناس جميعاً، وتحث الجميع على تحصيل القواسم المشتركة العامة في باب العلم، والمهارات، والمعرفة، والأساسيات الثابتة لدى الجميع في باب العقائد والأخلاق والفضائل. كما ندرك عظمة تلك النصوص الشرعية التي تحذر من الإعراض عمن جاء مسترشداً طالباً الحق، ومن كتمان العلم عن الناس، ومن السكوت عن المنكر العام الذي يظهر في المجتمع ويعطّل حركة الإبداع والنجاح الحقيقي فيه. ويحدث النبوغ هنا حين ينطلق هؤلاء الآحاد من النابغين إلى درجات أعلى في التحصيل، ومنازل أكمل في التخصصات كل بحسبه.. وفق ما أودع الله فيهم من المهارات والفهوم والطاقات. وهذا ما كان سائداً ومشاهداً في واقع الأمة الإسلامية إلى عهد ليس بالبعيد.

فبعد أن يتجاوز الطفل مرحلة الكتاتيب العامة في المجتمع المسلم التي يحفظ فيها القرآن ويتأدب بآداب عدة يلقّنه إياها المؤدب أو المعلم الكفء يتعاهده أولياؤه بحضور بعض مجالس العلماء التي تفتح أبوابها لمن أراد العلم والخير. وما هي إلا

سنوات قلائل في سيرة العظماء والمبدعين من أعلام هذه الأمة حتى نجد دفقاً ذاتياً للاستزادة من الفضائل، والجد والطلب، والمنافسة فوق مستوى أقرانهم الآخرين. ولربما أدرك بعضهم - بعد هذا الإعداد الأولي - أن ميوله تتجه لفن دون آخر، أو لباب من أبواب الخير دون آخر، وهذا ما أدى إلى ظهور العلماء الأفذاذ في شتى علوم الشريعة.. محدثين ومفسرين وفقهاء، وانتقال الآخرين من هؤلاء المبدعين إلى مجالات أخرى.. مجاهدين ودعاة وأطباء وتجاراً ومزارعين. غير أنهم كانوا يشتركون جميعاً في كونهم تلقوا القدر الأوّلي المشترك الذي يتمثل في معرفة فرائض الأعيان من الدين، وتمييز الحلال من الحرام، وحفظ شيء من القرآن والسنة[1]. وحازوا قدراً من الاهتمام والتزكية والتوجيه في مرحلة أولية هيأت كل واحد منهم للتخصص في مجال محدد، دون سائر أقرانه فيما بعد.. وفق قدراته، ومدركاته، وطاقاته الكامنة. وما كان هؤلاء الأفذاذ ليصلوا إلى تلك المنزلة السامية لو أن معياراً (مادياً) قيّدهم منذ البداية، وحكم بعدم صلاحيتهم؛ حفاظاً على المال، أو الوقت، أو الجهد، الذي لا مصلحة في بذله معهم جميعاً في ظل الهدف المادي الأوحد الذي يراد منهم فقط!؛ وكثيراً ما يؤدي هذا

---

(١) العجب كل العجب ممن أصبح يسم الجهود المباركة في حفظ القرآن الكريم أو حفظ السنة الصحيحة المطهرة بوسام التشدد أو بمجانبة طريق التربية الصحيح أو بمجرد التركيز في بناء الطفل على مهارة واحدة فقط، وإنما الإبداع عندهم هو الذي يمر - وفق مصطلحهم لتعريف الإبداع والنبوغ - بكتب الإدارة الغربية، وعلم النفس ودورات المهارات الحديثة في فنون الاتصال، والقيادة؟!

الحرمان (الأولي) العام من الاهتمام والرعاية والتوجيه إلى ظهور نبوغ ارتدادي من نوع آخر يكتنفه الحقد والكراهية للمجتمع، لأنه يتولد غالباً من رحم الفاقة والمعاناة والحرمان، ولا تكاد تتضح نتائجه إلا فيما بعد من خلال النظر في نتائج هذا الإبداع (الشاذ) والنظريات التي تولدت عنه. وهذه من أبرز سمات النبوغ الغربي المعاصر ـ كما سيأتي ـ.

وهناك العديد من الفوارق المهمة والآثار المترتبة على اعتماد مفهوم الفروق الفردية في كلا المنهجين يطول ذكرها ويصعب حصرها في هذه الرسالة الموجزة ذات الهدف المحدد[١].

٤ـ عندما يفهم (كورتوا) معنى الحب (الدعوي) ؟!

يعتبر كتاب (لمحات في فن القيادة) من أجمع الكتب ـ التي اطلعت عليها ـ في بابها؛ فهو يقدم خلاصة خبرات عدد من القادة على شكل قواعد ونصائح تجمع بين الموهبة والاكتساب معاً. وهذه الخبرات التي يقدمها (كورتوا) في ثلاثة أبواب حول: حقيقة الرئيس، وبعض صفاته، وفنون القيادة هي خبرات بشرية قيمة شأنها في ذلك شأن سائر الخبرات البشرية التي تقدم في شتى العلوم المادية. وهي بهذا الضابط قيمة كثيرة النفع لدى أولئك العقلاء الذين يحسنون التعامل معها في إطارها التخصصي

---

(١) يحتاج مفهوم الإشراف ومفهوم الفروق الفردية كما أشرت إلى دراسات عدة تتميز بالأصالة والتخصص معاً للتغلب على المشاكل الدعوية المحدثة الناجمة من جراء اعتماد المعنى المادي لهما.

الذي حدده المؤلف. أما حين تصبح هذه الخبرات لدى البعض أصولاً لقواعد دعوية يقاس عليها بعض فروع المنهج التربوي، وآحاد المواقف التربوية، ويستشهد لها بنصوص شرعية محكمة.. فهنا يبدأ الحديث عن مفترق الطرق.

وحتى نتبين وجه الخطأ في القراءة التي سوف أسوقها بعد قليل نحتاج إلى فهمٍ سابق لطريقة المؤلف في عرض معلومات الكتاب وتقسيمها.

يتكون الكتاب من إرشادات ووصايا وتأصيلات. والأولى تتخذ غالباً صيغة الأمر والنهي: (افعل) و (لا تفعل) تأثراً بطبيعة الجندية التي لبث فيها المؤلف عمراً من قبل هذا الكتاب، والثانية تمثل خلاصة تجارب المؤلف الذاتية، وغالباً ما يقدمها بذكر مواقف من حياته العملية الخاصة، وتأتي الثالثة غالباً في ختام كل مبحث لتعزيزه وبخاصة إذا كان أمراً جديداً لا يدركه الأكثرون. وهي إنما تمثل أقوالاً ونصوصاً منقولة لمشاهير القادة والحكماء سواء من الغرب أو من الشرق. ونظراً لخلفية المؤلف واطلاعه على بعض الأديان والملل المنحرفة.. الشرقية منها على وجه الخصوص ـ كما يظهر في كثير من نقولاته وشواهده ـ لأنه يتعمد النقل كثيراً عن حكماء الهندوس، وأعلام البوذية، وكثير من الحكم المنسوبة للصينيين. وحرص المؤلف على هذه النقولات له هدف واضح بيِّن إذا أدركنا أهميتها في تعزيز الفكرة ومنحها قوة ومتانة يدعّم بها المؤلف موقفه.

ومجال الاستفادة ـ غالباً ـ تكمن في تحديد الفكرة ذاتها والاستفادة المتعقلة الموضوعية منها بغض النظر عن كل ما يحف

بها من معززات أو نقولات خارجية ربما حملت في طياتها أفكاراً أخرى جانبية لا تتعلق بدائرة البحث ومحور الفائدة على وجه الخصوص. ولذا فإن الطريقة الأولى والثانية. من طرق العرض في هذا الكتاب يمكن أن يكون مجال النظر ومحط الدراسة والاستفادة التخصصية لمن شاء ذلك، بخلاف الثالثة التي كثيراً ما تدخلها مفاهيم وأفكار وعقائد لا تمس صلب الموضوع. وحين لا يدرك القارىء ماذا يقرأ أولاً.. ثم كيف يقرأ ثانياً يحدث كثير من التداخل النشاز في هذا النوع من القراءة. وأكتفي بهذا المثال فقط للتوضيح. في الباب الثاني من الكتاب: (صفات الرئيس) حشد المؤلف ست عشرة صفة من الصفات المهمة لكل قائد - كما يراها هو - من خلال تجاربه ومطالعاته الكثيرة، وذكر منها (طيبة القلب). وهذه السمة - على عمومها وإطلاقها - من السمات المهمة التي يجب أن يتحلّى بها الرئيس، وهي من الأسباب الداعية لحب المرؤوسين له، وطاعتهم إياه، وامتثالهم أوامره. بهذا القدر من الفهم الواضح لهذه السمة يمكن القراءة، بعيداً عن الخوض في جوانب أخرى لا تمس بصلة لصفات الرئيس فيه. وكعادته في مباحث الكتاب الأخرى أورد (كورتوا) جملة من النقولات والشواهد للتأكيد على هذا المبدأ القيادي المهم منها قول (دوستويفسكي) في كتاب الأخوة لـ (كرا مازوف): «أيها الإخوان.. لا ترهبوا خطيئة الإنسان.. أحبوا الإنسان حتى في خطيئته؛ لأن هذه هي المحبة التي تشبه المحبة الإلّهية..»[1]. وهذه العبارة - كما ترى - خارجة عن جوهر

---

(١) ص: ٧٣، تعريب: المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٣، ١٩٨٦م.

البحث، وإنما سيقت لتعزيز الفكرة فحسب، ولا علاقة لها البتة بتحديد المعايير القيادية والأكاديمية. وفوق كل ذلك هي عبارة مسمومة، يعلم أبعادها العقدية والفكرية ذلك القارىء الحصيف الذي يدرك حقاً ماذا يقرأ. ويذهل القارىء حين يجد على هذا النص تعزيزاً آخر قام بكتابته أحد الدعاة الصالحين من أصحاب النوايا الحسنة كما نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحداً يتمثل في إدراج حديث نبوي شريف وهو قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»؟! وآية كريمة هي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ..﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وأخال أن سبب هذا الاستشهاد هو التقابل الذي فهمه هذا القارىء الكريم بين ألفاظ: المحبة والأخوة، والإلٰهية في قول (كرامازوف) وتلك التي تقابلها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. فإن كان ذلك هو السبب فما أبعد النظر، وما أعجب القياس بين المفهومين. ذلك أن المفهوم الغربي من هذه العبارة لا يصدق فيه إلا مثل الأعراب السائر: لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى. وتحقيق موطن الاستشهاد ـ على وجه العموم ـ لا يمكن إلا بتطبيق قواعد النظر الأساسية في أصول الاقتباس مثل ضرورة معرفة القائل والمقول، وتمييز حقيقة الكلام من مجازه، ومن ثم المعرفة التامة لحقيقة النص الآخر. وطريقة المقابلة الواعية لهما قضية حساسة جداً لا تتحقق إلا بتجريد نقاط الاتفاق والافتراق. ونحن حتى الآن لا نعلم من هو (كرامازوف) هذا، ولا توجد له أي سيرة ذاتية تبيّن حتى موطنه لنغلّب طبيعة تفكيره من مذهبه

العقائدي. ثم لا نعلم كذلك أي نوع من (الأخوّة) هذه التي ساقها في كتابه: أهي أخوة النصارى لبعضهم البعض أم أخوَة الرفاق في الشيوعية أم ماذا؟ غير أنها بلا ريب ليست أخوة الإسلام، ولا المحبة المتولدة عن الأخوة في الله ولا شيء من هذا القبيل. ومن خاض لجة هذه الأسلمة التي لا ساحل لها أتى بالعجائب وخرج بالغرائب. فأي وجه شبه بين أخوة الإيمان التي تدعو المسلم لأن يحب الخير لأخيه المؤمن كما يحبه لنفسه، وبين (عقدة الذنب) التي يراها النصارى، وتؤمن بها الكنيسة وتعتقد أنها ملازمة للإنسان منذ لحظة ولادته وحتى وفاته.. ذلك الإنسان المليء بالذنوب التي ورثها من خطيئة أبيه الأول، وورثتها المرأة من خطيئة أمها الأولى - كما يزعمون -، وهما بحاجة دائمة إلى المخلص (يسوع) أو من ينوب عنه لتلقى بين يديه آصار هذه الذنوب أو حتى من ينتظر يوماً في الأسبوع ليتطهر من أغلالها بنفسه وفق الخلاف المعروف بين مذاهب هذا الدين المحرّف.

وهذه الخطيئة الأولى تلازم الفرد - عندهم - حتى عندما يحب أو يتعامل مع الآخرين، ويظل - عندهم - على الرغم من كل ذلك هو الخطّاء المذنب؟! وأما كونها (محبة إلّهية) فلأن الإنسان - على خطيئته - يحبه الله، ولهذا أرسل إليه ابنه، وضحى به ليخلّص البشر من آثامهم - كما يعتقد النصارى في دينهم المحرّف - فكما يحبنا الله هذا الحب، ونحن مخطئون، فكذلك يجب أن نحب الناس بدورنا على خطأهم!!»

فإذا أدركنا أن هذا النظر الأولي للعبارة كفيل بعصمة صاحبه عن الخوض فيما لا يعلم.. فإن المعايير الشرعية الأخرى التي

جاء بها الإسلام لتضبط حدود التعامل مع الآخرين بالنظر إلى قضية الأخلاق وطيبة القلب عاصم آخر وحاجز آخر؛ فالمسلم يرهب خطيئة أخيه، وتنقص محبته له بمقدار نقصان إيمانه بارتكاب الخطايا، وحب المؤمن لأخيه يدعوه لأن ينكر عليه ويقوّمه ويسدده وينصحه لا أن يتغاضى عن منكراته وذنوبه للحفاظ على هذه الصحبة والأخوة من المكدرات. ومقتضى الحب الصحيح في الإسلام هو القيام بواجب الأمر والنهي، وحجز الأخ عن موارد الهلاك، وردعه عن مواطن الزلل والآثام، عملاً بقول النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»[(١)] بمفهوم النبي ﷺ وحده، لا بمفهوم (كرامازوف) ولا (دوستوفسكي) ولا (كورتوا).

إن الإشكالية هنا إذن ليست في الجهل - غالباً - بهذه المفاهيم الأساسية من الإسلام التي سريعاً ما تغيب عن الأذهان والعقول عند مطارق الانبهار الأولى، وإنما في درجة اليقظة والوعي، وعدم الثقة بكفاية القرآن والسنة أو ضعفها. والدليل على ذلك أن كثيراً من هؤلاء القراء سريعاً ما يتبصّرون الخلل، ويرجعون للصواب بعد أن يتذكروا، ويزول عنهم طائف الشيطان. وسكرة الانبهار الأوليّ بالنصوص الغربية التي تصيب البعض تشبه إلى حد بعيد ما يعتري ذلك الذي يلج حلكة الظلام بعد وهج النور الساطع، ثم لا تتبين له الحقائق، ولا يتبصر ما

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري والترمذي وأحمد رحمهم الله أجمعين عن أنس رضي الله عنه ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**». قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «**تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره**».

حوله إلا بعد برهة من التريث والسكينة وإمعان النظر وعودة البصر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1]. وهذا شأن عدد من أصحاب النوايا الصادقة المخلصة الذين يؤتون من باب الانجذاب للعبارات القوية، والأفكار المتخصصة الأكاديمية، من غير تبصر في الحقائق والأغراض، ومن باب المشاركة الوجدانية لتلك النصوص، ولو من قبيل هذا النوع من (التأصيل) المشوّه!

أما شأن غيرهم ممن لا يستهدي بكتاب الله تعالى، ولا بسنة رسول الله ﷺ ويرى أن غيرها من أقوال البشر أفضل أو مماثل، أو أنه يسعه ترك ما قال الله سبحانه وقال رسول الله ﷺ لقول فلان وفلان فهذا خارج عن دائرة الحديث والنصح؛ لأنه خرج عن هداية الله وكفايته، وضلَّ عن سبيل المؤمنين.

وكل من نصّب نفسه إماماً أو باحثاً في باب من أبواب الإسلام سواء في التربية أو الاجتماع، أو في الاقتصاد أو الإدارة، أو في أي مسألة تتخذ وسام (الإسلام) شعاراً لها ثم استهدى بعد ذلك بغير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ حرمه الله هداه، أو استغنى عنهما بغيرهما فلا أغناه الله، أو استكفى بما سواهما دون الكفاية بهما فلا كفاه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم . . بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾﴾[3]. وقال عز شأنه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) يونس: ٩.

(٣) محمد: ١٧.

ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[1].

٥ـ الخطوات الذكية.. لإدارة الأفراد (المادية) !!

● بعيداً عن معايير الفضائل والقيم!!:

في التربية المادية الغربية تكتسب الأشياء مكانتها بمقدار القيمة المادية التي تقابلها. وبعيداً عن معايير القيم التي تعطي العمق الحقيقي لمعاني الفضيلة أو الرذيلة ـ غالباً ـ، فإن (المصالح) التي يسعى الأفراد في الغرب إلى تحقيقها هي المعيار الذي يحدد ـ عندهم ـ مفهوم الفضيلة أو الرذيلة للأشياء.

وكما أن (الغاية) عند الغربي تبرر (الوسيلة) فكذلك (المصلحة) هي تاج الفضائل والمكاسب، وفقدها هو جوهر الرذائل والمعايب. وحتى في أعمق أغوار التربية الغربية ـ المشرقة في الظاهر ـ يظل المرادف المادي، والنتيجة المصلحية هي المحرك الحقيقي للأفعال، وردود الأفعال، لا محض الفضائل والقيم ذاتها. وليس عسيراً أن تجد هذا المنهج التربوي المادي سارياً في جميع مراحل العملية التربوية أو الإدارية كذلك.. بدءاً من التخطيط وانتهاء بالتقييم ـ كما سبق ـ ومروراً بالحكم على الوسائل والمناهج المتبعة. وحتى (الإقناع) بصلاحية الأشياء

---

(١) المائدة: ١٥، ١٦.

أصبح مرتبطاً بهذا النهج التقابلي المصلحي، بحيث أصبح الغربي لا يقدم على أمر ما لم يتبين له نفعه المادي العاجل، ومصلحته المشاهدة المحسوسة. واضطرد هذا النهج التربوي في (كل شيء).. بدءاً من إقناع الطفل بجدوى التعليم ومروراً باختيار التخصصات الدراسية العلمية أو المهنية، وطرق التعامل مع المرؤوسين، وحتى أسلوب التواصل المصلحي مع الأصدقاء والأقارب،... وفي كل شيء. والسبب ظاهر جداً وهو تكريس النزعة المادية التي تصور الحياة الدنيا للأفراد على أنها هي نقطة البداية وهي نقطة النهاية كذلك، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[١]. (فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس..)[٢].

والمؤمن بخلاف ذلك تماماً.. إنه لا يرى هذه الدنيا إلا محطة قصيرة للعمل، وسوف يعقبها دار أخرى هي دار الخلود والراحة والجزاء. ولهذا فالدنيا لا تمثل بالنسبة له شيئاً يذكر مقارنة بعالم الغيب الذي ينتظره بعد الموت، ولذا تجد معايير الفضيلة والرذيلة ترتسم أمامه بوضوح تام، وتظل (المصلحة) محاطة بإطارها الشرعي الجميل أمام كل المغريات والشهوات، بخلاف تلك النظرة المادية بمعاييرها غير المنضبطة. وهذه الروح المادية ـ التي انتقلت إلى عدد من المفكرين والمثقفين في عالمنا

(١) البقرة: ٩٦.

(٢) تفسير الإمام السعدي رحمه الله: ص ٤٢.

الإسلامي مؤخراً - لا تؤمن إلا بالنتائج المادية المحسوسة، وتعتقد أن النجاح في إقناع الناس بجدوى أطروحة ما، أو أسلوب ما، كامن في درجة عرض المقابل المادي المصلحي الذي سيحصلون عليه، أو سيخسرونه عند اعتمادهم ذلك الأسلوب، أو تفريطهم فيه.

وعلى هذا النهج التربوي والإداري المادي في الطرح شواهد كثيرة جداً في الكتب المعربة، أو الكتب العربية التي حذت حذوها، وكذا الدورات الإدارية الحديثة، والأطروحات المؤخرة في مجال (صناعة) القادة والنجاح وفنون التعامل!!

ورد في الفصل الرابع من **كتاب** (قواعد في إدارة الاجتماعات) لمؤلفه: (كيث كينان) وترجمة: مركز التعريب والترجمة هذه الروح المادية في تصوير أُهمية الاجتماعات للأفراد وإشعارهم بمكانتها؛ ففي موضوع: (ضبط الاجتماع) يوصيك المؤلف قائلاً: (أبلغ الآخرين المشاركين عن (كلفة) الاجتماع، لكي يفهموا دقة الوقت، كالقول: الاجتماع (يكلفنا) من حيث الوقت الضائع في العمل كذا وكذا، وبالتالي فإن كل دقيقة نضيعها تكلف كذا وكذا، لهذا أقترح عليكم استغلال الوقت المحدد أقصى استغلال...)(١). وهذا كلام معقول إذا كان صادراً من رئيس الشركة لموظفيه مثلاً، بل هذا هو مجال العبارة وإطارها الوحيد الذي سيقت من أجله. لكن اعتماد هذا الأسلوب في تصوير أهمية الاجتماع (الدعوي) أو التربوي لن يكون صواباً مطلقاً على الرغم من أهمية معيار ضياع المال أو الوقت المبذول

---

(١) الفصل الرابع: ص ٣٦.

من أجل عقد هذا الاجتماع، بل سيحمل الحاضرين على فهم مغاير تماماً لطبيعة الهدف الذي يجتمعون من أجله. حتى وإن استبدل الداعية المسؤول الذي تأثر بهذا النص الغربي قيماً تقابلية أخرى سوى هذه القيم المادية في هذا النص المعرب فإنه لن يصل إلى الخصوصية المطلوبة التي يجب عليه إبرازها بشكل رئيس لتصوير الأهمية الحقيقية لذلك الاجتماع الدعوي. ولن تبرز هذه الأهمية إلا بالتأكيد على ثوابت شرعية مهمة كالإخلاص. وطلب العون من الله وحده، واستشعار المسؤولية التي يمكن إدراج سائر القيم المادية الأخرى - كالمال والوقت والجهد - في طياتها. وإذا انتقلت إلى أي كتاب غربي آخر فإنك تجد النهج المادي ذاته في تصوير قيمة الأشياء، بعيداً عن معايير القيم والفضائل التي تكسبها قيمها الحقيقية. ففي كتاب (الخطوات الذكية) يقابلك التوجيه ذاته عند معالجة القضية نفسها، ولكن بعبارة أخرى: (كم بالضبط من الوقت والجهد والمواد والمال يذهب هدراً لتصحيح الأخطاء التي يرتكبها الموظفون؟!)[1]. وهذه هي العبارة ذاتها التي بات يرددها اليوم عدد من المربين المسلمين والدعاة في مجالسهم، وتشكل وسيلة الإقناع (الناجحة) عندهم لتحسين مستوى الأداء، وتحفيز العاملين. مع أن سياق هذا النص الغربي وسباقه ولحاقه دائر في محيطه المؤسسي الموجه للموظفين، وغايته المادية معلومة لكل متأمل بصير.

ولعل المثال الأخير الذي يحسن إيراده هنا ما يتناول موضوع (إدارة الحوافز المادية) الذي يكثر طرحه في هذه الكتب

---

(١) ص١٤٣.

الغربية، ولا يدرك حقيقته عدد من الدعاة والتربويين الذين يعتمدونه في إدارة الأفراد وتربيتهم. والمعنى المرادف لهذا النوع من الإدارة لا يمكن فهمه حتى يُفهم إطاره المادي هذا.. أو بعبارة أخرى ـ كما ورد في كتاب (الخطوات الذكية) ـ: (.. حتى يكون المال حافزاً يجب أن يكون الحصول على المزيد منه (هدفاً) بحد ذاته..). وجعل المال هدفاً يسعى إليه الموظف الغربي كفيل بهذا النجاح المادي الذي يتحدث عنه الماديون في باب إدارة الحوافز، أو بعبارة أصرح ترسيخ التربية المادية في النفوس حتى يتولد لدى الموظف اعتقاد راسخ بمقولة العقوق الأولى: (إنما أوتيته على علم عندي).. لكل زيادة أو ترقية أو مكافأة يحصل عليها في الشركة. وهذا ما نقرأه بوضوح في الكتاب ذاته بعد أسطر قلائل بقول المؤلف الغربي: (.. يجب أن يعي الموظفون أن الزيادات التي يحصلون عليها تعكس مباشرة مستوى أدائهم.. يجب أن تكون قناعاتهم كالتالي: «لقد حصلتُ على هذه الزيادة نتيجة (جهدي)، وإذا تابعت أدائي المتميز الفترة القادمة فإنني على الأرجح سأحصل على علاوة أخرى، لذا فعليّ أن أجتهد في عملي»..)[١]. وأما قوله: «يجب أن يكون الموظفون راغبين في بذل الجهود المطلوبة لتحسين أدائهم»[٢]، فلا يسعف أرباب الفهم المتعجل لهذه النصوص؛ لأنه لا يمكن أن يفهم إلا بهذا المعنى المادي التقابلي.

ولنا بعد كل هذا أن نتصور أي تربية سوف يخرج بها من

(١) ص١٤٤.

(٢) ص١٤٥.

ترسم هذه القواعد المادية في إقناع الأفراد وتحفيزهم؟! ومن ثم مكافأتهم وتشجيعهم، أو بأسلوب آخر يعرضه الكتاب ذاته (خطوات لجعل موظفيك يقدمون (أفضل) ما عندهم)[1]. في عشر خطوات موجهة ليس منها ـ بطبيعة الحال ـ خطوة واحدة تشعرهم بأهمية ميزان القيم والأخلاق والفضائل، والإخلاص في العمل، ومراقبة الله تعالى الذي يمثل الزاد الحقيقي والمحرك الفاعل الذي لا يستغني عنه المربي المسلم والفرد المسلمَ ـ أياً كان موقعه ـ في كل حركة وسكنة يقوم بها.

• **كن سيد الموقف؟!:**

بالإضافة إلى سمة (الجرأة) غير المحدودة التي يخرج بها الفرد الذي تلقى التربية المادية بصورتها المعاصرة.. فإن (التنافس) والصراع مع الآخرين من أجل التفوق المادي الظاهري يعد أبرز أثر يمكن تسليط الضوء عليه في مناهج هذه التربية ونظرياتها القيادية والإدارية والتربوية. وهذا ما أصبح يُنادي به كثير من مؤلفي الأطروحات العربية المشوهة اليوم في مجال الإبداع، والإدارة، والقيادة التي تعج بها الساحة الثقافية. ولا يحتاج الباحث إلى كثير وقت لاستخراج هذا النوع من (الصراع) في طيات هذه الكتب المعربة وعناوينها البراقة. فإذا نظرت ـ على سبيل المثال ـ لتلك الوصايا الغربية الموجهة للأفراد والتي تحدد طرق الانتفاع بالاجتماعات واللقاءات فسوف تجد من بينها: (اجلس بحيث تكون قبالة قائد المجموعة، إن هذا سوف يؤدي إلى إشراكك في النقاش بصورة أكبر وإلى (بروزك)

---

(١) ص١٣٩.

أيضاً..)[١]. وهي وصية غالية تقدّم لذلك الموظف الغربي الذي يسعى جاهداً من أجل تحسين مستواه المادي، ويناضل في سبيل إيجاد مكانة رفيعة لدى المسؤول عن الشركة تزيد من رصيده الاجتماعي داخل الشركة كذلك. غير أن هذا المكان، وذلك البروز، وهذا التصنّع والتملّق ليس مما يحرص عليه الفرد المسلم الصادق أثناء اجتماعاته الوظيفية العادية، فكيف الحال باجتماعاته الدعوية والتربوية[٢]؟! إنه يستحضر تماماً النهي الشرعي الوارد عن العجب والتعالي وحب الظهور، كما يعلم الأدب النبوي الوارد في المجالس ويعلّمه غيره، فيتحرى الجلوس حيث ينتهي به المجلس، ولا يتعمد القيام لأي أحد كان، ولا يطلب من أحد القيام له، ويحذر من التبجيل الزائف والغلو، أو التقعر في الكلام، أو الرياء.. كما يتحاشى تخصيص أي بروتوكولات معينة داخل الاجتماع لإظهار التميّز والفضل على الآخرين.

ولقد كان ﷺ أحزم الناس في فن التفاوض، وإدارة الحوار، وأخبرهم في إدارة الاجتماعات والفصل في الأمور.. بمقدرة فائقة لا يدرك عظمتها كبار فشاري الغرب اليوم، لكنه

(١) الخطوات الذكية: ص ١٧٤.

(٢) لا يعني هذا الكلام بحال ترك الصدارة لضعاف الإيمان أو قليلي الخبرة العلمية أو الأكاديمية وفتح المجال لهم للتغيير أو التعديل كيفما شاءوا بل يجب رفع صوت الإسلام عالياً والجهد بمحبوبات الله ورسوله على طاولات البحث والاجتماعات من غير الوقوع في محاذير ظاهرية أو باطنة من حب التعالي أو التكبر أو الغرور الذي يبغضه الله ويحرم صاحبه التوفيق أو القبول من الناس.

كان يجلس ﷺ كآحاد أصحابه رضي الله عنهم، ولربما قدم الأعرابي وهو بين أصحابه ﷺ فيسأل عنه لأنه لم يتعرف عليه من بينهم، لشدة تواضعه ﷺ. والأمثلة على ذلك كثيرة أيضاً ولا تحصى في حياة السلف أجمعين عليهم الرحمة والرضوان.

قال الحارث بن مسكين رحمه الله: كان ابن القاسم رحمه الله لا يُقدم عليه أحدٌ من أهل الفسطاط، وقد رأيته وأنا حدث، حدثني ابنه إسحاق قال: ما كان أبي يجلس على طنفسة، وكان طويل الحزن خازناً للسانه، وربما جاءه المحدثون، يقول لهم: تعلموا الورع».

وقال الأعمش رحمه الله: «كان إبراهيم النخعي رحمه الله صيرفياً في الحديث، وكان يتوقى الشهرة، وكان لا يجلس إلى الأسطوانة».

ولا عجب في ذلك فقد كان الصحابة عليهم الروح والرضوان يتلقون هذه التربية على يد رسول الله ﷺ، ثم نقلوها بدورهم إلى من بعدهم غير أنا قطعنا سند الإبداع الحقيقي بأنفسنا عن سلفنا، ووصلناه بعقوق غريب إلى أبعد الناس عنا!؟

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث انتهى».

- **فاوض.. لتفوز؟!**[1]:

عنوان مثير للاهتمام حقاً في ضوء ما قرأنا وتعلمنا، وتأدبنا من كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ حول أدب الحوار،

---

(١) الخطوات الذكية: ص ٢٠٩ـ ٢٢٦.

والتفاوض بالحسنى الذي لا هدف من ورائه إلا البحث عن (الحق) والوصول إليه والتزامه، بغض النظر عن مصدره. هذا هو الهدف الحقيقي للتفاوض في الإسلام، وذلكم هو السبب الباعث للحوار بين الأفراد، الذي ورد كثيراً على لسان أكرم الناس خلقاً وخُلقاً عليه الصلاة والسلام. ومع كونه أشرف الناس، وأصدقهم لهجة ﷺ ولا يشك في كون الحق معه بالبراهين والبينات إلا أن الأمر يأتيه من الله تعالى بأن ينصف خصومه ويقول: «**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**». إلى هذه الدرجة من الإبداع.. وإلى هذا الحد من الإنصاف والعظمة!! قال القرطبي رحمه الله: «**هذا على وجه الإنصاف في الحجة**، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب»[1].

أما أن يكون التفاوض ـ كما هو عليه اليوم في نظر الماديين ـ معلوم النتيجة مسبقاً، واضح الهدف سلفاً وهو.. الفوز، فهذا ما يحتاج إلى تأمل ونظر، وإعادة مراجعة وتقييم للمنهج التربوي ونتائجه السلبية[2]. وهذه المادية التي تتكرر دائماً في حياة الغرب.. تصوغ أفكارهم وأطروحاتهم، وتحدد إطار تعاملهم مع الآخرين. إنه السعي للكسب والتفوق ولو على حساب التنازل عن المبادىء والأخلاق والقيم الإنسانية. ولا يقتصر هذا التحدي في العنوان فقط بل يتجول بك الكتاب الذي جاء فيه هذا العنوان في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٨/٧.

(٢) قد يناسب أسلوب الحوار هذا، من وضوح الهدف مسبقاً والحكم بخطأ الخصم ذلك الجدال مع المخالفين للسنة أو المعرضين عن الحق. أما أن يكون منهجاً عاماً في كل حوار وتفاوض مع أهل الإسلام، وبخاصة فيما يسوغ الخلاف فيه بينهم وكان الحق فيه مع الطرف الآخر فكلا.

ساحة حرب حقيقية يصوغها المؤلف على طاولة التفاوض بين الموظف والمدير، وفيها يسعى كل منهما بدوره للفوز، وانتهاز غفلة الخصم الآخر لتوجيه (الضربة القاضية) ضده. إنها باختصار لعبة الحياة المفترسة التي يؤمن بها الغربي في غابة الحياة المادية الضارية التي لا يحق فيها البقاء إلا للأقوى!! وهذا المثال لنوعية التفاوض الغربي يطرحه الكتاب بكل وضوح في هيئة مثال يتكرر دائماً في حياة الغرب المادية بقوله: «فمثلاً أنت تريد أن تأخذ إجازتك في شهر حزيران، ومديرك يريدك أن تأخذها في كانون الثاني. أو أنك تعتقد أن أحد موظفيك يستحق تقديراً متوسطاً على أدائه فيما يعتقد مديرك أنه يستحق تقديراً ممتازاً... الخ»[1].

وكثيراً ما بات يستهوي هذا السرد للمصطلحات الإدارية ـ مثل: (الأداء) و(التقدير المتوسط) أو (الممتاز) ونحوها ـ كثيراً من المسلمين وبخاصة الدعاة والمربين الذين يسعون مباشرة لربطها بواقعهم الدعوي، والتربوي، مع أن اتحاد الألفاظ لا يعني بالضرورة اتحاد المعاني والأغراض ـ كما سبق ـ. وزيادة في تكريس هذه النزعة العدوانية فإن التبرير الذي يقدمه لك الكتاب متمثل في سببين رئيسيين لزيادة الاهتمام بهذا النوع من التفاوض (**أولاً**: لأن الإدارة بالإقناع والتوجيه قد أصبحت تتمتع بشعبية الآلة الكاتبة، إذ يجب على المدراء أن يمارسوا (التأثير) على الآخرين وإقناعهم ثم (بيعهم) أفكارهم، وكل هذه المهارات مهارات تفاوضية... الخ) ثم يشير إلى السبب الثاني وهو سبب مادي كذلك يعتمد أسلوب المصلحة التي يغلبها على كل شيء آخر فيقول: (**ثانياً**: أن المدراء في

---

(١) الخطوات الذكية: ص ٢١١.

التسعينات يجدون أن تحقيق الحد الأدنى المطلوب من التفوق سوف يتطلب منهم تحقيق (المزيد) من (الإنتاج) باستعمال (أقل) ما يمكن من الموارد. إن المصادر الأساسية المتوفرة لدى كل شركة كالمال والموارد والناس والتسهيلات والوقت والمعلومات سوف تصبح (أكثر) تكلفة وندرة. . .)[1].

وعلى هذا فإنك في: (فاوض لتفوز) تبدأ بقراءة وصايا يجب عليك اتباعها لكي تكتسب هذا النوع من المهارات (الغربية) الضرورية. ولا ينسى الكاتب أن يعرض عليك أمراً في غاية الأهمية، لا يخلو منه أي حوار أو تفاوض، وهو: كيفية التعامل مع اعتراضات (الخصم) الآخر، فيفاجئك بعنوان يحمل تحدياً آخر: (ثماني خطوات للتغلّب على (أي) اعتراض)؟! وكل هذه الخطوات الثماني تصب في تنمية جانب مهم في شخصيتك العدائية ألا وهي: طريقة تعاملك أنت مع ذلك المفاوض، وتعلّمك مهارة الفوز عليه بالضربة القاضية؟! من غير أن يترك الكاتب احتمالاً ـ ولو ضئيلاً ـ للتعامل مع كون ذلك المفاوض محقاً، أو كان يطالب بحق مهضوم عجز عن الوصول إليه؛ لعدم إدراكه لمهارات التفاوض والحوار هذه. وكم من فرد عادي، ومن موظف مسكين، ذهبت حقوقهم، وأنهكت قواهم من جراء هذا النوع من التفاوض الإداري الجائر. لكنه الصراع المادي الذي يعيشه الغرب، لكن بأسلوب جديد منظم يعتمد هذه المرة على (أحراش) المكاتب، والاجتماعات، والمفاوضات وإن كانت نتيجته معلومة سلفاً. استخفاف بالحقوق، وتكبُّر عن قبول

---

(١) الخطوات الذكية: ص ٢١٢.

الحق، وازدراء للطرف الآخر، ومراوغة من أجل.. الفوز. وعندما يُصوّر لنا هذا النهج الغربي على أنه الأسلوب الدعوي (الأمثل) في التفاوض والحوار مع الآخرين تظهر آثار الخلل بوضوح؛ فلربما تحول الحوار الهادئ مع أحد أولئك المثقفين من إخوانك الذين انتهجوا هذا النوع من الجرأة والتنافس، وغرس فيهم هذا النوع من التعامل العدواني في المفاوضات، إلى جدل عقيم، أو ساحة حرب كلامية لا هدف من ورائها إلا المراوغة من أجل الفوز.. لا من أجل الوصول إلى الحق.

ويكفي هذا المفتون بمنهج الغرب في الإدارة والتربية أن يُحرم أكمل الهدي وأعظمه في هذا الباب وغيره، والذي لا يجده البتة في غير الكتاب والسنة، وسيرة سلف الأمة الصالح. عن مجاهد رحمه الله قال: «ليس أحد من خلق الله إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ». وقد كانوا ـ رحمهم الله ـ ينهون عن الجدال والمناظرة ابتداء، وبخاصة في أمور الدين. قال الهيثم بن جميل رحمه الله: قلت لمالك بن أنس رحمه الله: يا أبا عبدالله الرجل يكون عالماً بالسنة أيجادل عنها؟! قال: لا، ولكن يخبر بالسنة فإن قُبلت منه وإلا سكت». فإذا احتاجوا للمناظرة رحمهم الله كانوا أنصف الناس لخصومهم، وأبعدهم عن المراوغة والأنانية، بل كانوا يسألون الله الوصول إلى الحق.. ولو على لسان خصومهم. قال الشافعي رحمه الله: «ما ناظرت أحداً إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على لسانه»[1]. فإذا استبان لهم نور الحق عند خصومهم، وتبينوا معالمه كانوا أسرع الناس رجوعاً

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٩/١٠.

إليه، ولم يكن يمنعهم منه شيء أياً كان، بعد أن قرأوا وسمعوا وتأدبوا بقوله ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[١] بل كان يوصي بعضهم بعضاً بهذا الأدب الرفيع من آداب المناظرة، بدءاً من التجرّد عن الهوى وعدم ادعاء أحدهم علم ما لا يعلم، وانتهاء بالاعتذار عن الخطأ إذا حصل، والتسليم للحق والرضى به. وقد كان علي رضي الله عنه يقول: ما أبردها على الكبد ـ ثلاث مرات ـ فقالوا: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يُسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم»[٢]. وقال عمر في رسالته لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «... ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك، وهديت لرشدك أن تعود فيه إلى الحق، فإن الحق قديم، والرجوع إلى الحق خير من التمادي بالباطل». فهذه سيرتهم، وهذا منهجهم، رحمهم الله. فمن كان مستهدياً فليستهد بهم، ومن طلب الفوز فلا يعدو ركابهم. قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم، فلعمري إن اتبعتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»[٣].

ولنختم الحديث حول هذه القراءات ـ مع ترك الكثير منها حفاظاً على خصوصية الرسالة وحجمها ـ بذكر بعض الأمثلة حول جملة مختارة من (النتائج) التربوية الخاطئة من جراء اعتماد هذا التطبيق الخاطىء للمفاهيم الغربية المعربة. ولتكن هذه المرة أمثلة عملية من صلب التربية المباشرة للأفراد وبخاصة الأحداث منهم.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد.

(٢) مقدمة صحيح مسلم: ١٦/١.

(٣) صحيح جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر: ص ٣٧٠.

جناية التربية المادية على الأطفال !!

قد لا يفوق آثار هذه التربية الغربية - والتربيات الأخرى الناقلة عنها - وجنايتها على المربين والقادة والدعاة آثار أخرى أشد خطراً وأفتك أثراً من جنايتها على الأطفال، واستحداثها مناهج جديدة في التعامل معهم. وتتمثل هذه الجناية - باختصار - في تركيز الجهد التربوي نحو تغذية العقل والجوارح، مع إهمال متعمد لتغذية القلب والروح. والناظر في وسائل التربية الحديثة ومناهجها وخطاب دعاتها - حتى في بلدان المسلمين اليوم - يجدها تحذو حذو الاتجاه ذاته وتعززه باستمرار. وبهذا تتخرج من هذه التربية أجيال تلو أجيال تعاني من تشبع زائد في تربية الجسد والجوارح يصل إلى حد التخمة، بينما تعاني من جفاف شديد في مناهج الإصلاح القلبي يصل إلى حد العدم. وليس غريباً من جراء هذه التربية أن ينحصر باعث الإقناع لديها في تحديد معيار الصلاح من الفساد في مجرد الاقتناع العقلي أو الدافع الشهواني فحسب. ولا تكاد تجد للتأثير القلبي فاعلية موجهة ولا أهمية تذكر. ويوم أن تتحرك أفواج الأجيال المسلمة مع إشراقة كل صباح نحو أعمالها ومدارسها ومواقع العمل الاجتماعي المختلفة، بكل طواعية وانشراح صدر بينما لا يكاد

يهزها ولا يحركها داعي الفلاح لصلاة الفجر فإن أزمة تربوية حقيقية تتطلب وقفة جادة من الغيورين، ومناهج علمية استقرائية، وبرامج عملية واعية لتصحيح المسار.. من البداية؛ بل ما قبل البداية.. عبر صيانة دقيقة للبيت المسلم، وإيجاد مناهج إسلامية أصيلة ينشأ عليها الطفل نشأة سوية، بعيداً عن مؤثرات الحياة المادية ومناهجها الفاسدة.

وكم يعجب القارىء ـ الذي هداه الله وكفاه ـ لأطروحات إسلامية متعددة في تربية الأطفال كيف غفلت عن مناهج عظيمة رائدة سبق إليها عدد من العلماء المسلمين الكبار أمثال الأئمة الأربعة وعلماء الحديث والأثر من أمثال ابن تيمية وابن القيم، وابن الجوزي، والخطيب البغدادي ونحوهم من أعلام الإسلام عليهم الرضوان. غير أن الأشد على النفس أن تؤلف مؤلفات تربوية معاصرة يُزعم بأنها (فكر تربوي) لأحد أعلام الإسلام هؤلاء يقوم بها باحثون مسلمون أيضاً، ثم تجد في الحاشية مراجع لعلم نفس النمو أو علم النفس التربوي أو علم النفس التجريبي والسلوكي المعاصر ونحوها. وكأن هذا الباحث المسلم لا يمتلك القدرة وحده على استخلاص هذه المفاهيم التي يريدها من كلام هؤلاء العلماء، مع أنهم من علماء التربية في الإسلام وكلامهم وأسلوب حديثهم أوضح من كل مصطلح أو رطانة، فيلجأ إلى الطريقة الشائكة عبر اعتماد تلك المفاهيم الغربية القاصرة الموجودة في كلام أهل الغرب لتكون معياراً ضابطاً لمسار قواعد النور والهدى في كلام أئمة الإسلام؟!.

حتى لقد بات من الثوابت التي لا تقبل النقاش عند البعض ـ وإلى الله المشتكى ـ أن الله تعالى قد أحوجنا ـ بالإضافة إلى

كتابه وسنة نبيه ﷺ، وفهم سلفنا الصالح - إلى نظريات (آميل دوركايم)، وهرطقات (جون ديوي)، وسنحات أفكار (رايخ) و (فرويد) و (نيتشه) و (موللر) وغيرهم. والعجيب - كما يقول أحد الدعاة الفضلاء - أنها باتت ثوابت راسخة لدى كثير من منظري التربية الإسلامية، وأعلام الدعوة في هذا العصر؟![1] وهذا أثر رجعي لتربية مادية نشأها هؤلاء بدون وعي.. وأحكمها الغرب في ديار الإسلام منذ قرون بلسانه الأعجمي، أو بلسان آخر معرّب أفصح منه. ولم يكن من ضمن مناهج هذه التربية العقيمة في العصر الحديث بطبيعة الحال تفسيراً موضوعياً لقول الحق سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾، وقوله تقدس وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وقوله ﷺ: «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض**». ونحوها من النصوص الشرعية الواضحة في هذا الباب.

وظهور هذه القناعات بين الحين والآخر بضرورة اللجوء للغرب في صياغة تربيتنا الإسلامية الخاصة ما هي إلا إفرازات

---

(١) والحجة التي تتكرر دائماً على الألسنة أن: (الحكمة ضالة المؤمن) وأن: (الحق أحق أن يتبع). ونحوها من التبريرات التي تفتقر إلى أساسيات النظر في ضابط تلك الحكمة وحدودها والتفريق بينها وبين غيرها ومعايير الحكم على تلك النظريات الشخصية التي يوجد في الغرب نفسه ما يناقضها بأنها من (الحق). ثم تفتقر إلى الثقة المطلوبة بأصالة المنهج، حتى لا تتحول هذه النظريات الغربية الوافدة إلى أصل يقاس عليه فيما بعد، ومنهج متبع في حد ذاته.

لتربية طفولية طويلة، ثم نشأة علمية فعملية بعد ذلك وفق المنهج المادي الذي ضرب أطنابه، وشرّع خيامه في عالمنا الإسلامي اليوم.

إن الطفل في التربية المادية ينشأ على التناقض من أول يوم، ويتشبع قلبه النقي الطاهر بالشوائب والعلائق، حتى يصلب عوده، ويتسنّم مواقع التوجيه ويخوض غمار الحياة. وهذه التربية تتعمد تعطيل قضية القلب وتجعله منهجاً ثانوياً مرحلياً، بينما تعطي الجانب العلمي والمهاري والفكري كامل الاهتمام باستخدام طرائق الإقناع المتعددة، والتجارب العملية المحسوسة وغيرها. وهكذا اتبعتها المدرسة العقلانية في العالم الإسلامي، بشيء من التحوير والتأصيل استطاعت به إقناع المجتمع بأن هذا هو المنهج التربوي الإسلامي الذي يناسب العصر. . جاهلة أو متجاهلة أصالة المنهج القرآني النبوي في التربية الذي يصلح وحده لكل عصر.

إن المنهج القرآني في تربية النفس يقوم على قطبين عظيمين - كما يقول ابن القيم رحمه الله - وهما: قطب التخلية، وقطب التحلية. وقد استغرق قطب التربية الأول أكثر من نصف القرآن، ونصف مدة الدعوة النبوية الكاملة. وتعد تربية الطفل أنموذجاً فريداً خاصاً في تقرير هذا المنهج؛ إذ لا يستهلك من المربي سوى التركيز على قطب واحد منهما هو قطب التحلية فحسب. والسبب في ذلك هو صفاء قلب الطفل، وطهارة روحه، وخلو عقله وفكره من الشوائب والعلائق. فيحلّى هذا القلب الطاهر بالإيمان واليقين، ويغذّى بحب الله تعالى، وحب نبيه ﷺ، وحب دينه، وحب أولياء الله الصالحين، وسائر معالم

التحلية القلبية الأخرى التي ترسخ في وجدانه وتستقر في قلبه؛ لتصوغ بعد ذلك معالم الصلاح كلها.. في عقله وفكره وجوارحه. وهذا المنهج الأصيل في التربية - الذي يرتكز على أساس البدء من نقطة التغيير الحقيقية في الإنسان ألا وهو القلب - جاء واضحاً أشد الوضوح، صريحاً غاية الصراحة في قول النبي ﷺ: .. **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب..»**[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**»[2].

وجناية التربية المادية الغربية، أو التربية العقلانية التي تزعمت التحدث بلسان التربية الإسلامية في مجتمعاتنا المعاصرة تكمن في سلوكها خطاً مغايراً تماماً لهذا الاتجاه الأوحد في تربية الطفل. إنها تُغرقه بالمتناقضات، وتشوه - منذ البداية - صفاء هذا القلب النقي، بالعلائق والأخلاط الرديئة، بدلاً من الشروع في التحلية المطلوبة. فيجتمع الخلل من ثلاثة وجوه: إغراق متعمد بالشهوات منذ الصغر، وتكريس للعلائق الفاسدة، مع غفلة عن مهمة التحلية المطلوبة للقلب، ثم توجيه مركّز ومكثف لسائر مناهج التحلية الأخرى نحو العقل والجسد، والمدركات العلمية

(١) حديث صحيح متفق على صحته من رواية النعمان بن بشير رضي الله عنه، وطرفه: «**إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات...**» الحديث.

(٢) متفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

المحسوسة فقط. من خلال ذلك كله تنجح هذه التربية في جعل المادة (صنماً) قائماً في القلب يسيّر حياة الطفل، ويصوغ أهدافه المستقبلية فيما بعد. وكثيراً ما كان يكرر ابن القيم رحمه الله التحذير من صنمين اثنين هما: صنم العُلاقة وصنم العادة اللذين ينشأ الطفل ـ وفق الفطرة السوية التي ينشأ بها ـ خالياً منهما، نقياً طاهراً من آثارهما. وهنا مفترق الطرق الحقيقية وفيصل النزاع بين التربية الإسلامية والتربية المادية. إن التربية الإسلامية الأصيلة ما جاءت إلا لتقضي على كل صنم يحول بين العبد وبين كمال عبوديته لله وحده، سواء كان صنماً ظاهراً مشاهداً يبصره الناس ويقدسونه، أو كان صنماً لا تدركه الأبصار وإنما يقدسه القلب ويبصره ويعبده. والعبودية ما هي إلا عبودية القلب والجوارح معاً، فإذا تمكنت هذه التربية المادية من منازعة ذلك القلب النقي الطاهر، وتدرجت في غرس تعظيم صنم العُلاقة بداخله يوماً بعد يوم، وسنة بعد أخرى ثم تعاهدته بالنماء وغذته بعوامل البقاء، وجرّدت من القلب كل معاني الإشراق والطهر، ورسخت فيه مناهج الانحراف والتفلت بموقف تلو آخر، تارة بالسماع، وأخرى بالمشاهدة وتارة بآمال تلو آمال، فقد هيأته لكي يصبح قلباً آخر، لا حياة له إلا باتباع هواه، ولا بقاء له إلا بتلك العلائق الفاسدة التي تشرّبها ولا يكاد يطيق فراقها. وعندها يتفاقم الخطر إذا تقادم العهد وأصبحت هذه القلوب بهذا الفساد. وعندها فقط تستعصي التربية، وتزداد هذه القلوب النقية مشقة الأنبياء والمرسلين، وسائر المصلحين في دعوتهم.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تُعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب**

أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء[1]، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربداً كالكوز مجخّياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه»[2].

ولربما وجدت حتى من أولئك المحسوبين على التربية الإسلامية ظاهراً من يتغاضى عن أثر الفساد الخلقي والانحراف الاجتماعي، وفساد البيئة المحيطة بالأفراد، ولا تكاد تجد له مقارعة للباطل، ولا وقفة في وجه المنكرات، ولا غيرة على المحارم، بدعوى أن التربية الإسلامية المكثفة التي يقوم بها قادرة على إزالة كل هذه الآثار، وعلى القضاء على كل تلك الانحرافات من الشاب وبخاصة إذا وصل مرحلة دراسية معينة، أو انتظم في عمل تربوي أو دعوي!؟! ويتجاهلون أن هذه التربية الإسلامية التي يتحدثون عنها والقادرة على التغيير هي ذاتها تلك التي يجب أن ينشأ عليها الفرد منذ الصغر، ولا يجب أن يزاحمها تربية أخرى ـ في جميع مراحل النمو ـ أو تناقضها أو تشوّه من معالمها.

وكثيراً ما يتحول القلب النقي الطاهر من جراء التربية المادية القاصرة إلى عابد لهذين الصنمين.. خادم لهما، مقدّم لكل ما يوصله إليهما، نافر من كل ما يبعده عنهما، مستوحش من كل

---

(١) شتان بين تربية للطفل تستجمع مكامن قلبه الطاهر حتى لا تكاد تُعرض عليه معصية ولا فتنة إلا أنكرها، وبين تربية أخرى جل همها التفنن في إغراق ذلك القلب الطاهر بالشهوات والأخلاط ولا تعي خطورة تعريضه لتلك الفتن، ولا تتخذ التدابير الوقائية لصيانته عنها.

(٢) رواه مسلم.

محذر أو منفّر منهما.. وعندها تبدأ آثار الانحراف بالظهور للعيان.. ويبدأ مسلسل الضياع. وعندها فقط يستيقظ المربون ويدركون أبعاد هذا الخطر الداهم.. فقط حين يشاهدون بأعينهم معالم الانحراف الذي بدأ في الظهور إلى السطح، ويتبصرون مظاهر الفساد بأعينهم. لماذا؟! لأنهم ضبطوا معايير تربيتهم الأولى بمعايير التربية المادية التي لا تؤمن إلا بالمشاهدات والمحسوسات، ولا تولي أدنى اهتمام بالروح والقلب، فلم يفطنوا لمعالم الانحراف الداخلي الأول.

والعجيب في الأمر أن أغلب المربين المسلمين يلجأون من هنا إلى اعتماد مرحلة (التخلية) ويدركون عند ذاك أهميتها وضرورتها.. لكن هيهات، فالأمر أشق مما قد يُتصور، وأعقد مما قد يظن.. إنه يتطلب جهداً أولياً كبيراً لتخلية القلب السقيم أو الميت من صنم العادة الذي نشأ عليه، ثم تربية أخرى أشق لتخليته من صنم العُلاقة، ثم تربية أخرى فائقة لتحليته بالإيمان وتغذيته بالتقوى والصلاح، حتى يتشرب ـ من جديد ـ نقيض ما قد نشأ عليه، ويستخرج ـ من جديد ـ تلك العلائق التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياته ودفقه وكيانه.. وهيهات أن يتحقق النجاح إلا أن يشاء الله!!

وكان الأيسر من ذلك كله اتباع المنهج القرآني في تزكية النفوس، والاكتفاء بالأصل النبوي في تربية الأفراد، ألا وهو البدء من نقطة الابتداء الحقيقية.. من القلب وحده، فإذا صلح وتحلّى بزاد الإيمان والتقى أصبح طاهراً نقياً.. فلا يأمر إلا بالنقي الطاهر من الأفكار، والإرادات، ولا يخطط إلا وفق النقي الطاهر من الأهداف والغايات.

وكم يتملك العجب كل قارىء لأطروحات وسمت بأنها (أفكار تربوية، وآراء منهجية إسلامية لتربية الأطفال)، ثم يجد آثار التربية المادية تتدخل حتى في تغيير الحقائق التربوية الواضحة التي وردت على لسان علماء الإسلام أو تبديلها. وكم جاء نص غربي مادي ساقه الباحث ليضبط مسار المنهج التربوي القرآني الذي جاء به إمام من أئمة الإسلام، وإمام من سلفنا الصالح الكرام عليهم الرضوان.

إن هذا المنهج التربوي الكامل للطفل كان واضحاً أشد الوضوح في سيرة العلماء السابقين وأئمة الهدى السالفين وهو ما أثمر أجيالاً تلو أجيال خالية من التناقض.. سليمة من العلائق والشوائب.. طاهرة القلوب، صحيحة العقول.. سليمة الإيمان. قال ابن الجوزي رحمه الله: «أقوم التقويم ما كان في الصغر، فأما إذا تُرك الولد، وطبعه فنشأ عليه ومرن، كان رده صعباً..» ثم يقول معللاً هذا الكلام: «فإن قلبه فارغ يقبل ما يُلقى إليه» إلى قوله: «ثم المواظبة على الرياضة ـ ترويض النفس وتعويدها مكارم الأخلاق ـ أصل عظيم في حق الصبيان، فإن ذلك يفيدهم أن يصير الخير عادة»[1].

ولا ينكر بعد ذلك الاعتماد غير الواعي في تربية الأطفال على منهج الغرب وجود إفرازات سلبية منطقية لهذا الأثر الرجعي على الأطفال. تظل تلاحقهم إلى ما بعد مرحلة الطفولة، وبدورها كذلك تقوم مناهج مادية جديدة لتفسير هذه الآثار وتجني عليهم مرة أخرى وبطريقة مادية كذلك؟!

---

(١) اللطائف والطب الروحاني: لابن الجوزي، ص ١٣٣.

المراهقة.. مكسب تربوي أم خسارة؟!

حتى ندرك خطورة تأثير الفهم الغربي الذي أصبح يمثل يداً خفية تدير عجلة التربية في حياتنا اليومية، وتوجه مفاهيم كثير من المربين، وتصوغ العديد من الاتجاهات التربوية في واقعنا العلمي والعملي.. ما عليك إلا أن تنظر في الكتب من حولك التي تناولت الحديث عن الأسلوب التربوي في التعامل مع البالغين ذكوراً وإناثاً.. سواء كانت أطروحات سمعية أو بصرية، وسواء كان المتناول لها مغموراً أم مشهوراً.. إنها تتفق في الختام على كونها مرحلة (مراهقة)(١) بالمعنى المتضمن للمشاكل التربوية التي

---

(١) لا يعني ذلك خلو هذه المرحلة من شيء جديد، أو انتظامها في النسق الاعتيادي الذي كانت تتسم به الطفولة.. بل هناك روح جديدة بالفعل، وحركة جديدة، ومرحلة جديدة لا ينكرها أحد.. إنما الحديث عن السبب الباعث لاعتبار هذه المرحلة (مشكلة) بدلاً من اعتبارها مرحلة إيجابية في حياة الفرد، ونقلة مثمرة في التربية يمكن أن تصوغ حياة الشاب صياغة فريدة طوال حياته. والذي يؤكد أن أكثر التربويين اليوم إنما يتناولون هذه المرحلة بمعناها الأول فقط استدلالهم بأطروحات الغرب، ثم تركيزهم على معنى كلمة (مراهق) في اللغة. وهو مصطلح إنما يأخذ طابعه ومعناه بالتقييد والإضافة كسائر الألفاظ العامة الأخرى. فلربما قيل: (راهق زيد) بمعنى: قارب الحُلم فقط. وقد يقال: (أرهق=

تتطلب قدراً كبيراً من الحذر والتحفز، وتحتاج إلى كثير من وسائل المواجهة والحصانة.. الخ. ولقد كنت ـ إلى عهد قريب ـ أتعامل مع هذا المصطلح بالمفهوم المادي السائد الذي لا يمثل في الواقع إلا نقطة ارتكاز أساسية أخرى تمثل الفارق الحقيقي بين التربية المادية والتربية الإسلامية للناشئة. حتى أنعم الله عليّ بلقاء من حدد هذا المعنى العزيز في وجداني وأظهر معالمه في أسلوب تعاملي ونظرتي لهذه الطبقة الغالية من المجتمع. ولم يحدث أن طرحت هذه المرحلة كمشكلة يجب اتخاذ التدابير الوقائية تجاهها في كتب علماء السلف، والمربين، قبل عقود العولمة، والتغرب، التي تشوهت خلالها كل المعالم الإنسانية، بما فيها معالم التربية الإسلامية المشرقة التي تداخل كثير من حدودها الأصلية مع نظريات الغرب وأطروحاته التربوية. فإذا أدركنا أصالة المنهج القرآني في تربية الطفل بمفهوم سلفنا الصالح ـ الذي رأينا طرفاً يسيراً منه في المبحث السابق ـ، وأوجدنا التكامل المطلوب في المناهج الإيمانية الصحيحة التي تغذي ذلك القلب النقي الطاهر خلال المراحل الدراسية التي يتنقل فيها، فإننا لن نواجه مشكلة تربوية عصيبة في المراحل القادمة بإذن الله تعالى. فقط إذا استطعنا تحييد المؤثرات

= الغلام أبويه طغياناً وكفراً) إذا جشّمهما وكلّفهما حبهما له أن يتبعاه في كفره وطغيانه. وتقول: (لا يزداد الكافر إلا رَهَقاً) أي: سفاهة وخفة عقل، وركوباً للشر والظلم، وغشياناً للمحارم. وتقول: (لا ترهقني لا أرهقك الله) أي: لا تعسرني لا أعسرك الله... الخ.

فأين كل هذه المعاني من المعنى الأوحد الذي بات سمة لا تنفك عن هذه المرحلة العزيزة الغالية من مراحل حياة الشاب الصالح في المجتمع الإسلامي الصالح؟!.

الخارجية المادية السلبية، والعادات السيئة طوال فترة التربية تلك. وبدون هذه التربية القرآنية الأولية للطفل يكون مقدار تأثير التربية المادية والتأثر بها، ومن ثم تسلّطها على حياة الطفل القادمة تأثيراً خطيراً لا يمكن إدراك أبعاده إلا بعد فترة طويلة من الزمن، وخصوصاً عند البلوغ.

إن حساسية الموضوع تكمن في كون المراهقة هي المرحلة التي يصحبها بلوغ الشاب[١]، وحدوث الكثير من التغيرات الجسمية والنفسية لديه. فإذا استطعنا التعامل مع الحدث من خلال العودة إلى المنظور الإسلامي الأصيل، أمكننا إيجاد منهج صحيح يقي من التداعيات الخطيرة التي كثيراً ما يشار إليها في كتب التربية والأطروحات المتعددة حول المراهقة. إن إيقاد الحس لدى الشاب في هذه المرحلة بمعنى الرجولة الحقيقية، والشعور بالمسؤولية، وبالتكليف، وبالمحاسبة، بل والتغريم والعقاب المناسب من جراء كل تصرف خاطىء يقوم به كفيل بإيجاد نقلة نوعية وكيفية معاً في حياة الشاب. وبهذه الإجراءات ينتقل الشاب من مرحلة الطفولة والاتكالية والسلبية، إلى مرحلة الرجولة والعصامية والمسؤولية. وحين نتمكن من إيجاد هذه النقلة الواعية فلن نحتاج إلى وقت كثير للتأمل في روائع قصص أولئك الرجال من شباب الصحابة ومن بعدهم الذين ضربوا أعظم

(١) هذه الرسالة برمتها موجهة لشباب الإسلام وفتياته وليس توجيه حديثي بصيغة المذكر يخرج مسؤولية المرأة المسلمة عن تحمل تكاليفها فهي أولى به من الرجل، وإذا أدركت معالم التربية العظيمة هذه فإنها قادرة على صياغة الجيل القادم وفق منهج هذه التربية، بل إنها في كثير من الأحيان أقدر من الرجل في تحمّل هذه المهمة.

المواقف البطولية، وسطروا مآثر الرجولة والتضحية والفداء. إن مكمن الخلل في مشكلة المراهقة (الحديثة) ناجم عن إزاحة مرحلة الطفولة الوهمية إلى مدى أكبرَ من مداها الحقيقي، بل واصطلاح تقاسيم وفروع جديدة تكرّس من المعاناة، وتزيد من تفاقم المشكلة لدى الشباب: (طفولة مبكرة) و (طفولة متأخرة) و (مراهقة مبكرة) و (مراهقة وسطى) و (مراهقة متأخرة) بالمفهوم السابق لمعنى المراهقة. ولربما وصلت هذه الإزاحة الخاطئة للمراهقة أحياناً إلى بواكير العقد الثالث من عمر الشاب الذي يظل - في نظر نفسه، وفي نظر المجتمع حوله - طفلاً أو مراهقاً يعاني من الضغوطات النفسية، وبحاجة إلى مزيد من الرعاية والتدليل والمساعدة. وقد لا يحاسب كثيراً على الأخطاء التي يرتكبها عمداً؟! بينما هو في نظر الشرع رجل بالغ، عاقل، مكلف، له حقه الذاتي في إبداء الرأي، وإدارة حياته الخاصة داخل الأسرة، بل وإعفاف نفسه في كنف أسرته الخاصة إن استطاع. وهو مسؤول عن سائر تصرفاته؛ فقد جرى عليه القلم بكل خير أو شر، وبكل حسنة أو سيئة يعملها.

والقضية هنا تحتاج منا إلى (استثمار واع) فقط لهذه المرحلة الجديدة. وعندما استثمر علماء التربية الأفذاذ من سلف الأمة هذه المرحلة من بداياتها، ووجهوا ذلك الدفق الذاتي نحو مرحلة الرجولة المبكرة إلى وجهته الصحيحة ظهرت معالم الفداء، وانتصر الدين، وعزّت الأمة. حتى إن هؤلاء الرجال في نظر أنفسهم، وفي نظر مجتمعهم لربما تطاولوا بأقدامهم خشية أن يردهم القائد العظيم في المعركة؛ لما قد يُرى من صغر سنهم، فيحرمهم الجهاد والاستشهاد في سبيل الله. ولربما جرّ أحدهم

سيفه الذي يوازيه في الطول ولا يقدر أن يحزمه أو أن يعتجر به!! ويكفي للتأكيد على هذا الفارق المهم في النظرة أن نقرأ عن كثير من قادة الإسلام، وعظماء الأمة، وأمراء الجيوش لنجد أنهم بدأوا بضرب الأمثلة الخالدة في التضحية والفداء منذ سن مبكرة جداً.. في فجر رجولتهم الأولى، بعد انقضاء مرحلة الطفولة الحقيقية وانتقالهم هذه النقلة المباشرة والواعية والمنطقية نحو الرجولة. ولم يذكر أن مشاكل مفتعلة خالطتها، أو أن عقبات وهمية اعترضتها. وكم قاد الجيوش وتأمّر على الناس فتى حدث من شباب الإسلام.. ثبتت جدارته، وظهرت رجولته. وصقلت شخصيته!!.

إن من النتائج المنطقية لسلامة هذه النظرة للشاب، مكاسب تربوية غالية منها: سلامة التعامل، وسلامة النشأة، وسلامة العواطف، والنفسيات، والأخلاقيات معاً.

إذن فما هو مكمن الخلل التربوي ما دامت هذه الحقيقة راسخة في أصول تربيتنا الإسلامية؟!

لو تتبعنا خيوط البحث لوجدنا أن كثيراً من المناهج والقراءات التربوية الحديثة في التعامل مع الشاب بعد بلوغه مرحلة التكليف الشرعي مأخوذة برمتها من نظريات التحليل النفسي لدى الغرب، وبالأخص علم نفس النمو، وعلم النفس التربوي وغيرها من فروع علم النفس. ومعلوم أن علم النفس يمثل الركيزة الأولى في مصادر التربية الغربية، ثم تمت بعد ذلك عملية التعريب والمقابلة، فأصبحت المراهقة عندنا مشكلة تربوية، وأزمة اجتماعية تؤرّق المربين المسلمين، وتحشد لها الدراسات

والنظريات والوسائل التربوية المتعددة.. تماماً كما يحدث في الغرب. إن مرحلة المراهقة في الإسلام ما هي إلا مرحلة النضج والرجولة، وهي سن التكليف والنشاط والإنتاجية، التي قد تفوق حد الخيال.. فقط عندما نحسن استثمارها. وذنب الغرب في هذا الفهم يكمن في كونه مجتمعاً مادياً بعيداً عن الله.. ينظر للشهوات بمنظار خاص، فلا يضبطه ضابط، ولا يعصمه عاصم سوى ضابط المصلحة العامة التي تجوّز فعل (أي) شيء ما دام خارج حدود الإضرار بها. والانطلاق البهيمي الشهواني العارم لدى الغرب في هذه المرحلة العزيزة من عمر الشباب يعد بحق أزمة اجتماعية واقعية لمن قرأ في مسلسل الفساد الاجتماعي، والتحرر البهيمي من قيود الفضيلة والعفة، والانحدار الأخلاقي الذي بات يورق حتى المربين والأكاديميين في الغرب ذاته. وهذا ما يقودنا بدوره للحديث عن معلم آخر من معالم التربية لا يبعد كثيراً عن هذه القضية، بل هو امتداد طبيعي لها.. يتضح فيه الفرق، كذلك، بين المنهج المادي القاصر، والمنهج القرآني الكامل في تربية الأفراد.

الجنوح.. بمعناه الآخر !!

من العادات الحميدة التي يتسم بها المجتمع القبلي وأهل الأرياف ـ في الجملة ـ نظرتهم المبكرة لرجولة الشاب، وإشراكه في مجالس الكبار، وأخذ رأيه في المعضلات التي يجتمع أهل الرأي وذوو الحجى للنظر فيها لإيجاد الحلول لها. وهذا ما يسود غالباً في المجتمعات التي تنشأ على القوة والبأس والعصامية، والبعد عن حياة المدنية والرفاهية والبطالة. وفي أدغال أفريقيا، وصحارى أستراليا، وسفوح جبال القوقاز، وبراري سيبيريا القارسة ينشأ الشباب نشأة تختلف تماماً عن نشأة أقرانهم في عواصم المدن المتحضرة، والمجتمعات المادية المترفة. وهذه النشأة بدورها مهمة جداً في حفظ توازن المجتمعات المحافظة، وزيادة رصيدها من الأمن والإنتاجية والترابط وفي التربية النبوية نجد هذا الملمح التربوي بشكل واضح جلي.

فالناظر في مجالس النبي ﷺ ومجالس الخلفاء الراشدين بعده يجدها لا تكاد تخلو من مشاركة الأحداث، وصغار السن، فضلاً عن الشباب الذين اكتملت رجولتهم وصقلت شخصياتهم. وهي مجالس راقية ولا شك، وكل ما يطرح فيها جدير بتربية راقية كذلك. وحضور الحدث مثل هذه المجالس كفيل بتربيته

هذه التربية الرجولية المطلوبة، حتى وإن لم يتحدث، أو لم يجرؤ على النقاش وإبداء الرأي مهما كان صواباً، كما فعل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في الحديث المشهور[1]. وعندما يفرّغ الشاب من هذه المعاني الرفيعة التي هو في أشد الحاجة إليها أثناء فترة البلوغ والنضج ومستهل عالم الرجولة، وحين تنطلق التربية في تعاملها معه على أساس طفولي محض، لكن بمستوى أعلى مما كان عليه في مرحلة الطفولة الحقيقية، وحين توجه ـ تبعاً لذلك ـ جميع مناهجها ووسائلها التربوية في تغذية هذه النظرة.. فإن آثاراً كثيرة ستحدث ـ ولا شك ـ وسترسم أغوارها العميقة بعيدة المدى في المستقبل.

ولعل من أبرز هذه الآثار وأخطرها ما أصبح يطلق عليه بـ (انحراف الأحداث) أو (الجنوح) أو غيرها من المصطلحات التي تتفق جميعها في تصوير هذه الظاهرة الاجتماعية باعتبارها (أزمة تربوية) تسعى جميع مناهج التربية في العالم لإيجاد الحلول لها.

ولقد انحرفت عدد من مناهج التربية في عالمنا الإسلامي في تشخيص هذا (الانحراف)، ثم في معالجته بعد ذلك. والسبب الرئيسي كامن في اعتماد هذا المفهوم على مجرد النقل،

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟»، فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبدالله: وقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ـ وفي رواية: وفي القوم أبو بكر وعمر ـ ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله ما هي!؟ قال: «هي النخلة» متفق عليه.

أو التعريب المباشر من مناهج التربية غير الإسلامية في تحديد مظاهر هذا الانحراف ثم في التعامل معه بعد ذلك.

ونظراً لاستحواذ هذه الأزمة التربوية على اهتمامات وأطروحات الكثير من الدعاة والمربين فإن الحاجة تدعو إلى أبحاث أصيلة وجديدة لها تنطلق من إيجاد الترابط الوثيق بين نوعين من أنواع انحراف الأحداث: الانحراف السلوكي والأخلاقي الظاهري، والانحراف الداخلي الرئيسي في معاني الإيمان وحقيقة الاعتقاد، وتشوّه أعمال القلوب. وتحرير هذا الفارق ـ تمهيداً لمعالجة كل انحراف بما يناسبه ـ مهم جداً في خضم الأطروحات المادية التي ملأت الساحة الثقافية والتربوية حول الموضوع. ويكاد يجمع التربويون ـ في كل مكان ـ أن هذه الظاهرة تصاحب سن المراهقة والبلوغ، ويستمر أثرها السيِّىء على الفرد زمناً طويلاً ـ إلا أن يتدارك الله عبده ويهديه سواء الصراط ـ.

ولا يكاد يسلم من هذه المشكلة مجتمع بشري تدخلت في خصوصياته تربية الغرب المادية، وتلاعبت في مقدّرات أهله، وتحكمت في طرائق معيشتهم، وأنماط حياتهم.. بإغراءاتها ووسائلها المتعددة. مع أن القاسم المشترك لهذه الظاهرة أنها سمة بارزة من سمات كل مجتمع منحرف لم تتحدد أمامه حقيقة العبودية، ولم تتضح له سنة الابتلاء، ولم يحدد مناهجه ونظرياته وفق معلم المحاسبة والجزاء الأخروي.

فإذا نظرنا ـ مثلاً ـ إلى كتب التربية الغربية وعلم النفس فإنا نجد ضرباً من التركيز على (جنوح الأحداث) بطابعه الإجرامي،

و (مظهره العدواني) المتمثل في السلوكيات الظاهرة المنحرفة، المنتشرة بين المراهقين في تلك المجتمعات في هذا السن. وبالتالي نجد ـ تبعاً لذلك ـ أطروحات تربوية تعتمد نظريات متعددة للعلاج، تتفق وتفترق بدرجة اتفاقها وافتراقها في تحديد بواعث الانحراف ومظاهره ونتائجه. ولن نقف طويلاً لنتبين الخلل في كثير من مناهجنا التربوية التي اعتمدت ذلك الطرح المادي في تصوير المشكلة، ثم اعتمدت الطرح المادي ذاته في معالجتها. وكان الواجب ألا نخلط بين الأسباب والمظاهر، وأن نفرّق بين السبب والمسبّب، وبين الأثر والمؤثر.

إن كل تلك المظاهر السلوكية الحاصلة ـ والتي تمثل حقيقة الانحراف الأكبر في التربيات المادية ـ ما هي إلا أعراض وآثار وأسباب لانحراف آخر أشد خطراً، وأعظم أثراً. كما يجب أن نعتقد كذلك أن أسلوب التعامل مع هذا المؤثر الداخلي الأكبر في هذه القضية بعيد كل البعد عن الحل المادي المطروح في مناهج التربية المتعددة لأنه باختصار.. خارج نطاق المشاهدة، أو السيطرة بالنسبة لها.

بعد هذا التحديد المهم لطبيعة هذه المشكلة نستطيع أن نتلمّس بثبات جوانب الخلل التربوي الذي يقع فيه بين الحين والآخر كثير من الباحثين، وعدد من التربويين المسلمين أثناء تعاملهم مع هذه الظاهرة تشخيصاً وعلاجاً وتأصيلا!! وبقدر تحديد الموضوع، ومعرفة حقيقته اللغوية والاصطلاحية معاً، وربط مظاهره بدقة من خلال هذا التصور الأولي، بقدر ما يسهل على الباحث تحديد الأبعاد المتغايرة، والنقاط المتباينة أثناء تناوله لوسائل العلاج المطروحة، أو التدابير الوقائية لهذه الظاهرة فيما بعد.

إن حقيقة هذه الأزمة التربوية (الانحراف) في منهج التربية الإسلامية تتمثل في كونه مصطلحاً يعبر عن: (مجانبة طريق الاستقامة على دين الله تعالى). وتتفاوت درجات هذا الانحراف بمقدار التفاوت في لزوم طريق الاستقامة أو مجانبته. ومعتمد هذا الفهم هو كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وفهم السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٥٣﴾﴾[١]، وعن سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**»[٢]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه. وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار»[٣].

وهذا الانحراف الداخلي قد يتجلّى في صورة مظاهر سلوكية متعددة.. تكثر أو تقل بمقدار درجة ذلك الانحراف. وكثيراً ما يحدث تشويه المفاهيم من جراء الانخداع بهذا النوع من التوافق بين المناهج التربوية المتغايرة في المظاهر المشتركة بين المفهومين. غير أن هذا (التوافق) في المظاهر ليس في حقيقته سوى توافق (شكلي) فحسب، وما بين المظهرين من التباين والافتراق في المعاني والحقائق كما بين المشرقين. فمظهر

(١) الأنعام: ١٥٣.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.

الانحراف في شرب الخمر - مثلاً - من جهة كونه متلفاً للبدن. ومضراً بالاقتصاد، وموقعاً في تعطيل الإنتاجية داخل المجتمع. هو مظهر للانحراف بمعناه المادي الذي قد تتبدل معاييره يوماً من الأيام. ولربما تحول بعد زمن إلى مظهر محمود حالما تزول عنه هذه المؤثرات المادية أو يخف ضررها العام تماماً كما يحدث الآن في الغرب الذي أباح الإجهاض وزواج المحارم والربا والشذوذ الجنسي ونحوها من الانحرافات الخطيرة. بينما يكمن سبب الانحراف في شرب الخمر ذاته من خلال التربية القرآنية الأصيلة لكونه من جملة المحرمات التي جاء تحريمها في الشرع. وبكلمة واحدة فقط لها أثرها القوي وثقلها العلوي ينتهي المسلم ويستجيب لأمر ربه ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾. ويكفي هذا الأمر من الرب العظيم لتزول معه كل الإشكالات، وتتضح من خلاله كل النتائج والغايات.. (سمعنا وأطعنا). مع اعتقاد المسلم بأن كل أمر حرّمه الله تعالى فإنما حرمه لحكمة بالغة، ونفع عظيم لبني البشر قد نجهله، وقد ندرك بعض أسراره ولطائفه لكنا لا نقرن أبداً بين معرفتنا لهذه الحكمة التي قد تخفى علينا أحياناً، وبين واجب الانصياع والاستجابة لله ورسوله.

ثم إن الأثر التربوي الذي ينشأ عليه الأفراد من خلال هذه النظرة مختلف تماماً بين المنهجين كالاختلاف بينهما في أصالة النظرة ذاتها. ففي حين تتقبل النفوس في التربية المادية حدوث التناقضات بين الحين والآخر، وانقلاب الحق باطلاً أو الباطل حقاً بناء على تغيّر الأذواق الاجتماعية أو الأعراف السائدة، أو العقول المشرّعة، فإن الثبات على المبدأ، ولزوم المنهج الشرعي.. كاملاً، شاملاً، سالماً من كل نقص أو عيب، مطهّراً

من تحكمات الأهواء، أو متغيرات العقول هو سمة المنهج الذي تربى من معين الوحي، ونشأ في كنف السنة والهدي النبوي الكامل. ذلكم هو المنهج العظيم الذي يصقل أفراداً من طراز فريد في تعاملهم، وفي سلوكياتهم، وفي سائر حياتهم.

والفارق يظهر بجلاء في ختام الأمور وعند الثبات على المبدأ حتى النهاية، وهذا ما لا يتوافر في المنهج الغربي. ذلك أن المحاذير المادية إذا زالت من الخمر في نظر الغربي، وظهر نوع من الكحول أخف أثراً، وأجدى اقتصاداً زالت أسباب المنع والحظر في مفردات المنهج المادي، وعادت الخمر مشروباً كسائر المشروبات الأخرى، كما هو عليه الآن. غير أن ذلك النفع في الخمر ذاتها لا يعد سبباً بأي حال من الأحوال لإزالة المنع، ولا لرفع الحرمة في منهج التربية الإسلامية ما دامت هذه الكلمة تتلى ليلاً ونهاراً، وما دامت السموات والأرض. ولهذا فلما سئل رسول الله ﷺ عن الخمر يتداوى بها قال: «**إنها داء وليست بدواء**». وحكم الله سبحانه بالتحريم حتى مع وجود ذلك النفع الظاهر للناس. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾. بل إن التربية على هذه الاستجابة لأمر الله تعالى ورسوله تعد بحد ذاتها هدفاً ومطلباً ملحاً في هذا العصر؛ لتحديد الفوارق المهمة بين المسلم وغير المسلم، وبين التربية الإسلامية وسائر مناهج التربية الأخرى. وهي مهمة كذلك لتحديد معنى القبول والرد والاستجابة والإعراض في مفهوم التربية الإسلامية، ومعناه في غيرها. ونجاح التربية الإسلامية في هذا الباب يكمن في قدرتها على تعظيم قدر الأمر والنهي في نصوص الشرع، وتقديمها على

كل أقوال البشر ومناهجهم. عن معاذة قالت: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قلت: لست بحرورية ولكني أسأل. قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة[1]. وهذا هو الأثر الذي يسكبه في النفس التسليم المطلق لحكم الله تعالى والاستجابة له والرضى ورفع الحرج عن كل أمر ونهي جاء منه سبحانه. . إنه اليقين بعظمة الأمر والنهي، وهو ما ردت به عائشة رضي الله عنها على هذه السائلة حين أحالت العلة من هذا التفريق هو أمر النبي ﷺ، وعدّته عين الحكمة التي جاءت تسأل عنها. والمعرفة للحكمة في حس المسلم ليست هي تلك المعرفة التي تستلزم القبول أو الرد لذاتها، وإنما هي تلك التي تزيد من اليقين والإيمان والاطمئنان. وبمثل هذا رد ابن عمر رضي الله عنهما على ولده في حديث: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**».

بل حتى لو ارتكب الجانح ـ الذي تربى على هذه النظرة الرائعة في التربية ـ محرماً فإنه سيظل موقناً بخطأه وسيسعى جاهداً إلى التوبة والإنابة. بل الأعجب أن ذلك الأثر العملي للتربية الإيمانية المبني على الاستجابة والاستسلام والقبول يجري حتى في أمور يسيرة قد لا يدرك عمقها ذلك الفرد الذي تلقّى تربية مادية جافة لا روح فيها. أخرج ابن أبي حاتم في مناقب الإمام الشافعي رحمه الله عن يونس بن عبد الأعلى قال: (دخلت على الشافعي رحمه الله وهو يحلق إبطه فقال: إني أعلم أن السنة

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

النتف ولكني لا أقوى على الوجع). فمع أنه يعلم أن إزالة الشعر بالحلق يكتفى به، وتُحصّل به السنة إذا كان النتف يؤذي صاحبه إلا أنه نظر إلى كمال الاقتداء وعظمة الاتساء. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[١].

إن تشخيص مفهوم الجنوح في الغرب ـ بذكر أعراضه وأسبابه، وطرق الوقاية منه وعلاجه ـ باب تعنى به مباحث علم نفس النمو (developmental psychology) بالدرجة الأولى، وتعرض له العديد من مناهج التربية الأخرى. وهو يطلق غالباً على (مظاهر) الجريمة والانحراف التي (يمكن التنبؤ المبكر بها في ظل إمكانية تحديد القابلين للجنوح باستخدام مقاييس القابلية للانحراف السلوكي..).

وجميع الأعراض في هذه الأطروحات الغربية تركز على قضية مهمة ألا وهي: (الشقاء بسبب وجود صراعات نفسية عنيفة مكبوتة غالباً)[٢]، ومن المظاهر العامة للجنوح التي يرد ذكرها في كتب علم النفس التي تتناول هذا المصطلح: (عدم الارتياح بخصوص الأسرة وسوء سلوك الوالدين، والشعور بالرفض والحرمان، ونقص الحب، وعدم الأمن، و (عدم فهم الآخرين له)، والشعور بالعجز، والكذب والتخريب والشغب، والخطورة على الأمن، والهروب من المدرسة، والتشرد والبطالة، والعدوان

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة): د. حامد زهران. عالم الكتب، ط ٥، ص ٤٦٠ـ ٤٧١.

والتمرد، وعدم ضبط الانفعالات، والسلوك الجنسي المنحرف كهتك العرض، والجنسية المثلية (اللواط)، وتعاطي المخدرات، وغير ذلك من ألوان السلوك الإجرامي)[1]. وهي كما ترى مجرد أعراض ظاهرة لسبب حقيقي داخلي لا تشير إليه هذه الكتب وهو مكون من مرتبتين: فراغ القلب، وضياعه، وتشتته بسبب عدم الإيمان. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾. والمرتبة الأخرى تكمن في عدم اعتماد المنهج التربوي الإسلامي في التعامل مع الشاب عند البلوغ.

وعند تحليل الجنوح النفسي للحدث من هذه الكتب الغربية، أو تلك الناقلة عنها، نجد أنها تطلق الجنوح غالباً على مظاهر الجريمة المخالفة لـ (القانون) والتي تضر بالمجتمع. وبالتالي فإن الهدف الأساس من علاج هؤلاء (المجرمين) من الجانحين من وجهة نظر التربية المادية هو: «.. حماية المجتمع من خطرهم وأضرارهم، وتعويدهم على احترام (القانون)، وخلق (المواطن) المستقل الذي يطيع (القانون)، لا لأنه خائف من (القانون)، ولكنه يرغب في طاعة (القانون) رغبة ذاتية...»[2].

ولعل أبرز ما يثير اهتمام القارىء لهذا النص الذي لا يتجاوز أربعة أسطر تكرر كلمة (القانون) أربع مرات والتشديد على وجوب طاعته ذاتياً، والتأكيد على ضرورة ردع هذا الجانح

---

(١) المرجع السابق.
(٢) سيكولوجية الجنوح: د. عبدالرحمن عيسوي، الإسكندرية، ص ٥٨.

إذا خالف ما ينص عليه القانون. وبهذا يمكن تحديد مفهوم الجنوح في المصطلح الغربي وفي إطلاقه العربي المشوّه كذلك في: (تمرد الفرد على القانون وعلى المجتمع). ولا تعد تلك المظاهر التي سبق ذكرها، من ظهور الفواحش والمنكرات، وانتشار الجريمة والانحلال، والفساد الأخلاقي سوى معايير للحكم على جنوح الشاب، وحاجته للعلاج. ولأرجىء الحديث قليلاً عن طبيعة هذا العلاج لنتعرف أكثر على طبيعة هذه المعايير والأعراض التي يحددها القانون، أو يعتمدها المجتمع بكل طبقاته المثقفة من خلال هذا القانون في تحليل الجنوح ومن ثم في علاجه.

إن معايير الجنوح الغربي تتحدد ـ كما سبق ـ في تلك المظاهر التي يصنفها القانون في قائمة الجرائم أو الانحرافات السلوكية والأخلاقية التي تهدد المجتمع، أما تلك الانحرافات الأخلاقية والجنسية والسلوكية الأخرى التي يمارسها الفرد، ولا تمثل تهديداً للمجتمع في الظاهر فإنها لا تعد مظهراً من مظاهر الجنوح، ولا يمكن إطلاق سمة الانحراف عليها ما دام (القانون) لا ينص على كونها جنوحاً. فكيف إذا سمح القانون بممارستها لكونها حرية ذاتية خاصة؟! بل كيف إذا أصبح هذا القانون ذاته ـ بحكم سلطاته التي أظفاها عليه المجتمع ـ يحميها ويشرّعها، ويعاقب من أنكرها أو ضيق على الآخرين سبل الحصول عليها؟! إن هذا هو الفصل الأخير في مسرح العبودية المطلقة للقانون الذي يتكرر في المجتمعات المنحرفة في كل زمان ومكان. عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عُنقي صليب من ذهب، فقال: «**يا عدي! اطرح هذا الوثن من**

عنقك»، قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة. فقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم! فقال: «**أليس يحرّمون ما أحل الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟**». قال: قلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»[1]. إن معيار الانحراف الغائب عن الغرب اليوم هو ما تمثل في نظرة عدي بن حاتم رضي الله عنه أول الأمر حين استنكر مفهوم الجنوح الذي أطلقه القرآن على الأحبار والرهبان، وعلى كل طاغوت آخر أحل للناس ما حرمه الله، أو **حرّم عليهم ما أحل الله**، أو **عُبد من دون الله** وهو راض، أو دعا الناس لعبادته بمناهجه ووسائله المتعددة، أو ادعى علم شيء من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، أو حكم بغير ما أنزل الله.

وقد كان عدي بن حاتم ـ قبل إسلامه ـ يظن أن الانحراف إنما هو في باب العبادة الظاهرة، لا في باب التشريع وسن القوانين، وهذا ما لم يتوصل إلى معرفته إلا بعد إسلامه. وهذا فارق عزيز آخر يُظهر عظمة التربية الإسلامية ومكانتها، ففي حين لم يتبصّر هذا الراهب العظيم في دين النصارى تلك الحقيقة البدهية الأولية، فإن مما يحفّظه الأطفال في التربية الإسلامية الأصيلة من أصول عقيدتهم أن: (من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرّم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله). قال ابن عباس رضي الله عنه: «يوشك أن تنزل عليكم

---

(١) أخرجه البخاري في الكبير: ١٠٦/١/٤، وذكر محمود شاكر تخريجه عند الترمذي وغيره..

حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»؟!.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك[1].

إن هذا القانون الغربي المتّبع في تحديد أعراض جنوح الأحداث اليوم هو القانون ذاته الذي سن حق الشذوذ الجنسي، وممارسة الانحلال بشتى صوره، وهو الذي يقف الآن سنداً للربا والزنى، وظهيراً للتحلل الاجتماعي والأخلاقي بشتى صوره. ويفرّق بين الناس بحسب أوطانهم وألوانهم لا بحسب عقيدتهم وأديانهم. وهو الذي يهضم حقوق طبقة عريضة من الفقراء، ويسلب الدول الفقيرة حقوقها، ويغلّب جانب المصلحة على كل خُلق أو دين أو فضيلة. فإذا تعجبت من اعتماد الشاذين من قوم لوط على هذا القانون قديماً لتبرير انحرافهم بقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[2] فلك أن تعجب أكثر من فساد معايير هذا القانون الغربي المعاصر الذي يتدخل حتى في تشويه معايير الفضيلة والرذيلة، بناء على جنوح المجتمع كله، ويعدّل من معاييره تبعاً لدرجة الانحراف التي ينحدرون فيها يوماً بعد يوم. ويتبعه على هذا الانحراف سائر القوانين الوضعية في

---

(١) كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.
(٢) الأعراف: ٨٢.

العالم، حتى تلك التي تُعبد من دون الله في كثير من بلاد المسلمين اليوم؟!.

إن اتباع هذا القانون البشري في تحديد معايير الخير والشر، أو الفساد والصلاح لهو (انحراف) كبير في حد ذاته، يجب الحذر منه، والبعد عنه والتحذير منه، وفضحه للناس.

وفي مفهوم التربية الإسلامية الأصيلة ليس ذلك الانحراف في باب الحاكمية سوى طاغوت يصادم ركن العبودية الأعظم لله تعالى ألا وهو كمال الاتباع. قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(١). قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: «إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين»(٢). والباحث المسلم حين يقف على مشكلة الانحراف بين الشباب يبحث أولاً عن أسبابها، وبواعثها، وعن دلالاتها في التربية الإسلامية الأصيلة، بعد أن يتلقى قدراً من العلم الشرعي، وبخاصة في باب حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وأنه قول وعمل يزيد وينقص. وهذا مع عظمته في تحديد الهوية الأصيلة للموضوع فإنه يعد أهم مفاتيح هذا المبحث، وأعظم الضوابط في تحديد معالمه، وتوضيح أعراضه، وأسبابه، وعلاجه.

وما الانحراف إلا نوع من الإعراض عن منهج الله تعالى يظهر في صورة مظاهر خارجية، وسلوكيات شاذة تقدح في كمال

---

(١) يوسف: ٤٠.
(٢) تحكيم القوانين: الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، المقدمة.

الإيمان. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[1]. وعلى هذا فلا يمكن لأي باحث مسلم أن ينطلق في تقرير المنهج التربوي الأصيل في الإسلام ما لم يعتمد منهج أهل السنة والجماعة، بفهم السلف الصالح؛ فإنه مع كونه منهج النجاة في الآخرة، فإنه كذلك منهج السعادة في الحياة.

والفارق بين الانطلاق في تحديد معالم المشكلة من مظاهرها ـ كما هو النهج الغربي ـ، وبين الانطلاق من حقيقتها ـ كما هو النهج الإسلامي التربوي ـ كبير جداً جداً، فلا حد للمظاهر، ولا ضابط لها. ولربما اختلف الاثنان في كون هذا الشيء مظهراً أم لا، ولربما تحول المظهر من كونه معياراً في زمن إلى كونه سمة محايدة لا يعتمد عليها في زمن آخر. أما حقيقة الشيء فثابتة لا تتغير، وراسخة لا تتحول، مهما تعددت مظاهرها وتنوعت معالمها. كما أن طريقة العلاج ستختلف كذلك اختلافاً جذرياً من خلال هذا التباين الواضح في نظر هذا الباحث الأصيل. ولا يعدو بلوغ الأفراد إلى درجة الانحلال القصوى، والتفسخ الأخلاقي الإجرامي إلا برهان عملي محسوس لانحراف داخلي خطير وقع فيه ذلك الجانح، بخلاف النظرة الأحادية في المنهج المادي.

فإذا أدركنا عظمة هذا التميُّز الإسلامي في تحديد المعايير، فإن هناك تميُّزاً آخر يظهر عند تحديد وسائل العلاج المناسبة

---

(١) العقيدة الواسطية: ص ١٠٣.

كذلك، وهو مبحث طويل رائع لا تسعه دراسات ولا مجلدات.

ولقد ظللت أتفكر ملياً في الهدف من إقدام إدارات عدد من السجون في بعض الدول الغربية مثل أمريكا وبريطانيا تقديم عروض لعدد من الدعاة المسلمين لزيارة عتاة المجرمين في سجون هذا البلد الذي تخضع كل مرافقه في الغالب لعمليات تخطيط وتقييم مستمرة، وإعادة هيكلة وتوجيه مادية، وفق النظريات والمناهج التربوية الكثيرة التي يقدمها التربويون هناك، ومنها بطبيعة الحال أساليب التعامل مع الجانحين والمجرمين. وسريعاً ما يزول هذا التساؤل إذا أدركنا حقيقة الفرق بين المهدئات التي تسكّن الألم، وتلك العلاجات التي تستأصل الداء جذرياً من أصوله. إن منهج الإصلاح الغربي للجانحين يتخذ قنوات عملية متدرجة تبدأ بتحديد ذلك الجنوح، وفق مقاييس القابلية للإنحراف، وهي بلا شك مقاييس حسية ومشاهدة، مقطوعة الصلة بالمؤثرات الأخلاقية والدينية. ثم تأخذ بالتدرج إلى طرائق (العلاج النفسي) المتنوعة، لتصل في درجة ما إلى وسائل عملية (رادعة) تتدرج من الحرمان، إلى العقوبة بالسجن، إلى القتل في بعض الأحيان. ولكن يظل السبب ملتهباً والجمر متّقداً، مهما نجحت هذه التربية في زيادة كثافة الرماد الخادع الذي يغطيه لفترة من الزمن. بينما نجد أن القنوات العملية الأولى التي تتبعها التربية الإسلامية في علاج الجانحين لا ترتكز على هذا الحسم والردع الأولي إلا إذا تعلّق الجنوح بحق من حقوق الله تعالى التي أوجب الله فيها الحد الشرعي المعلوم حداً وعداً، أو مما كان يستحق التعزير وفق ما يراه الإمام أو القاضي مناسباً، وما عدا ذلك فإن أنجح الطرق في العلاج تكمن في القضاء على

بواعث الإجرام والجنوح بإيقاد شعلة الإيمان في قلب ذلك الجانح، وتقوية صلته بخالقه سبحانه وتعالى، وتحبيبه إليه، ثم تبدأ عملية (إعادة الحياة) من جديد في ذلك القلب الصائل الآبق، بتبصيره بغاية الوجود وهدفه، وبحقيقة العاقبة والمصير والمآل، وبتحبيب الطاعات إليه، وبتخلية قلبه من كل الأدواء والأخلاط السيئة، وغسله بماء العبودية، وتطييبه بمجامر اليقين والإخلاص، والمحبة لله وحده، حتى تدب فيه روح الحياة الحقيقية من جديد فيستقيم على الطاعة، وتسكن الجوارح بعد ذلك تبعاً لسلامة القلب واستقامته.

وهذا العلاج الإيماني في حقيقته لا تقوى عليه أي تربية مادية قاصرة، مهما سمت منزلتها بين البشر؛ لأن عظمة هذا العلاج التربوي تكمن من جهتين: أنه (شمولي) و (بعيد النظرة). فأما كونه شمولياً فلأنه يجتث ذلك الداء من أصله، ويقضي على كل المظاهر السيئة المتولدة عنه كذلك جملة واحدة.. يدخل في ذلك ما كان منها ظاهراً للناس، وما كان خفياً عنهم مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. وأعظم من ذلك كله تقبيح كل مظهر من مظاهر الانحراف في نفس هذا الجانح بعد ذلك، مهما بدا انحرافاً يسيراً، وذلك بإيقاظ القلب من غفلته لينظر في عظمة من يعصيه. بينما يركز العلاج المادي المعاصر على آحاد المظاهر المنحرفة ويعالجها.. الواحدة تلو الأخرى، وهذا جهد صعب، وشاق، وغير عملي.

ثم إن محيط هذه المظاهر التي يتم علاجها مادياً هو ذلك الجانب الظاهري المشاهد، والخاضع للقياس والملاحظة فقط، بخلاف تلك الأدواء الداخلية الكثيرة غير المشاهدة. وحتى لو

نجحت هذه التربية في علاج مظهر بعينه فإنها لن تضمن قطع تعلّق القلب به البتة، أو عدم الرجوع إليه مستقبلاً، وبخاصة إذا زال سبب الحرمان والمنع، أو خُلّي بين ذلك الجانح وبين تلك المظاهر من جديد.

وأما كون العلاج التربوي الإيماني علاجاً طويل الأثر فلأنه يورث عند هذا الجانح (التائب) مناعة ذاتية، تعصمه من أي جنوح مستقبلي بإذن الله تعالى، فالقلب إذا وقر فيه الإيمان، واستشعر خشية الله تعالى ومراقبته، وعظّم حرماته تولدت بينه وبين الوقوع في أي سلوك شاذ في المستقبل جنة ووقاية لأنه يستشعر قول رسول الله ﷺ: «**أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت**» حديث حسن.

وهذا المنهج الرائع في التعامل مع الجانحين، وعلاجهم ليس أمراً نظرياً مثالياً لا يدركه إلا آحاد المربين، وإنما انعقد الإجماع على العمل به، واعتماده في التربية الإسلامية الأصيلة منذ عهدها الأول. عن أنس رضي الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعهدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[1]. وقال بلال بن سعد رحمه الله: «لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت».

ومن قواعدهم التي يرددونها في هذا الباب ـ رحمهم الله ـ أن الذنب كلما عظم في قلب العبد صغر عند الله، وكلما صَغُر في قلب العبد عظُم عند الله. ومع أن هذا العلاج الفعال قد

---

(١) رواه البخاري.

أثبت جدارته عبر تاريخ التربية الإسلامية الطويل إلا أن التربية الإسلامية تتسم بالواقعية كذلك، ومن معالم هذه الواقعية أنها لا تعد هذا النمط الأولي المهم من العلاج هو الحل الأخير، أو الترياق النهائي الذي يصلح لجميع الأفراد. وإنما تظل هناك نفوس يستشري فيها الشر، ولا تستجيب لنداء الفطرة، ولا يؤثر فيها واعظ الشرع، ولا يصلح معها إلا التدابير الرادعة العملية الحاسمة الأخرى من الهجر والقطيعة، والتعزير ونحوها من وسائل العقاب الشرعي - النفسي أو الحسي -. غير أن هذه التدابير الرادعة لا تستمد قوتها من قوانين البشر التي يعتريها الجهل والخلل والتقصير، وإنما هي تدابير شرعية، محمودة العاقبة، وتسري على الجميع صغاراً وكباراً؛ فهي تؤدب الشريف قبل الوضيع، والغني قبل الفقير وتخضع الجميع لحكم الله تعالى في الحد، والعد، والكيفية. فلا عجب إذن أن تجد سجون هذه الدول الغربية الأثر العظيم للإسلام في تغيير أنماط سلوك هؤلاء المجرمين العتاة المشاكسين، وترى كيف تتحول طريقة تعاملهم، وكيف تسكن نفوسهم، وتزكو أخلاقهم، وترق طباعهم بالإسلام. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾[١].

---

(١) محمد: ١، ٢.

تربية النشأة الأولى !!

كثيرة هي السمات الفارقة بين منهج التربية الإسلامية ومنهج التربية المادية، لكن لا عجب أن يكون البعد الزمني في تحديد مبدأ التربية ومنتهاها من السمات الفارقة ـ كذلك ـ بين المنهجين. بل هو في الواقع من أهم السمات وأظهرها؛ ذلك أن نسبة عالية من منهج التربية الغربية الذي يصب في محيط الفرد، لا لذاته وإنما لكونه عنصراً من عناصر النهوض بالمجتمع، وأداة من أدوات الرقي به. وعلى ذلك قامت سوق الدراسات التربوية الغربية، والمعاهد الأكاديمية التي تعنى بالأفراد، وتتناول سبل الرقي بهم، والاعتناء بحقوقهم. وهي كما ترى تربية متعدية، تسعى لتحقيق مصلحة اجتماعية كلية على حساب الفرد ذاته.

ولهذا فكثيراً ما يتم تجاهل أفراد من المجتمع الغربي أو المؤسسات الغربية أو المنظمات الغربية(١) لهذا السبب. بينما نجد

---

(١) انتقلت هذه الآفة إلى كثير من المؤسسات الإسلامية والمنظمات الإسلامية.. الربحية منها والخيرية، بحيث أضحت سمة هضم حقوق العمال، واستيفاء الحق الكامل منهم، واستغلال جهودهم ثم الاستغناء عنهم لأتفه الأسباب من أبرز مظاهر العمل المؤسسي المعاصر في مجتمعاتنا الإسلامية، حتى انعدمت تقريباً سمة الوفاء، والتراحم وغاب التكافل والتعاطف بين المسلمين في هذه المؤسسات.

أن التربية الإسلامية تنطلق من أساس التعامل مع الفرد لذاته، أي من كونه عنصرا مستقلاً وكياناً مكرّماً يستحق الرعاية والاهتمام، ويخاطب بالتكاليف ليحقق المعنى الصحيح للعبودية في ذاته، وليكون بدوره فرداً صالحاً في مجتمعه بعد ذلك. وهذا هو السر الفارق بين إعداد الفرد المسلم على أنه الأساس، والهدف، ومحط الاهتمام والرعاية، وبين التعامل مع المجتمع ذاته بكونه محط الاهتمام، والرعاية. ولا عجب أن تبدأ التربية الإسلامية إذن في إعداد هذا الفرد حتى من قبل الوجود الفعلي له على مسرح الحياة، وذلك بالتوجيه لاختيار المحضن الصالح له المتمثل في الأسرة المسلمة الحافظة لحدود الله. ثم تعاهد هذا الفرد بعد الولادة، بتربية صالحة شاملة، تتدرج معه منذ الصغر في هذا الكنف الآمن بحب وحنان، ورعاية ومتابعة. وهذا بلا شك يُعدّ ركناً أصيلاً في التربية، وله نتائج حيوية بارزة في حياة الفرد لا يمكن أن تستغرقها دورة مكثفة في التربية، ولا أن يحتويها منهج تربوي فذ مهما كانت قدرته. ومن ذا يستطيع تعويض تلك التربية الأوّلية الحانية للطفل، في كنف أسرته المؤمنة التي تزكيه وتهذبه، وترضعه الإيمان، وتعلّمه الحكمة، وتغرس فيه مكارم الأخلاق، ومعاني الكمال شيئاً فشيئاً، عبر مواقف تربوية متأنية ومراحل تكاملية متدرجة؟!!

من هنا فقط تتكوّن العظمة الحقيقية الآمنة للأفراد، في ظلال الإسلام. وهو معنى آخر عزيز من معاني العظمة التي لا يمكن أن تتكامل إلا في هذه البيئة الصالحة.

نعم.. قد ينشأ من عظماء الغرب وقادته من يبزغ نجمه من ظلمة الحرمان والتشرّد، وتلمع سيرته من طيات الظلم،

والاضطهاد، والكبت، الذي يعاني منه في غابة الصراع المادي على البقاء في الغرب. ولربما أصبح الفرد الغربي عظيماً كذلك من خلال مناهج تربوية مكثفة، أو دورات علمية مركزة.. غير أن ذلك كله لا يعنينا في شيء ما دام ذلك النبوغ لا يمثل سوى طفرة شاذة تولّدت من ظروف قاسية صادمت الفطرة البشرية السوية التي هي في أشد الحاجة إلى جرعات الأمن والحب، والدفء والرعاية، وحسن التربية منذ بواكير الصبا.

وهذا النبوغ الغربي أو ذاك لا يخلو من آفات خطيرة، ونتائج وخيمة قد تخفى آثارها تحت أضواء الشهرة والعظمة، ولا تظهر إلا في العواقب والخواتيم - كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله -. وهذا النوع من العظمة والنبوغ غالباً ما تتجاذبه نوازع متضاربة يحركها الواقع النفسي تارة أو الوضع الاجتماعي المحيط تارات أخرى.

الإبداع الغربي.. سباق نحو البقاء !!

على النقيض تماماً من كل التصورات الخاطئة التي نحملها عن مناهج الغرب في صنع القادة وتوفير مؤثرات العظمة والإبداع فإن الحقيقة - رغم خطورتها - غاية في البساطة والسذاجة كذلك، وهي محصلة البحث التي يخرج بها كل باحث بصير. ذلك أن كثيراً من مظاهر النبوغ والعظمة ليست إلا إفرازاً قاسياً من إفرازات المجتمع، ونتيجة عكسية من نتائج الضياع الغربي في مناهجه ونظرياته ومجتمعاته. وليس هذا الهوس الغربي نحو الحصول على جرعات من مذاق العظمة في كثير من الأحيان إلا تكريساً للحياة من أجل الحياة ذاتها وطلب اللذة العاجلة المنقطعة أو للتغلب على حياة الحرمان والتشرد والضياع التي يعيشها الفرد الغربي عموماً، وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا فيه. ولقد اطلعت قديماً على مقال طريف[1] لا يبعد كثيراً عما أشير إليه هنا.. يتضمن سؤالاً علمياً حول سر تفوّق الزنوج في المنافسات الرياضية دون غيرهم، بعدما أصبح التفوق الأسود ظاهرة واضحة في الملاعب الأميركية. ويتساءل صاحب التقرير -

(١) انظر المقال برمته في المجلة العربية، شهر ذي القعدة ١٤١٦هـ. ص ٩٩.

وهو رجل أميركي ـ حول هذه الظاهرة بعد أن لم يعد غريباً رؤية البطولات الأميركية وقد أصبحت بمثابة دوري مصغّر للأفارقة ـ حسب رأيه ـ!

ولا عجب أن يتساءل هذا الأميركي الأبيض مثل هذا السؤال بالنظر للواقع المرير من الظلم والقمع، والاحتقار، والكبت الذي يعاني منه أصحاب البشرة السوداء من الأميركيين أنفسهم.

لقد كان هذا التفوّق الأسود مجالاً خصباً لكثير من التفسيرات الفسيولوجية، والافتراضات العلمية، أشار صاحب المقال إلى عدد منها. فمن تلك الافتراضات ما يعزو السبب إلى الزيادة في إفراز هرمون الإدرينالين، أو كبر حجم الرئتين النسبي، أو قلة الدهون في أجساد الزنوج. وامتدت هذه الدراسات تطوّف بعيداً عن السبب الحقيقي لتتناول الناحية التشريحية، وافترضت أن السر يكمن في طول وامتداد عظمة العقب في مؤخرة القدم عند السود بخلاف بقية الأجناس. غير أن كل هذه الافتراضات ونحوها تغفل عن الحقيقة الاجتماعية المرة، أو تتغافل عنها.. وهي أن كثيراً من هؤلاء الرياضيين السود إنما أتوا من أسر فقيرة، عانت كثيراً من صنوف الحرمان والاضطهاد، ولم يتح لأبنائها فرص التعليم المناسبة، ولم تذق طعم الحياة الكريمة الهانئة في ضوء التفرقة العنصرية القاتلة في تلك البلدان الكافرة. فقرر أبناؤها خوض غمار التنافس الوحيد الذي فتح لهم، وصمموا على التفوق.. من أجل البقاء، بل والانتصار في غابة الصراع الاجتماعي الغربي المتحضر!! وهذه النتيجة المُرّة هي ما اعترف بها صاحب المقال (الأبيض) ذاته في ختام عرضه للدراسات والفرضيات حول هذه الظاهرة.

والمسلم الذي يعتز بدينه، ويفاخر به شديد الحرص على الاستئناس بهذه النتائج وتلك الأمثلة ذات المصدر الغربي وما يماثلها؛ لأنها أكثر موضوعية، وأظهر في دحض المقولة السائدة على لسان المستغربين التي يقرر أصحابها بأن توافر الفرص ومناهج التفكير الملائمة للإبداع في الغرب، ومواكبة البيئة الاجتماعية الغربية لاحتياجات المبدع هي السر في نبوغ أعلام التربية الغربية ويزوغ نجمهم في شتى المجالات. وهذه هي الأكذوبة التي ظللنا نرددها زماناً قبل أن تتفتح أبواب المعرفة، ويزداد التواصل بين الشعوب. وعليه فلا يصح أن يكون هذا الطرح المستغرب حول الإبداع والنجاح هو المصدر الذي يعتمد عليه؛ لأنه طرح انهزامي سريعاً ما تتميّع هويته تحت مطارق الغرب. وهو بذلك لا يُعد مرجعاً علمياً موضوعياً يوثق به؛ لأنه لا يمثل ـ في الحقيقة ـ إلا النزر اليسير من نسبة النبوغ الغربي السليم فقط، أما نسبة النبوغ (الشاذ) ـ إن صح التعبير ـ فهي نسبة كبيرة تخفي وراءها حقيقة أخرى مظلمة، ربما جهل الكثيرون أبعادها، أو تجاهلوها.

وقبل الشروع في ذكر أمثلة لعدد من أولئك الذين نبغوا في الغرب بطريقة غير سوية، لا بد من الإشارة إلى أن كل أمة ـ مهما كان تاريخها ـ تزخر بعدد وافر من العظماء والنابغين، وفق معيار النبوغ والعظمة الذي تراه. وحتى في أقل الأمم تحضراً، وأكثرها فقراً يوجد مبدعون ويوجد عظماء تفاخر بهم تلك الأمم. فما السر في تنصيب عظماء الغرب اليوم ليكونوا هم القدوات التي يحتذى بها، والأعلام الذين تسلّط عليهم أضواء البحث ونظريات التفوق والنبوغ؟! بل ويشار إلى أقوالهم ونظرياتهم حتى

في طيات أكثر المواضيع حساسية وخصوصية من تاريخ الأمم وعقائدها؟! إنها بلا شك موازين السياسة العالمية، ومعايير القوى العسكرية، التي تفرض على المهزوم حضارة المنتصر، وتغريه باقتفاء أثره حذو القذة بالقذة ـ كما أخبر ﷺ، وهو كائن مشاهد في هذا العصر ـ، لا في مجال السياسة والترسانة العسكرية فحسب، بل في شتى مناحي الحياة الأخرى. تماماً كما هو عليه الآن في وضع الهيمنة الأميركية، ومن قبل الشيوعية البلشفية والإنكليزية.

ولم تشوه معايير الفطرة ويختل ميزان الأخلاق والقيم على أيدي هؤلاء العابثين بهذه الصورة إلا حين انحسر المد الإسلامي عن قيادة العالم قبل عدة قرون فقط.

إنها إذاً ليست معايير النجاح والعظمة الحقيقية التي تفرض نفسها في سماء التفوق والنبوغ الذاتي بقدر ما هي نماذج مشوّهة ـ في كثير من الأحيان ـ يستعرض بها المنتصر أمام الشعوب الضعيفة المهزومة التي لا يحق لها التفكير إلا وفق مناهج النصر العسكري، ولا التحضر إلا على غرار حضارة الشعب الذي يتلاعب بمقدرات العالم!! بل ولا تملك تسيير شؤونها في سائر مجالات الحياة إلا تحت ضغط العصا الغليظة التي يلوّح بها ذلك المنتصر الأرعن.

ولا عجب أن يُوجَّه لتسيير الحياة الاجتماعية لتلك الشعوب الضعيفة التائهة أفراد من بني جلدتها، وممن يتكلمون بألسنتها.. ممن أحسن ذلك المنتصر تربيتهم، وقاد زمامهم، ومسخ هوياتهم؛ لتحقيق مآربه في مقدّرات شعوبهم، وفي حضارتهم بل

وفي معتقداتهم وأديانهم. وهي حقيقة باتت لا تخفى على أحد هذه الأيام، بل أصبح يدركها حتى أولئك البسطاء من الناس فضلاً عن أرباب الثقافة والنظر، فضلاً عن أهل الدين الصحيح والمعتقد الصحيح من المسلمين.

إن حضارة الغرب حضارة مشوّهة مرقعة آيلة للزوال قريباً على لسان أعلام من الغرب ذاته[١]. ، وهي بذلك لا تصلح لأن تكون بحال أنموذجاً يحتذى به في أي من شؤون الحياة، سوى في طريقة صنع الصابون، وتعليب الخضروات وتصدير السيارات ونحوها من الصناعات، وما عدا ذلك فلا[٢]. بل حتى مشروباتهم، ومأكولاتهم، وملبوساتهم أصبحت تحمل كثيراً من أمراضهم. واستطاعوا أن يصدّروا التعاسة والوباء والأمراض للعالم، وباتوا يعلّمون الناس سماجة الذوق، والانتهازية، والشراهة، والأنانية. وإذا تمسك هؤلاء المنهزمون بنظرياتهم حول مناهج الغرب الأخلاقية والتربوية التي باتت تسري في دمائهم. فما لنا في ممسوخي الفطرة ومأفوني النظرة ومتبلدي المشاعر

---

(١) يقول الفيلسوف الأمريكي الشهير جون ديوي: «إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة.. لهي حضارة تدمّر نفسها بنفسها». بل لقد كان بعضهم أصرح، مثل الكاتب الإنجليزي (أ.م. فورمستر) في كتابه (توقف الآلة، الذي يقول: «ستسير التكنولوجيا قُدماً.. ولكن ليس على خطوطنا التي رسمناها لها، وسنتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا».

(٢) ولقد كان رئيس بلدية «كلينفلد» الأمريكية أكثر جرأة وصراحة حين قال أمام الجمهور المحتشد أمامه: «إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر.. بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات» انظر كتاب: إنسانية الإنسان ص٢١٩.

والأحاسيس، فئة والله أركسها، وليس لنا معها سوى تحكيم الشارع الغربي ذاته؛ فهو أصدق لهجة، وأبين لغة، وأوضح عبارة في تصوير الحقائق، وتقدير نسبة النجاح الغربي في حضارته المعاصرة.

وأجدني مضطراً هنا للدخول في مادة البحث مباشرة، متجنباً الخوض في معالم كثيرة مهمة من الموضوع خشية الخروج عن حدود الدراسة، ولا تحقق المناط الذي أعدت له في الأصل.

إن كثيراً من طفرات النبوغ المُرّة في الغرب ما هي إلا نتيجة التراكم النفسي والاجتماعي المليء بالحرمان والقهر، والظلم والمعاناة في مبدأة، لكنه إشراقة الفكر الغربي وإبداعات المنهج المادي في منتهاه؛ والناس كثيراً ما يجهلون المبدأ، ولا يتذكرون إلا المنتهى.. وهذا من تصوير الأمور بغير حقائقها، والبعد عن الموضوعية في العرض والتحليل. ولنترك خلف ظهورنا كل هذه البهارج المزيفة، والمصطلحات البرّاقة التي آلت إليها الأمور، ولنتجول معاً في الشارع الغربي ذاته الذي أخرج (كل) هؤلاء النابغين، والعظماء اللامعين، ولنصارع معهم من أجل البقاء في ذلك المجتمع المادي الشرس الذي لا بقاء فيه للضعفاء[1] ولتكن هذه النماذج ـ على كثرتها ـ مختارات فقط من شتى العلوم والفنون التي برع فيها الغرب.

(١) لا عجب إذن أن يصل أقل حد لمعدل جرائم القتل اليومية في مدينة نيويورك وحدها إلى عشر حالات يومياً في إحصائية عام ١٩٩٥م. إضافة إلى مئات الحالات الأخرى، من الاغتصاب والسرقة، وحالات الاعتداء الأخرى وما يجري في نيويورك يجري في كثير من مدن الغرب المتحضرة.

١- (شارلز ديكنز)... من ذا الذي لم يسمع أو لم يقرأ روايات هذا المبدع (الغربي)!! أو لم يطرق أذنه هذا الاسم يوماً؟! إنه سؤال ساذج في ظل العولمة الغربية، وتنافس دور النشر العالمية لترجمة وطباعة رواياته الشهيرة التي سار بها الركبان شرقاً وغرباً، حتى يقول مترجم إحدى أشهر رواياته «أوليفر تويست» Olever Twest: (.. ها هي ذي رائعة أخرى نقدمها في كثير من الاعتزاز والثقة بأننا أضفنا إلى المكتبة العربية الحديثة شيئاً جديداً حقاً.. ترجمت إلى (جميع) لغات العالم، وأخرجت على الشاشة البيضاء، والشاشة البلورية، ولا تزال تدرّس في المدارس حتى يوم الناس هذا..). لكن لندع هذه النهاية من نهايات العظمة التي بهرت هذا المترجم وغيره.. ولنبحث عن حلقة من حلقات هذا الروائي الإنجليزي الشهير التي يجهلها أو يتجاهلها كثير من أولئك المبهورين بروائع الغرب المتحضر، مع أن تلك الحلقة المجهولة هي السر الكامن وراء نبوغه. إنها صراعه المرير من أجل الشهرة والمال.. بل من أجل البقاء!! فمن هو (ديكنز) قبل تسليط أضواء الشهرة عليه؟.

ولد تشارلز جون هوفّام ديكنز Charles John Huffam Dickens عام ١٨١٢، وكان الابن الثاني لموظف صغير هو (جون ديكنز)، وزوجته (أليزابيث بارو). والواقع أن هذا الصبي أمضى حياته الأولى في ظل العوز والفاقة. وهو ظل كان يزداد قتامة وكآبة عاماً بعد عام. وظلت الأسرة تتنقل بين تشاتهام ولندن حتى كاد أن يقضى على مستقبله نهائياً حين بلغت الأحداث ذروتها بعد أن اعتقل جون ديكنز الأب وألقي في غياهب السجن لعجزه عن سداد ديونه، ومضت الأم في حال

سبيلها لتفتش عن لقمة العيش. وظل الصبي وحيداً مشرّداً في شوارع لندن وأزقتها المظلمة القذرة. ثم أدخل بعدها في مخزن حقير ليعمل في محل لتلميع الأحذية ولصق الأوراق المطبوعة على علب الدهان نهاراً، حتى إذا حل الليل أَوى إلى غرفته القذرة يشاركه فيها اثنان من المشردين أمثاله.. وظل هكذا سنوات من البؤس المطلق والإذلال واليأس. وهي الأيام التي اعترف ديكنز فيما بعد بأنه عجز أبد الدهر عن محوها من ذاكرته. بل إن الناظر في (روائعه) التي ألفها مثل رواية: «قصة مدينتين» الشهيرة ورواية «أوليفر تويست» ما هي إلا تصوير لحياة الحرمان تلك التي عانىٰ منها.. ولكن بشخصيات مختلفة[1]. ثم تعرّف بعد ذلك على صديق له، وظل يراسل رؤساء تحرير عدد من المجلات والصحف.. وكانت قصصه وكتاباته تلقى دائماً في سلة المهملات. وأخيراً نشرت له إحدى الصحف قصة واحدة على استحياء فكاد يطير من الفرح، واعتبر ذلك تغييراً لمجرى حياته كلها.. فأصبح بعدها يسطر قصصه كل ليلة بمداد من الأمل والدموع. جاعلاً كل كلمة يكتبها بمثابة قفزة جديدة نحو الحياة.. حتى تنافست الصحف في الكتابة له، وسلّطت عليه أضواء الشهرة.. وأصبح روائياً من أشهر الروائيين في الأدب الإنكليزي. إنها طفرة الإبداع بلا شك.. ولكنها ضريبة

(١) تدور رواية (أوليڤر تويست) حول طفل مشرّد طُرد من الملجأ الذي ولد فيه بسبب الظلم. ثم دُفع إلى دفّان يعلمه صناعة دفن الموتى، ويستغله أبشع استغلال. فما كان من (أوليفر) إلا أن فرّ إلى لندن حيث قاده القدر إلى وكر عصبة لصوص رهيبة. وجرت له حوادث ومفاجآت تقشعر لهولها الأبدان.

قاسية من ضرائب الحرمان، والتشرّد، والقهر، ظل يعاوده حتى في سنوات مجده وشهرته، والذي لم تملك زوجته أن تصفه سوى بـ (الرجل غريب الأطوار) لكثرة شروده وتصرفاته الغريبة. فأي منهج، وأي مجتمع، وأي حضارة يحق لنا أن نقيس عليها أساسيات الإبداع، ومقدمات العظمة، في ظل هذا النبوغ القاسي والعظمة (الشاذة)؟! ولولا لطف الله تعالى، ثم عصامية هذا الشاب لظل يلزق أوراق الدهان حتى النهاية.

٢ ـ ومثلما نشأ (شارلز ديكنز) نشأ المفكر العالمي الكبير (هـ.ج. ويلز) (H.G.Welz) الأديب والصحافي والروائي الإنكليزي الشهير، الذي كان في أول حياته صبياً محروماً مشرداً، يعمل في متجر صغير، يظل يكنسه وينظفه، ويخدم صاحبه أربع عشرة ساعة في اليوم. وهكذا ظل يعاني يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام حتى اشتد عليه الأمر فكتب إلى مدير المدرسة التي سبق أن تعلّم بها.. يشكو له فيها مرارة الحياة وكمدها، وقسوة الفقر وسطوة الوحدة والتشرد. وظل يراسله ويسطّر معاناته حتى عرفه الناس، واشتهرت رسائله وكتبه.. وأصبح الروائي العالمي والمبدع الشهير؟

٣ ـ يؤكد الحقيقة ذاتها ـ لكن بلهجة أصدقَ وأوضح ـ بطل العالم في الملاكمة (كاسيوس مارسلوس كلاي) الذي عرفه العالم بعد إسلامه باسم (محمد علي كلاي). يقول (كلاي) متحدثاً عن السبب الباعث له على سلوك طريق العظمة: (.. ولدت في (كنتاكي) بالولايات المتحدة الأميركية.. تلك المنطقة التي اشتهرت بالدجاج المطهي بطريقة فريدة ما تزال تحمل اسمها.. كان طبيعياً أن أعاني منذ الطفولة من التفرقة العنصرية بسبب لوني

الأسمر. ولعل تلك المعاناة كانت حافزاً لتعلّم الملاكمة، لكي أتمكن من الرد على من يسيء إلـيّ من أقراني البيض. ولأني أملك قواماً رياضياً، وعضلات فقد وجدتُ الطريق نحو هذه الرياضة ممهداً. . .». وهذا هو السر الذي كان يدفع به إلى التميّز على مسرح الحلبة، حتى إنه ليتراقص بخفة ورشاقة على الحلبة ثم ينقضّ على خصمه انقضاض الدّبور، ويلدغه بلكمة لا يملك منها فِكاكاً. . ويسقط على إثرها صريعاً. . ليعلو صوت البطل ـ قبل إسلامه ـ مدوياً في الحلبة: «أنا الأعظم»[1]. فماذا كان حاله بعد أن عمر الإسلام قلبه؟! لقد نبذ هذا اللقب تماماً، وأصبح رجلاً عادياً بسيطاً. . متواضعاً هادئاً. وهكذا تكون الجوارح حين يخالط الإيمانُ شغاف القلب.

٤ ـ وعلى النمط ذاته كانت النشأة الأولى لكثير من عظماء الغرب وقادته في شتى المجالات. ولنعرض فيما يلي لعدد من البارزين منهم في علم النفس والتربية على وجه الخصوص لتعلقه بالموضوع. فهذا (كارل يونج) Carl Jung من أشهر علماء التحليل النفسي يصف نفسه بأنه شخص انعزالي، وانطوائي، من إثر المعاناة التي كان يقاسي منها في صغره. . وتلك الفترة الطويلة من العزلة وجدت طريقها في التحليل الذاتي الذي كان سبب شهرته فيما بعد.

٥ ـ ومثله عانى ألفرد أدلر Alfred Adler الذي وصف طفولته بأنها كانت (شاقة وصعبة) بدءاً من الكساح الذي عصف بحياته منذ الصغر، ومروراً بتجارب وخبرات مريرة

---

(١) مجلة الفيصل: عدد ١٧٠.

سطّرها في سجّل ذكرياته. ولا يزال يذكر أنه عندما التحق بالمدرسة كان طالباً فاشلاً حتى إن أحد مدرّسيه في إحدى المرات اقترح على والده أن يأخذ ابنه من المدرسة، ويعلّمه حرفة صناعة الأحذية!!

بغير هذه الدراسة الواعية لسيرة (أدلر) لن نستطيع تفسير ومضات الإبداع (الغربي) في سيرته العلمية فيما بعد، وبخاصة في مجال علم النفس الفردي والتي تميزت فيه أفكاره ومفاهيمه التي من أشهرها على الإطلاق نظرية: الاهتمام الاجتماعي (Social Interest) ونظرية: النضال من أجل التفوّق والاستعلاء (Striving for Superiority) ونظرية: مشاعر النقص (Inferiority Feelings). ونحوها من النظريات التي كانت في واقع الحال تجسّد معاناة مريرة سابقة سبكت في قالب التميّز الذي عُرف به فيما بعد.

٦ ـ وتسلسل النبوغ من ظلام الحرمان يتواصل، وبخاصة في سيرة علماء التربية والاجتماع الغربي، فهذه كيرين هورين (Karen Horney) صاحبة الإبداع في مجال التحليل النفسي الاجتماعي (Psychosocial Analysis) وبخاصة في نظرياتها حول: القلق الأساسي (Basic Anxiety) و: الاتجاهات العصابية (Neurotic Trends)، و: الذات المثالية (Idealized Self) وغيرها من الأفكار والنظريات النفسية.. لم تنس أبداً مأساة وحدتها بعد انفصال والديها بالطلاق، ورحلتها مع والدتها لمواصلة الدراسة. وظلت تسطّر كثيراً من مرارة الحرمان في ذكرياتها وكتاباتها. ولذا تؤكد على الدور الذي تلعبه البيئة المتوترة في خلق القلق وتقول في إحدى نظرياتها الشهيرة: «إن نقص الحب، والتشجيع،

ووجود الوالدين المتخاصمين، وعوامل أخرى في هذه البيئة المضطربة تؤدي إلى بروز مشاعر من الرفض، وانعدام القيمة الذاتية، وظهور سمات للنزعة العدوانية». وهي تعترف بأنها عانت من هذه المشاعر في طفولتها مما جعلها تواصل الدراسة وترتبط بمعهد للتحليل النفسي فيما بعد.

٧ ـ وهكذا نشأ (هاري ستاك سوليفان) (Harry Stack Solifan) في شوارع نيويوك، أخرقاً في تصرفاته منعزلاً عن أقرانه، حتى سيطرت عليه الصعوبات الشخصية القاسية، والحالة الاجتماعية الفقيرة. ولا تزال ترتسم في مخيلته صورة والده (ذا الصمت العجيب)، ومنظر والدته دائمة التشكي وكثيرة المطالب. ونتيجة لهذه الظروف القاسية بدأ مرحلة (الشذوذ: في سيرته بدءاً من العلاقة الجنسية الشاذة مع مراهق يكبره بخمس سنوات، وانتهاءً بالأفكار التي أصبح يحملها بعد أن تسنّم لقب (الإبداع) الغربي لنظرياته الشاذة التي منها: (أن أي علاقة وطيدة بين طفل صغير، وشاب مراهق من نفس الجنس لا بد وأن تقود إلى الشذوذ الجنسي)!! ونظرته الشاذة حول (العلاقة الجنسية العادية مع الجنس الآخر). بالإضافة إلى نظريات أخرى له في مجال تطور الشخصية، والتجسيدات الشخصية، ودراساته حول مرحلة المراهقة ونحوها. والذي يقرأ لهذا الغربي وأمثاله قراءة مجرّدة عن النقد والتحليل وتتبع السيرة الذاتية التي صاغت مثل هذه الأفكار الشاذة يتأثر بتلك النظريات، وتضطرب أمامه الموازين، وبخاصة إذا كانت تلك النظريات تصوّر على أنها (إبداعات) من هذا الغربي الشاذ الذي يجهل الكثيرون سيرته الخاصة ومعاناته.

٨ ـ وهكذا نشأ (إيريك أريكسون)، وفرويد، وداروين، وإريك فروم، وجوردن إلبورت.. الخ. وحتى كبار المخترعين والتجار والرؤساء والفنانين لم يسطع نجم أكثرهم إلا بعد صراع اجتماعي طويل، ومعاناة نفسية أطول.

٩ ـ وهذا هو المخترع الأميركي الشهير (توماس أديسون) (Thomas Adison)(١٨٤٧ـ ١٩٣١) يسطّر في مذكراته الشهيرة ومضات من تاريخ الحرمان والمعاناة، بدءاً من طرده وتسليم ملفه من قبل إدارة المدرسة التي كان يدرس بها ـ نظراً لبلادته، وعدم قدرته على مواصلة التعليم ـ ومروراً بسلسلة لم تنته من الفقر والتشرد والضياع. وهو في مذكراته يصف حالته قبل أن يصبح عالماً كبيراً بقوله: (... كنت أقف أمام المحلات والمعارض التي تبيع الأدوات والآلات الصغيرة أتأملها، وأتغزل فيها، وأقف أمامها بالساعات. وأتعامل معها كما يتعامل المحب مع محبوبته. وكنت أشعر بالتعاسة وأنا أبحث وأبحث في جيوبي عن قطعة نقود واحدة أدفعها ثمناً لإحدى هذه الأدوات فلا أجد. وكنت أجلس في مكتبي الصغير، وأمسك بالقلم لأرسم شكل كل آلة من تلك الآلات التي رأيتها، وتمنيت لو امتلكت واحدة منها. وعندما أتطلّع إلى الرسم الذي سجلته بقلمي كنت أجد فيه الجمال والبساطة والسهولة، وأحس كأنه يحدثني وأحدثه، ويحكي لي ما يمكن أن أصنع به... الخ). فأي منهج غربي كان وراء شهرته إذن؟ إنه درب الحرمان والحاجة، والتشرد والضياع.

والقائمة في هذا الباب طويلة.. وطويلة جداً وهي بحد ذاتها جديرة بأن تفرد في مبحث مستقل ودراسة مستفيضة لدارس

متخصص أصيل يتناولها بدقة، ويتتبع فيها أعلام الغرب في مجالات العلوم المختلفة، علَماً علَماً، وفناً فناً، بشيء من الوعي والإنصاف والموضوعية[1].

ولولا خشية الإغراق في هذه الجزئية المهمة من جزئيات الدراسة لتناولت عشرات النماذج الحية الأخرى بعيداً عن علم التربية، والاجتماع، وعلم النفس، في واقع أعلام الغرب الآخرين، ومفكريه، وقادته؛ لتصوير شيء من معاناتهم المريرة قبل طفرة النبوغ والشهرة ولتأكيد أن مرد ذلك وسببه عائد إلى العصامية الفردية، بعد توفيق الله تعالى ورحمته. وأن المناهج الغربية، والفكر الإبداعي الجمعي الذي يقف خلف الطفرات البشرية ما هو إلا أضحوكة انطلت على المغفلين من العلمانيين المنهزمين في عالمنا الإسلامي الكبير.

---

(١) كم كنت حريصاً على تتبع السيرة الذاتية لأصحاب الكتب الغربية المعربة في مجال القيادة وإدارة الأفراد وفنون التعامل أمثال ستيفن كوفي، ودايل كارينجي، وديان تريسي، وسام ديب وليلى سوسمان ونحوهم بعدما اطلعت على البداية التعيسة، والنهاية الأليمة لعدد منهم. ولا أشك في وجود غموض مظلم وحياة أتعس لكثير من هؤلاء ـ الذين اكتسبوا شهرة في عالمنا الإسلامي ـ وما يحيط به، مع غموض واضح وجهالة عمياء في معرفة أحوالهم ومآلهم.

وختاماً..

فإن التربية الإسلامية الأصيلة على منهج الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح هي وحدها تربية العظماء حقاً، فبها تستقيم الفطرة، وبتعاليمها تتوافر الأجواء النفسية والاجتماعية للأفراد منذ الصغر. وما حق الرعاية والأمن، والحضانة والتربية لكل فرد من أفراد المجتمع المسلم إلا معالم مشرقة أولية للتفوق السليم، والإبداع (السويّ) الذي لا فرق فيه بين أبيض ولا أسود، ولا بين شريف أو وضيع. ولا تتبدل غايات هذه التربية وكلياتها بوشائج الأوطان ولا تختلف باختلاف الألوان واللسان إنما هو التقوى.. وإنما هو التنافس من أجل الآخرة، والتواصل لعمارة الأرض، وإصلاحها، وقيادة الناس جميعاً بحكم الله تعالى وحده، وتحقيق العبودية المطلقة له وحده. إنه دين الفطرة الذي يسير جنباً إلى جنب مع طموحات الفرد وتطلعاته، ولا يقف حجر عثرة أمام آماله ورغباته التي لا تتعارض مع كرامته وتقواه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[(١)].

(١) الروم: ٣٠.

بل إن تلك الأجواء الرائعة في ظل الإسلام منذ إشراقات الحياة الأولى، وتلك الحياة الهادئة التي يتقلب فيها الأفراد تحثهم حثاً نحو الإبداع، والنبوغ، والعظمة، في شتى المجالات، فقط لو أنهم تركوا التعلّق بحبائل الغرب الواهية، وغسلوا أيديهم عن نظرياته التافهة، واستمسكوا بدينهم، وعادوا إلى نبع كرامتهم، ومعين تفوقهم. إنه الميزان الرباني الدقيق المحكوم بعلم الله وقدرته.. فلا شذوذ فيه أبداً، ولا تناقض فيه مع طموحات الأفراد أبداً؛ لأنه منزل من لدن حكيم خبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ (ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)؛ فكما أن حاجات التربية الإسلامية في هذا العصر - وفي كل عصر - هي ذاتها حاجة المنهج الإسلامي في القرن الأول بكل عمومياته، وتفصيلاته، سواء بسواء. وكما حدث الصلاح في المنهج الأول ولم يكن مفتقراً لشيء من المهارات والعلوم المادية الوافدة، أو الخبرات والإبداعات الغربية الكاذبة فإنه ولا شك صالح في هذه الأيام كذلك؛ وبدون هذه المناهج الوافدة كذلك. ولسنا نقدر على الإبداع والتميز إلا بعد إعادة الثقة في النفوس المؤمنة بعظمة المنهج الرباني ذاته بإشراقه في القرون الأولى، وأن الكفاية به دون سواه، والفلاح فيه لا في منهج عداه.

وهذه الجرعات الإيمانية ضرورة جداً في هذا الوقت بالذات؛ لأنها الزاد المحرّك للأفراد، وهي الانطلاقة التي لا يحدث التغيير إلا بها. وعلى ذلك شواهد التاريخ، وسنن الكون كله. وإذا كانت الحضارة المادية الهادرة اليوم هي التي بهرت العقول فقد كان المسلمون - إلى عهد قريب - هم رواد الحضارة

وسدنتها، وعظماء الكون وقادته، بل كان العالم كله عالة على المسلمين في مجال العلوم والحضارة، والثقافة والسياسة التي كانت إسلامية محضة تخلو من أي مؤثر دخيل: شرقي كان أم غربي، ولم يكن يجسر على صياغة مناهجها أي وافد غريب.

ولأول مرة في التاريخ يشهد العالم ظهور إبداع سوي متكامل وأصيل يقيم الحضارة الإنسانية ويسوس الأرض وفق القيم والأخلاق، ويتيح الفرص للجميع بدون استثناء، ويحدد معياره في التفاضل على التقوى فحسب. ولا غرو أن يصبح من رواد هذه الحضارة نجوم عظماء من أمثال: بلال وصهيب وسلمان وعبادة بن الصامت رضي الله عن الجميع، وحتى يُستخلف مولى ليكون قائداً ومديراً على السادة الشرفاء ـ كما فعل نافع أمير عمر بن الخطاب على مكة حين استخلف على أهلها ابن أبزى المولى رحم الله الجميع ـ وحتى كان عظيم مكة في عصره، وعالمها، وفقيهها هو عطاء بن أبي رباح المولى، مع كونه رحمه الله كما يصف الواصف: لا يتأمّل منه المرء طويلاً لدمامة خلقته. إن ذلك الإبداع (السوي) بين الأفراد لم يكن إبداعاً (شاذاً) نتيجة المعاناة، أو الواقع الذي يفرضه الصراع من أجل البقاء، وإنما كان نبوغاً (سوياً) فقد كان عطاء رحمه الله يتلقى العلم مع سائر إخوانه من طلبة العلم في مكة ويتلقى الرعاية والتوجيه ذاته، ويقف معهم على قدم سواء في سائر حياته الدنيوية، وفي عبادته وصلواته ونسكه. غير أن توفيق الله له، وحرصه وذكاءه، ونبوغه وهمته رفعه فوق سائر الأقران، وجعله في منصب الإمام الذي يرجع الناس إليه في الفتوى، والمدرسة التي يتخرّج منها الألوف من العلماء.

وهكذا كانت السلسلة الذهبية من علماء الإسلام في سائر العلوم والمواهب والفنون، ممن بزغ نجمهم في محيط سوي رائع، وبيئة إسلامية فريدة، لا تفرّق بين الناس للون بشرتهم، ولا تمايز بينهم لأجناسهم، أو أوطانهم وأعراقهم. والأعظم من ذلك كله سريان الواقع ذاته مضطرداً في كل حقب الزمان الإسلامي. وبهذا الإشراق والعظمة يتكرر المنهج ويتعاقب العظماء في كل بقعة يرتفع فيها الأذان صباح مساء.. قيم حقيقية متكاملة طُبقت عملياً بصورة أكثر إشراقاً وعظمة. في حين تتشوّه معالم الإبداع والنبوغ في المنهج الغربي القاصر بالبعد الكبير عن الله، والانحلال من ضوابط الأخلاق والقيم الإنساني وظهور صنوف الاضطهاد المقيت؛ والعنصرية الظالمة للأفراد والشعوب بحسب اللون؛ والأعراق واللغات.

واليوم يقف تمثال الحرية شامخاً على نعش الكيان الغربي الهرم.. شاهداً على أفول حضارته.. مستقبلاً كل قادم في ميناء نيويورك الصاخب وقد حمل شعلة الحرية الكاذبة بيده وكتب تحته بخط يقرأه الجميع: «أعطونا جماهيركم المتعبة، الفقيرة، التوّاقة إلى أن تتنفس في حرية. ابعثوا إليّ بنفاية شاطئكم المزدحم.. أولئك الذين لا مأوى لهم ولا وطن، فها أنا أرفع مشعلي قرب الباب الذهبي». وفي حين ترتفع الأعين متطلعة إلى منائر العلم المادي.. سامقة ظاهرة تبهر العيون وتسابق ناطحات السحاب إلى السماء فإنها لا تكاد تبصر أولئك المئات من المشردين المستضعفين، والمتسولين الذين يرقدون في ظلها.. لا مأوى لهم، ولا قدرة لأحد منهم على تنافس جديد يقيه برد الشتاء القارس، في أحراش غابة الصراع المادي المتواصل من أجل البقاء.

وصدق الله القائل: ﴿.. قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيه المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بارقة	٥
مقدمة	٧
توطئة!!	١٧
حجم الظاهرة في الواقع الدعوي	٢٢
من يقرأ هذه الكتب؟!	٢٥
جناية المصطلحات اللفظية	٣٣
التأصيل.. والأسلمة	٣٥
مهمة خاصة جداً !!	٤٠
تعريب.. لا تغريب !	٤٢
خبرات بشرية.. لا نصوص شرعية	٤٥
أعلام.. لا قدوات	٤٨
جون ديوي.. شاهداً	٥٠
تربية العظماء.. لا تربية قادة	٥٥
بين حضارة الأخلاق والقيم، وحضارة المادة والفولاذ!	٥٩
من يلمّع صورة الفيلسوف ؟!	٧٣
علام يتهافت الدعاة؟!	٧٧
كيف يهتدي المسترشد إذا كان الدليل حائراً	٨٣

الموضوع	الصفحة
منهج حياة كامل.. لو كان له رجال !!	٨٨
كيف نقرأ هذه الكتب؟	٩٢
ماذا نقرأ؟	٩٣
أنتم الأعلون.. إن كنتم مؤمنين !	١٠٢
قراءة التوظيف الدعوي!؟	١٠٤
رفقاً بـ (القادة) الأحداث !!	١١١
قراءات مختارة!	١١٨
جناية التربية المادية على الأطفال !!	١٧٤
المراهقة.. مكسب تربوي أم خسارة ؟!	١٨٣
الجنوح.. بمعناه الآخر !!	١٨٩
تربية النشأة الأولى !!	٢٠٨
الإبداع الغربي.. سباق نحو البقاء !!	٢١١
وختاماً..	٢٢٥
الفهرس	٢٣١

قريبا ..

سلسلة مفاتيح القلوب

- أورا ق الحب العامر
- الزيارة
- التحية
- الهدية
- الابتسامة
- الضيافة

للشيخ جمال بن فضل الحوشبي